

دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس

منى أواخر القرن العاشر الميلادي

٢٧٥٥ - ٢٩٧٦ = ١٢٨ هـ - ٣٦٦ هـ

للدكتور

محمد محمد حسن الشيباني

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كلية الآداب جامعة الإسكندرية

١٩٨١ م - ١٤٠١ هـ

مؤسسة الثقافة الجامعية

٤٠ شارع الدكتور مصطفى مشرفة

من ٣٥٢٢٤

مقدمة

كان الفرنجة الذين غزوا غالباً أو غالباً ، في أواخر القرن الخامس الميلادي ، من أعظم القبائل الجرمانية قوة وأكثرها شهرة في العصور الوسطى ، وكانت المملكة التي أقاموها هناك ، المملكة الجرمانية الوحيدة تقريباً التي كتب لها البقاء والاستمرار في جزء من العالم الروماني ، فأعطت اسمها وتاريخها لفرنسا ، بعد أن لعبت دوراً خطيراً في الغرب الأوربي ، واعتنق الفرنجة المسيحية الكاثوليكية ، وأقاموا حلفاً مع الكنيسة الغربية ، وأسهموا كثيراً في صنع التاريخ الأوربي في العصر الوسيط .

وعلى الرغم مما استتته الملوك الفرنجة من سنة تقسيم المملكة بين أبنائهم المذكور بالتساوي ، وما كان يمكن أن يترتب على هذا المبدأ من تفتت الدولة ، وذهاب ريحها ، إلا أن ملوك الفرنجة المير وفنجنين ظلوا قائمين في الحكم ، توضع على رؤوسهم التيجان ، وتقدم لهم فروض الطاعة والولاء ، رغم أنهم تحوّلوا في كثير من الأحيان إلى أطياف ملكية واهية ، وفقدوا الجانب الأعظم من قوتهم ومهابتهم ، فما كان يكتفه الشعب الفرنجي لملوكهم من محبة وإحترام يصل إلى حد التقديس أحياناً ، حال دون سقوط هذه الدولة سريعاً ، وحفظ لذرية كلوفس وجودهم واستمرارهم في الحكم أكثر من قرنين ونصف من الزمان (٤٨٦ — ٧٥١ م) .

فلقد ظلت دولة الفرنجة المير وفنجنين قائمة في حكم البلاد ، لفترة طويلة إلى منتصف القرن الثامن الميلادي ، حين انتقلت السلطة إلى أسرة جديدة من نسل رؤساء البلاط في أوستراسيا ، فبرزت حقبة جديدة في عمر المملكة الفرنجية في تلك البلاد هي الحقبة — الكارولنجية ، فأضافت إلى عظمة هذه الدولة الكثير

بل حاز شارلمان - أبرز حكام هذه الأسرة - التاج الامبراطورى وارتقى إلى مصاف الأباطرة العظام ، وبلغ شأواً بعيداً بين حكام العالم المعروف حينئذ إذ أقام إمبراطورية كبيرة ابتلعت معظم الغرب الأوروبى وتمتعت بتأييد البابوية وبركتها الروحية .

وفى الوقت الذى كانت الدولة الميروفنجية تنحدر إلى الزوال ، وتعيش الحقبة الأخيرة فى عمرها ، ويتعاضم نفوذ رؤساء البلاط وتشتد مطامعهم للتآمر بالسلطة فى دولة الفرنجة ، عبر المسلمون إلى شبه الجزيرة الأيبيرية فى أوائل القرن الثامن الميلادى ، ليفتحوا أسبانيا وليقضوا على مملكة القوط الغربيين بها ، ويرسوا دعائم حكمهم الفتى فى تلك البلاد ، وينتشلوا أسبانيا من براثن الفوضى والظلم والاستبداد ، ويخرجوا أهلها من ظلمات الجهالة إلى نور الهداية والإيمان ، ويمنحونها أعظم حضارة عرفتها الدنيا فى ذلك الوقت .

فليس من شك فى أن تاريخ المسلمين فى الأندلس كان يمثل حلقة هامة وخطيرة من حلقات التاريخ الإسلامى بصفه عامة ، وكان نموذجاً حياً لعظمة الإسلام وسمو تاريخه وحضارته فى العصور للوسطى ، فقد أثرى المسلمون أسبانيا سياسياً وعسكرياً وحضارياً ثراء لا نظير له وأحالوا شبه الجزيرة الأيبيرية إلى مركز ثقل سياسى وحضارى وثقافى عالى القدر عظيم المسكاته ، فغدت أسبانيا الإسلاميه قبلة السفراء والعظماء وطلاب العلم والناهين ، وهوت إلى قرطبه أفئدة المعاصرين ، واتجهت إليها أنظارهم ، وخلبت بعظمتها ومكانتها لبهم ، فليس ثمة مبالغة فى أن الأندلس كان مركز إشعاع حضارى وفكرى ، يفيض على الدنيا فى ذلك الوقت ، وقوة سياسية وعسكرية يضعها الشرق والغرب فى الحسبان ومنهلاً عظيماً من مناهل العلم والعرفان .

وإذا كانت حلقات التاريخ الإسلامى فى الأندلس ، قد تفاوتت فى قوتها

وعظمتها — شأنها في ذلك شأن جميع الأمم — ما بين طفولة وصبي وشباب وشيب ، وما بين قوة وضعف واضمحلال ، فإن الحقبة الأموية في التاريخ الأندلسي — التي قاربت قرنين ونصف من الزمان كانت حقبة الشباب في ذلك التاريخ ، وفترة العظمة والقوة والازدهار في عمر المسلمين في أسبانيا ، تبوأَت الأندلس خلالها مكانة عظيمة بين أقطار الدنيا ، وفرضت وجودها السياسي والحضاري على أمم الشرق والغرب على حد سواء ، ومثلت ومضة ساطعة الضوء والبريق في سماء العالم المظلم في ذلك الوقت .

ومما يلفت الانتباه أنه بينما كانت الأسرة الجديدة في دولة الفرنجة ، وهي الأسرة الكارولنجية ماضية في إرساء دعائم حكمها في البلاد في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) تتبازة كل الصعاب في طريقها ، كانت الإمارة الأموية في الأندلس ماضية هي الأخرى في تدعيم سيطرتها وإحكام قبضتها على الأندلس مجتازة كل المصاعب في طريقها ، نائية بهذا القطر عن كل الأطماع والمطامع . وبينما كانت سلطة شارلمان آخذة في الازدياد في الغرب وشهرته أخذت تطبق الآفاق ، كانت هيمنة عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) على الأندلس قد غدت مؤكدة ، وشهرته تد أخذت تذيع في الخلفين أيضاً وقيام الحكم الأموي في أسبانيا قد ملأ الأسماع . وبينما كانت إكس لاشابل عاصمة شارلمان تحتل مكائنها بين عواصم العالم الكبيرة في ذلك الوقت ، كانت قرطبة الأمويين ماضية في بناء عظمتها ورفعته كما إحدى عواصم الدنيا الهامة في ذلك الوقت أيضاً .

وإذ تجاوزت الدولتان ، دولة الفرنجة الكارولنجيين ودولة الأمويين الأندلسية ، على جانبي جبال البرنيه (البرانس) ، بما كانت تمثله كل منهما من زعامة سياسية وعسكرية ودينية ، وما كانت تعتقده كل منهما بمسؤولياتها تجاه

شعبها وأمتها وقيمها الدينية والروحية ، كان لابد من حدوث احتكاك بينهما سواء شاء ذلك أم أيا ، وسواء جرى ذلك الاحتكاك غنياً واتخذ أسلوب النزال والصراع الدموي ، أو جرى في إطار سلامي دبلوماسي ، أو إطار حضاري وفكري ، أو إطار إقتصادي مادي ، وبعبارة أخرى كان لابد وأن يحدث إحتكاك بين الدولتين وتجرى صلات بينهما ، بحكم تجاورهما من ناحية واختلاف قيمها الدينية والسياسية من ناحية ثانية ، ومسئوليتها تجاه أمتها وشعوبها من ناحية ثالثة ، ولهذا جرى الصراع رهيباً يذنها أحياناً ، وهذا أحياناً أخرى لتحل محله لغة التفاوض والدبلوماسية ، وتطور في أحيان ثالثة إلى اتصال حضاري فكري أو مادي ، وفي كل الأحوال أضاف ذلك عمقاً جديداً في تاريخ الأمتين : الفرنجية فيما عرف بفرنسا والإسلامية في بلاد الأندلس .

والواقع أن دراسة هذه التجربة في تاريخ الأمتين قد شدتني كثيراً وأثارت اهتمامي ، ففكرت في تخصيص مؤلف لهذا الموضوع ، يلقي الضوء على أبعاد وأعماق هذا الاحتكاك ويظهر غوامضه ويجلي صفيحاته ، بعد تقديم الدولتين تقديماً تاريخياً والتعريف بهما جيداً ، دولة الفرنجة في عصرها الكارولنجي . والدولة الإسلامية في الأندلس في عصرها الأموي ، وخاصة وقد سبق لي أن قدمت دراسة مستفيضة لمملكة الفرنجة الميروفنجيين في كتابي السابق « الممالك الجرمانية في أوروبا في العصور الوسطى » فتكون دراسة الدولة الفرنجية الجديدة صلة وتكملة لما سبق أن قدمته في دراستي السابقة .

هذا وقد جعلت الكتاب في أربعة أبواب تضم سبعة فصول ، خصصت الباب الأول منه ويشمل فصلين ، لدراسة دولة الفرنجة دراسة مستفيضة لإلقاء الضوء على تاريخها وما جرى فيها من انقسامات وحروب أهلية وعلاقات

ممتضاربة بين ملوكها بعضهم البعض من ناحية ، وبين جيرانهم من ناحية أخرى ، ولعل أبرز ما ضمه هذا الباب هو تقلب الأحوال بهذه الدولة بين عظمتها واضملال حتى اقتضرت في الجزء الأخير من عمرها على ما يعرف حالياً بفرنسا ، بعد أن انسلخ عنها جانب كبير من جزئها الشرقي ليضئ في درب جديد وتبرز فيه وما حوله أسرة جديدة هي الأسرة السكسونية في القرن العاشر لتقيم لنفسها خطأ سياسياً جديداً في تاريخ الغرب الأوربي ، فضلاً عما يحواه هذا الفصل من تفصيلات جديدة عن دولة الفرنجة السكارولنجيين على امتداد تاريخها الطويل حتى أواخر القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) .

وخصصت الباب الثاني ويضم فصلين أيضاً لدراسة الدولة الأموية في الأندلس في عصر الإمارة الذي امتد أكثر من قرن ونصف من الزمان، وعصر الخلافة الذي عمر بقية الفترة الأموية في الأندلس وركزت في هذا الباب على النواحي الداخلية في دراسة هذه الدولة تاركاً العلاقات الخارجية والسياسة الخارجية تجاه الفرنجة بالذات للباب التالي .

وفي الباب الثالث الذي ضم فصلين أيضاً درست الاشتباكات العسكرية بين دولة الفرنجة والدولة الأموية سواء ما حدث منها على الجانب الرسمي في الحملات المتبادلة بينها وأبرز نتائجها ، أو ما جرى منها على المستوى الشعبي في ما عرفه بحركات المجاهدين المسلمين ضد الفرنجة وأقطار الغرب الأوربي ، وأبرز نتائج هذه الاشتباكات .

وفي الباب الرابع والأخير عرضت للعلاقات الدبلوماسية والسلمية بين الدولتين والسفارات المتبادلة بينهما والنشاط الدبلوماسي السياسي بين الجانبين فضلاً عن الصلات الحضارية في مجال الفكر والثقافة والاقتصاد والتجارة .

والصناعة وغير ذلك بقدر ما استفت من المصادر الأصلية ، وما أتيح لي الحصول عليه من المراجع الهامة فى هذا الموضوع .

وعلى الرغم مما يكتنف دراسة دولة الفرنجة فى عصرها الثانى من صعاب وما يحتاجه البحث من دراسة وتفنيـد مختلف المصادر القديمة بلغاتها الأصلية ، إلا أننى ألم أتردد إطلاقاً فى إعداد هذا المؤلف فعكفت سنوات على دراسة مختلف المصادر القديمة بلغاتها وخاصة وقد جرى منذ سنوات قليلة نشر كثير من الأعمال والكتابات القديمة باللغة اللاتينية التى تتناول تاريخ دولة الفرنجة وتلقى الضوء على كثير من أحداث الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى ، فقد نشر سنيدر Snyder فى نيويورك سنة ١٩٧٥ معظم وثائق التاريخ الجرمانى وتاريخ ألمانيا وما سبق نشره وما لم يسبق نشره من قبل من كتابات المعاصرين فى كتاب بعنوان : Documents of The German Hist. وضم وثائق عن حياة الفرنجة وشارلمان وتتويج شارلمان إمبراطوراً وغير ذلك فى :

"Lcdovico Antonio Muratori. Rerum Italicorum Scriptores Mediolani 1723".

وضم هذا الكتاب أيضاً ما نشره عن تاريخ الجرمان من قبل بعض المتخصصين لاسيما بيرتز Georg H. Pertz وآخرون فى ما بين سنتي ١٨٢٦ — ١٩٢٥ فى :

"Monumenta Germaniae Historica, Scriptores" Ed. by Georg H Pertz and others - Hancuver and Berlin 1826 — 1925.

هذا وفضلاً هن هذه المجموعة الخاصة بوثائق التاريخ الجرمانى ، هناك ما نشره كيرز Kurze خاصة فيما يتعلق بتأسيس الحقبة السكارولنجية فى تاريخ الفرنجة على يد يبين القصير ومحاولة هذا إضفاء الشرعية على تلك الخطوة باستقطاب تأييد البابا فى روما . وكذلك عن معركة الديل Dyle التى نشرها

كيرز Kurze أيضاً سنة ١٨٩٠ عن : "The Chronicle of Reginu of Prün"
هذا فضلاً عما نشره كل من هافيه J. Havet بعنوان : Epistolae Gerberti
Ei Havex 1889 ولونفيلد Loewenfeld سنة ١٨٨٦ بعنوان :
Gesta Abbatum Fontenellensum Ed. Loewenfeld 1866
وكذلك ما نشره ويتز Witz خاصة عن تاريخ أوتو الأول في السيرة التي
كتبها الراهب السكسوني ودو كند Widukind ، وعنى فيها بإنجازات وتاريخ
أوتو الأول وخلد فيها انتصاره على المجريين في ساحه لشفيلد سنة ٩٥٥ م
ولقبه منذ ذلك الوقت بلقب « أوتو العظيم » وقد نشر ويتز هذه السيرة
سنة ١٨٨٢ بعنوان :

“Widukind's Rerum Gestarum Saxonicarum Libritres”

وكذلك ما نشره دالتون Dalton في أكسفورد سنة ١٩٢٧ من ترجمة
لكتاب جريجوري التوري عن تاريخ الفرنجة بعنوان : “Gregory of Tours .
Hist. of The Franks” وما نشره كانتور Cantor في سنة ١٩٦٨ من فصول
ضافية عن كتاب اينهارت Einhart عن حياة وسيرة شارلمان بعنوان :
“Life of Charlemagne” ضمن الوثائق والنصوص القديمة والمعاصرة
المترجمة إلى الانجليزية في كتاب بعنوان :

The Medieval Worl 300 — 1300 by Contor N.Y. 1968

هذا وقد نشر باري دوبسون Burie Dobson في سنة ١٩٧٢ كتاباً بعنوان :
“Germany, A Companion to German studies” ويتضمن قدراً هاماً من
تاريخ ألمانيا ووثائق هذا التاريخ في الفترة المذكورة .

ولقد رجعت إلى كل هذه المصادر واستفدت أحياناً بترجمات ما ترجم
منها إلى الإنجليزية وسيرى القارىء الكريم مدى الجهد الذي بذلته في هذه الناحية

من خلال ثبت طويل في نهاية الكتاب بأسماء المصادر الأصلية لهذه الدراسة وكذلك الوثائق الهامة المعاصرة ، فضلا عن عدد وافر من المراجع العربية الهامة .

هذا فيما يتعلق بدراسة دولة الفرنجة — أما ما يختص بالدولة الأموية في أسبانيا فقد استفدت كثيرا من المصادر العربية الأصلية الخاصة بتاريخ المسلمين في الأندلس وكذلك المراجع الهامة ما صدر منها في الشرق وفي الغرب على حد سواء — أما فيما يختص بالصفحات الخاصة بالعلاقات الدبلوماسية بين المسلمين في أسبانيا ودولة الفرنجة ضمن الفصل السابع والأخير فقد استفدت كثيرا من كتاب الدكتور / عبد الرحمن الحجى المكتوب باللغة الانجليزية بعنوان :

“ Andalusian Diplomatic relations with western Europe during the Umayyad Period.” Beirut 1970

وكذلك مقالة نشرها نفس المؤلف في مجلة The Islamic Quarterly التي تصدر في إنجلترا باللغة الانجليزية بعنوان : “Diplomatic relations between Andalusia and the Franks during the Umayyad period” V. xiii, Nov 2 April - June 1969 هذا فضلا عما اطلعت عليه من المقالات والأبحاث العلمية في مختلف المجالات المتخصصة شرقا وغربا ومواد الموسوعات العلمية والتاريخية ودوائر المعارف الأجنبية .

وأرجو أن أكون بذلك قد أضفت إلى المكتبة العربية دراسة جديدة بها وألقيت الضوء على تجربة حافلة في تاريخ العلاقات بين المسلمين في الأندلس ودولة الفرنجة في غرب أوروبا ، كما أرجو مخلصا أن تعم الفائدة بهذا المؤلف ، وأن يجد فيه المتخصصون وطلاب الدراسات العليا والدارسون كل ما يؤملون .

ولا يسعنى فى النهاية إلا أن أتقدم بوافر الشكر والامتنان والعرفان
بالجميل لأستاذى الجليل الأستاذ الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور ، الذى
وجهنى أصلاً لهذه الدراسة ، وتابع عن كثب خطواتى لإعدادها وشجعتنى
على المضى قدماً لإتمامها ، ولم ييخل على بأرائه السديدة وخبرته الطويلة ،
وعلمه الغزير ، وأفسح لى المجال للسؤال والاسترشاد وحسن الاستفادة ،
فلسيادته ولكل من تفضل بتشجيعي أقدم خالص شكرى وعظيم امتنانى .

والله أسأل أن يوفقنا إلى سواء السبيل .

الاسكندرية { شهر رمضان المبارك ١٤٠٠ هـ
يوليو سنة ١٩٨٠ م

محمد محمد مرسى الشيعي

البَابُ الأول

{ دولة الفرنجة }

الفصل الأول : دولة الفرنجة حتى نهاية القرن العاشر الميلادى

الفصل الثانى : فرنسا بعد وفاة شارل السمين سنة ٨٨٨ م

الفصل الأول

دولة الفرنجة حتى نهاية القرن التاسع الميلادي

ينبغي في البداية أن نحدد المقصود بكلمة « الإفرنج » أو « الفرنجة » (Franks) ، إذ جاء استعمال هذا اللفظ متبايناً لدى المؤرخين ، ما بين المعنى العام والمعنى الخاص ، لكن أقرب هذه المعاني إلى الواقع ، ما عناه فريق من المؤرخين المسلمين من أن شعب الفرنجة هو الشعب الذي تزعمه الميروفنجيون والكارولنجيون ، فيما يعرف الآن بفرنسا فضلاً عن شمال أسبانيا (قطالونيا) ، وشمال إيطاليا وأجزاء من ألمانيا ، وجهات أخرى في أوروبا (١) . وهذا المعنى الشامل هو الذي استخدمه المؤرخون المتأخرون للإشارة إلى شعب الفرنجة ، بعد أن استعمل تعبير الفرنجة أحياناً للدلالة على سكان إقليم معين (٢) ، كآسبانيا المسيحية أو بيرنطة أو غيرها . ومن المحتمل أن يكون سبب تغير استعمال هذا التعبير ، بين خاص وعام ، في رأى مؤرخ محدث ، إنما يكمن في تقلب وتغير حدود المملكة الفرنجية ذاتها بين مد وجزر ، وبين اتساع وانحسار ، الأمر الذي أثر تأثيراً مباشراً في استخدام هذا التعبير ، ليعنى عدة شعوب من سكان القارة الأوربية أو شعباً واحداً في إقليم واحد (٣) .

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ١٢٦ ، و ص ١٧٤ ، ج ٦ ص ١٤ ، ص ٦٤ /

ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٢ - ٢٣ (لبنى بروفسال - بيروت - سنة ١٩٥٦)

ابن خلدون المعبر ج ٤ ص ٢٥٢ (بيروت ١٩٦٨) ص ١٤١ (ط بولاق)

(2) El-Hajji : Andalusian Diplomatic relations with western Europe during the Umayyad period, p. 119 — 120

(3) El-Hajji : " Diplomatic relations between Andalusia and the Franks during the Umayyad period. " in the Islamic Quarterly V. xiii Nuv. 2 April ~ June, 1969, p. 113.

وعلى الرغم مما بذله المؤرخون المحدثون في الشرق لتحديد معنى هذا اللفظ، وما يقصد بتعبير الفرنجة أو الإفرنج، فإن الكتاب المسلمين الأوائل ومعاصروا تلك الحقبة الوسيطة من التاريخ كانوا أكثر دقة في استعمالهم لهذا التعبير أكثر من المؤرخين المتأخرين. فقد قصدوا « بالإفرنج » تلك الشعوب التي حكمها فرنجة العصرين الميروفنجي والكارولنجي^(١)، وهو نفس المعنى المحدد الذي استخدمه المؤرخون المتأخرون في الغرب. وكان المسلمون القدامى موفقين في تحديد المعنى بدقة، فقد استخدم المؤرخ ابن عذارى المراكشي كلمة « الإفرنج » طبقاً للمعنى المشار إليه^(٢)، كما استخدم البكري الكلمة لنفس الغرض^(٣)، وهذا الأخير تأثر كثيراً بالمسعودي الذي حدد المعنى بدقة وتناول كثيراً من شعوب أوروبا ممیزاً بينهم ومدركا الفوارق المختلفة بين تلك الشعوب^(٤)، ويضاف المؤرخ أحمد الرازي وابن حيان إلى أولئك الذين حددوا المعنى بدقة، إذ اعتبر بلاد الفرنجة هي التي تبدأ عند الحدود الطبيعية لشبه الجزيرة الأيبيرية فيما وراء جبال البرنيه (البرتات)^(٥). وفي كل كتابات هؤلاء جاءت تلك

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعمال ص ٧٤

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٧٢، ٩٧، ١٠٨ (كولان وليفى يروفندسال
ليدن سنة ١٩٥١)

(٣) البكري : جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك ص ١٤٣ — ١٤٥
(نشر الحجي ١٩٦٨)

(٤) المسعودي : مروج الذهب ومادن الجواهر ج ١ ص ١٩٦ — ١٩٧ (بولاق)

El-Hajji : And. Dip. Rel. p. 120

(٥) القرى : نفع الطيب ج ١ ص ٣١٠ — ٣٤٣ محمد محي الدين عبد الحميد سنة ١٩٤٩

Reinaud : Muslim Colonies in France, Northern Italy and
Switzerland, p. 85 (Eng. trans. sherwani Lahore 1964)

الأجزاء التي خضعت لحكم الأسرتين الميروفنجية والكارولنجية ضمن تعبير بلاد الفرنجة التي تمثل فرنسا الحالية جزءا كبيرا منها هو بمثابة القلب في الإمبراطورية الفرنجية . أما في عصر الحروب الصليبية فقد أطلق المسلمون اسم الفرنجة أو الإفرنج على جموع الصليبيين الذين وفدوا من غرب أوروبا سواء من فرنسا أو إنجلترا أو ألمانيا أو إيطاليا — دون تحديد لأصل عنصري . وربما كان السبب في ذلك هو غلبة العنصر الفرنجي على الموجة الصليبية .

ولقد عرف المسلمون المعاصرون تعبير « فرنسا » ومن المحتمل أنهم استعملوها للدلالة على الجانب الأكبر من أملاك الفرنجة ، وليس كل تلك الأملاك (١) ، في حين قصد بالإمبراطورية الفرنجية تلك الأقاليم التي تحدها جنوبا جبال البرنيه (البرتات) ، والتي سماها المسلمون أو سموها الجزء الأكبر منها باسم الأرض الكبيرة The Vast Land (٢) .

ولقد حكمت الأسرة الميروفنجية إمبراطورية الفرنجة ردحا من الزمن ، منذ نجاح كلوفيس في وضع دعائم هذه الدولة في غالة في أواخر القرن الخامس الميلادي ، وظل أبنائه وأحفاده يتوارثون الدولة الفرنجية بعد وفاته سنة ٥١١ م بطريق اقتسام الإرث بالتساوي (٣) ، حتى وهنت الدولة كثيرا واران عليها ضعف واضمحلال . حقيقة نجاح بعض أفراد الأسرة الميروفنجية في توحيد الإمبراطورية فترات متفاوتة ، كما فعل لوثر الأول سنة ٥٥٨ م حين وحد الدولة

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١ ص ١٢٥

(2) Reiraud : Op. cit. p. 24

(3) R. H. C. Davis : A Hist. of Med Europe, p. 111, p. 156.

من جديد تحت سلطانه (١) ، لكنها عادت إلى الانقسام والتفتت ثانية بعد نحو ثلاث سنوات بعد وفاة لوثر سنة ٥٦١ م ، وظلت الدولة مقسمة حتى أوائل القرن السابع الميلادي (٦١٣ م) ، حين وحدها من جديد لوثر الثاني ، بعد أن أفسح له منافسوه المجال لذلك ، فحكم ابنه داجوبرت (٦٢٩ — ٦٣٩ م) دولة الفرنجة موحدة قوية وحاز بحق سلطة الملوك الأقوياء (٢) .

غير أن الفترة التي تلت وفاة داجوبرت سنة ٦٣٩ ، اتسمت بضعف سلطة ملوك الفرنجة ، وازدياد قوة النبلاء في الدولة ، واتساع سلطة الكنيسة وكثرة ثرواتها وانغماسها في السياسة الدينيوية ، وتدهور السلطة العامة (٣) ، واندلاع الحروب الأهلية والمنازعات الداخلية التي غدت قاعدة عامة ، ثم أصبح تاريخ الفرنجة بعد ذلك حتى ظهور شارل مارتل سنة ٧١٤ م يمثل تاريخ النزاع بين العائلات في نستريا وأوستراسيا للفوز بمركز رئيس البلاط (٤) . وإذا كانت أوستراسيا قد حازت الغلبة في النهاية في ذلك الصراع في أواخر القرن السابع الميلادي فإن ذلك إنما يرجع في الحقيقة إلى أن رئيس بلاطها كان بوسعة أن يضم من الأتباع ما يزيد على ما لدى منافسيه في نستريا

(1) Camb. Med. Hist I. p. 484

(2) Davis : op. cit p. 111, pp. 113 — 114

واقرا الترجمة الانجليزية لهذه الاحداث في :

Hist. of the Franks by Gregory of Tours (Trans. by Dalton, pp. 18 — 19 — 2 Vol. Oxford 1927)

(3) Heyck : “ Rise of the Frankish dominion ” in B H. VII, p 3478

محمد الشبخ : الممالك الجرمانية في أوروبا في العصور الوسطى ص ١٩٦

(4) Davis ; op. cit. p. 122

وبرجنديا (١) ، في الوقت الذي اعتمدت فيه هذه الأجزاء على رواج التجارة ونشاط المدن ، فلما تداعت التجارة وتدهورت مكانة المدن في نستريا وبرجنديا حازت أوستراسيا الغلبة (٢) ، هذا فضلا عن غلبة الصفة الجرمانية وغلبة العنصر الجرمانى على العنصر الغالى الرومانى من الناحية العددية في أوستراسيا ، وهذا القسم من المملكة الفرنجية (٣) .

غدا يبين الثانى - الذى عرف بيبين هرستال - رئيساً للبلاط في المملكة الفرنجية كلها فاتخذ Metz مقراً له ، فأصبح مركز المملكة حول أوستراسيا ومنز وآخن وكولونيا ، لغلبة الطابع الجرمانى منذ ذلك الوقت أكثر من الطابع الغالى - الرومانى ، إذ لم يعد مركز هذه المملكة حول نستريا وسواسون وباريس وليون (٤) ، وأصبح بيت يبين منذ ذلك الوقت أهم كثيراً من البيت الميروفنجى المالك ، واستمر يبين رئيساً للبلاط مدة تقرب من سبعة وعشرين عاماً (٦٨٨ — ٧١٥ م) ، ثم خلفه ابنه غير الشرعى شارل الذى عرف فيما بعد بشارل مارتل أو المطرقة Martel ، بعد صراع مرير وحروب أهلية جديدة بين أوستراسيا ونستريا استمرت سنوات في بداية عهده (٥) ، وقضى شارل مارتل نحو اثنين وعشرين عاماً رئيساً للبلاط (٧١٩ — ٧٤١ م) ، كانت نقطة تحول خطيرة في تاريخ غرب أوروبا ووسطها ، واستند جانب كبير من شهرة

(1) Lot : The End of the Ancient world, p. 342

(2) Pirenne : Mohammed and Charlemagne pp. 197—8

Davis : op. cit p. 129

Keen : A Hist. of Med. Europe. p. 18

(3) Cantor : Med. Hist. p. 208

(4) Oman : The Dark Ages, pp 261 — 2

(5) Hoyt and Chodorow : Europe in the Middle Ages p. 40

شارل مارتل إلى ما حققه من نجاح تجاه المسلمين في جنوب المملكة الفرنجية ، كما سوف تفصل (١) .

ولقد أعاد شارل مارتل حدود المملكة الفرنجية إلى ما كانت عليه قديماً ، واهتم بنشر المسيحية بين قبائل ألمانيا الوثنية ، ونشر القانون وضرب بيد من حديد على كل محاولات الفتنة في الداخل ، ورتب الأمور في برجنديا ، وأخضع دوق أكوئين الجديد سنة ٧٣٥ م ، وكان أدواق هذه المقاطعة يطمحون دائماً إلى الإستقلال عن المملكة الفرنجية ربما منذ الربع الأخير من القرن السابع الميلادي (٢) . ووجه شارل مارتل جانباً هاماً من جهوده لجنوب المملكة ، فغزا بروفانس وشمال سبانيا ، وقضى السنوات الأخيرة من عهده في إكمال إخضاع السكسون وتنظيم الكنيسة المسيحية في جنوب ألمانيا ومساعدة بونيفاس في تحويل قبائلها إلى المسيحية (٣) ، ولكن أثار البابا جريجوري الثالث بعدم مساعدته ضد المباردين - حلفاء الفرنجة - وباستيلائه على بعض أراضي الكنيسة لمنحها لأتباعه ، وبتعيين أعرانه في الأسقفيات الشاغرة . وتوفي شارل مارتل في النهاية في أكتوبر سنة ٧٤١ م (٤) .

نال بين القصير (الثالث) - أبرز أبناء شارل مارتل الثلاثة - رئاسة

(1) Camb. Med. Hist. V. 2. pp. 129 — 30 .

(2) Pirenne ; op. cit. p. 197

(3) Gesta Abbatum Fontenellensium, p. 32 (Ed. Loewenfeld
(1886)

وقد كتبت بعد نحو مائة سنة من هذه الاحداث ، وانظر أيضا :

R H, C Davis : op cit. p 134

Seidlmayer: Current of Medieval thought, p 35 (tr. by Barker)

(4) Hoyt and Chodrow op. cit p. 147

البلاط وحده في المملكة بعد أن نخطي كل العقبات في بداية عهده ، وما لبث أن سوى الأمور مع الكنيسة ، فأذن بعهد جديد في العلاقة بين الفرنجة والكنيسة الكاثوليكية^(١) ، ثم خطا أهم خطوة في تاريخه حين أنهى عهد البيت الميروفنجي ، ووضع بداية عهد جديد في تاريخ الفرنجة هو العهد الكارولنجي الذي جاء جديداً في كثير من النواحي بالمقارنة بالعهد الميروفنجي الذي أسس جريجوري التوري في وصف سماته المميزة ورسم صوره المختلفة^(٢) . فقد رأى بين القصرين عدم انتظار وفاة تشلدريك الثالث آخر سلالة الميروفنجيين لإنهاء عهد هذه الأسرة وسارع بإرسال سفارة إلى روما يسأل البابا زكريا : « أليس من حق الشخص الذي بيده السلطة الحقيقية أن يكون له أيضاً لقب الملك ؟ » فأجاب البابا : « من حق الرجل الذي بيده السلطة الحقيقية أن يحصل على لقب الملك ، بدلا من أن يحتفظ بهذا اللقب الرجل الذي ليس له سلطة حقيقية » . فاجتمع على أثر ذلك مجلس النبلاء في سواسون بنستريا في أكتوبر سنة ٧٥١ م^(٣) ، وقرر أن يمنح بين لقب « ملك » ، وأن يرسمه القديس بونيفاس لهذا المنصب ، وجرى رفعه على التروس ملكا جديداً للفرنجة حسب العادة الجرمانية القديمة^(٤) ، ثم جرى تتويجه ملكا على يد البابا ستيفن الثاني في شتاء سنة ٧٥٣ — ٧٥٤ م ، كما توج البابا ولدى بين شارل و كارلومان ، وأصبحت ذرية بين — كما عبر البابا نفسه — ذرية مقدسة و كهنة ملكيون ، وترتب على ذلك حصول البابوية

(1) Davis : op cit. p 133

(٢) اقرأ تفصيلات أكثر لما كتبه جريجوري التوري :

Hist. of the Franks, (trans. Dalton) VIII, 36

Davis : op. cit pp. 129—30

(3) Annals Regni Francorum: Ed Kurze' p. 9

(4) Oman : op. cit p. 326

على مساعدة الفرنجة ، وازدياد قوة البابوية في إيطاليا واتساع نفوذها (١) .
أسس يبين القصير بذلك البيت الكارولنجي ، واستمر ملكا على الفرنجة مدة تقرب من سبعة عشر عاما (٧٥١ — ٧٦٨ م) ، قام خلالها بمد حدود المملكة إلى مناطق لم تخضع من قبل للفرنجة ، ومنح البابوية حمايته وقلم أظفار المباردين من خلال حملتين عسكريتين قام بهما في إيطاليا أجبر على أثرهما استولف على الخضوع والتعهد بتقديم جزية سنوية ، ورد ما سبق أن أخذه من أملاك البابا (٢) ، كما حارب المسلمين في الجنوب - كما سيأتي - وأخضع أدواق أكوئين وربط هذه الدوقية بالتاج الفرنجي سنة ٧٦٧ م ، وخلال ذلك شن حروبا ضارية ضد السكسون ، ونجح في كبح جماحهم ، وإن لم يوفق في إخضاعهم نهائيا وترك هذه المهمة لابنه شارل الكبير (٣) ، وبعد أن أرسى دعائم البيت الجديد ومهد السبيل أمام أبنائه ، أسلم الروح سنة ٧٦٨ م ، بعد أن قسم دولته الواسعة بين ولديه .

جاء تقسيم المملكة بين ولدي يبين القصير : شارل و كارلومان سببا في حدوث الفتن بينها ، واندلاع الحروب الأهلية قبل أن يتمكن شارل من توحيد المملكة عقب وفاة أخيه كارلومان بعد نحو ثلاث سنوات سنة ٧٧١ م ، دون أن يلقى معارضة من نبلاء وأساقفة بروجنديا وألمانيا (٤) ، ولقد نجح شارل في

(١) Ostrogorski : Hist. of the Byzantine State, p: 151

(2) Davis : op. cit. pp. 135 — 6

Caml. Med. Hist. V. II, pp 589 — 90

(3) A Passage trans. from Bouetius Capitularia Regum Francorum. (M. G. H. 1883), p. 168

Davis : op. cit 141 — 3

(4) Pirene : op cit p. 228 Oman : op cit. pp. 338 — 9

توسيع رقعة المملكة الفرنجية ، ونشر المسيحية بين الشعوب الوثنية الضاربة على تخوم المملكة ، وحارب المباردين والسكسرون والآفار والسلاف ، فضلا عن محاربتة للمسلمين في أسبانيا - كما سوف نتصل - وقام بنحو أربع وخمسين حملة طزال عهده أكسبته شهرة ذائعة ، وبوأتها مكانة مرموقة في مختلف الأنحاء^(١) . غير أن شارل لم يحتل مكانته في أفئدة المعاصرين لمجرد أعماله العسكرية الناجحة أو إصلاحاته الداخلية فحسب ، وإنما لحماسته الشديدة في نشر المسيحية وروحه الصليبية المتقدة التي أعجب بها المعاصرون وأكبروه من أجلها واتضحمت هذه الروح في كثير من المناسبات والمجالات ، وظهرت بجلاء في خطاب أرسله شارلمان إلى البابا سنة ٧٩٦ م ، أكد به هذه الحماسة الدينية والروح الصليبية الجارفة ؛^(٢) حتى لم يكن ثمة من ينازعه في زعامة العالم المسيحي في ذلك الوقت ، وفي ضوء ذلك يمكن فهم الأحداث التي أدت إلى تتويجه إمبراطورا على الرومان رغم أصوله الجرمانية^(٣) . وقدر لشارلمان أن يحيي الإمبراطورية الرومانية في الغرب بعد زوال عهدها قبل عدة قرون ، ويضع أساس إمبراطورية العصور الوسطى سنة ٨٠٠ م ، وأن يسعد بأنه لم يعد مجرد مالك متبربر ، وإنما إمبراطورا عظيما لشعب صاحب تراث

(1) Cantor : Med. Hist. pp 220 — 1 .

(٢) ترجمة إلى الإنجليزية R. H. C. Davis : من :

Dummler, Epistolae Karolini Aevi (M. G. H.) II, no 93, in.

Davis: op cit p. 146

(3) See " Lives of the Roman pontiffs in ; Lodovico Antonio Muratori, Rerum Italicarum Scriptores Mediolani 1723, III, 284 — 85 " in ; Documents of the German Hist. by Snyder. (New York 1975), pp. 26 — 7

عظيم (١) ، كما قدر له أن يضع أسس نظرية سياسية جديدة قوامها أن مملكته تمثل الشعب المسيحي ، وتخضع لسلطة الكنيسة المسيحية في روما ، وأن البابوية قد خصتها ببركتها الروحية وتأيدها الديني (٢) ، بعد أن قطعت كل ما كان يربطها بالإمبراطورية البيزنطية ، ولم تعد تعترف سوى بإمبراطور واحد في الغرب هو شارلمان .

وبالإضافة إلى ذلك كان شارلمان منظماً بارعاً ، ولعل أعماله في هذا الميدان لا تقل روعة عن أعماله العسكرية والسياسية ، فقد نظم الإدارة ، واهتم بالنظام المالي والاقتصادي والنظام القضائي ، وعنى عناية فائقة بالجيش ، كما أظهر اهتماماً كبيراً بالثقافة والتعليم (٣) ، وبذل جهوداً صادقة في تنظيم الكنيسة الفرنجية ، والرقى بها ، وأدت هذه الجهود كلها إلى بدء نهضة عظيمة في أوروبا عرفت بالنهضة الكارولنجية ، أرسى دعائمها وتعهدها هذا العاهل الفرنجي العظيم (٤) . وعنى شارلمان عناية فائقة بعاصمته آخن Aachen إكس لاشابل التي كان يستقبل فيها السفراء والمبعوثين ، فبنى فيها القصور والمتنزهات ومقراً للسناتو ، ونقل إليها أعمدة الرخام والفسيفساء من قصور روما ورافنا

(1) See : " The Annals of Lauresheim in : Monumenta Germaniae Historica, Scriptores; Ed. by Georg H. Pertz and others, Hanover and Berlin 1826 — 1925 " in : Documents of German Hist. by Snyder, p 26

(٢) فيما يختص بمصادنة التتويج أنظر وجهتي النظر في هذا الأمر من خلال : Liber Pontificalis التي تمكس آراء البابا . وأنظر كذلك : Royal Annals التي يعتقد أن كاتبها Angilbert ، والتي تمثل وجهة النظر الفرنجية في هذا التتويج وذلك في :

R. H. C. Davis: op. cit. p. 911

(3) Alcuin, Epist. 148, Davis ; op. cit p. 138

(4) Cantor : op. cit. p. 232

لتزيين وزخرفة الكنيسة^(١)، فضلا عن عنايته بعواصم أخرى في أنحاء المملكة، كان ينتقل إليها مصطحبا حاشيته وكبار موظفيه ومدرسة القصر لقضاء بعض الوقت، والاهتمام بضياعه الواسعة في مختلف أنحاء المملكة المترامية^(٢).

وكان شارلمان قد قسم الإمبراطورية الكارولنجية في حياته بين أبنائه الثلاثة، لكن وفاة اثنين من هؤلاء الأبناء وبقاء الثالث، وهو لويس الثاني (الأول) جاء في صالح وحدة الإمبراطورية، وأخر تقسيمها بعض الوقت^(٣) وقد احتفل شارلمان قبل وفاته بتتويج ابنه لويس الثاني سنة ٨١٣ م الذي اعتلى عرش الإمبراطورية بعده، والذي أعاد البابا ستيفن الرابع تتويجه بعد ذلك بنحو عامين. وعلى الرغم من أن لويس الثاني كان في السادسة والثلاثين من عمره عندما توفي والده، وأنه كان واسع الثقافة شديد الدين، إلا أنه افتقر إلى ما عرف عن والده من مهارة في الشؤون السياسية والعسكرية والإدارية^(٤)، وما اتصف به شارلمان من همة وحاس وحسن تعامل مع الكنيسة، فقد كان ينقصه بعد النظر والمثابرة على العمل، وكثيرا ما كان يتخذ قرارات فجائية ومتناقضة لاسيما حين حاول أن يخضع جميع الرعايا لقوانين موحدة مع وجود الفوارق في الجنس واللغة^(٥)، وطغت عليه شخصيته الدينية وتقواه فحاول أن يرفع من شأن الكنيسة ويطهرها من الشوائب، وفي نفس الوقت أغدق

(1) Einhard : " Life of Charlemagne " Chapter 25, p 148

(2) Davis ; op. cit. p. 138

(3) Caml. Med. Hist. V. II, p. 624

(4) Davis ; op. cit, pp. 154 — 5

(5) M. G. H. Epist, 159

Cap. Reg. Fraco, 1, p 209

Davis : op. cit pp 155 — 6

المنح الكثيرة على الكنائس ، واهتم بحياة الرهبان والراهبات ، واتخذت علاقاته بالبابا اتجاهها جديدا ^(١) ، أدى إلى شعور البابوية بنوع كبير من الاستقلال ، وهو أمر لم يكن يسمح به شارلمان من قبل ، وترتب على ذلك أن تخلى لويس التقى عن كل سلطة له في روما ، وعن ممارسة السيادة الإمبراطورية في روما ، وأقر البابا على ما يدعيه من حقوق للبابوية في جنوب إيطاليا ^(٢) .

ولقد جاء ذلك كله في وقت اشتدت فيه الأخطار على الدولة وتكالب الأعداء ، عليها من كافة الجهات إذ بدأ الفيكينج غزواتهم للإمبراطورية عبر الحدود الشمالية الغربية ^(٣) ، حتى قبيل وفاة شارلمان وجاء في إحدى الروايات المعاصرة أن شارلمان رأى بنفسه إحدى إغارات الدانين على سواحل دولته في أواخر أيامه ، وأنه أسف لذلك كثيرا والتفت إلى أتباعه قائلا : « لقد تأثرت لذلك كثيرا .. وإنني لأشعر بالحزن والأسف عندما أنظر إلى الآمام ، وأرى كم من الضرر سيلحقه أولئك بذريتي وخلفائي وشعوبهم » ^(٤) . وظلت غارات الفيكينج تروع شواطئ الإمبراطورية في كل عام تقريبا ، بعد وفاة شارلمان وعلى عهد ابنه لويس التقى ^(٥) ، وقد حدث في عهد لويس التقى أن نزل الدانيون على طول ساحل فريزيا وفلاندرز ابتداء من سنة ٨٣٥ م ، حيث عاثوا

(1) Oman : op cit. p 387

(2) Davis . op. cit. p. 136

(3) Hoyt and Chodorow ; op cit. pp. 189 - 90

Schjoth . " Great days of the Northmen " , B. H. VII. Pp. 3539—40

(4) Viking .(trans by Keary), p. 131

Haskins : The Normans in European Hist. p. 32

(5) Oman : op, cit. p. 416

تسادا يههما ودمروا ونهبوا بعض مراكزها منتهزين فرصة الحروب الأهلية الدائرة بين أفراد البيت الكارولنجي ، وزاد من غلوائهم أن لويس التقى حاول مسالمتهم واتقاء شرهم بمنحهم قطعة من الأرض قريبة من رودشتاد ، وفي فريزيا ولكن كل ذلك لم يؤد إلى وقف مطامعهم (١) .

كما تزايد الخطر الخارجى فى عهد لويس التقى من ناحية السلاف والآفار ، على حدود الإمبراطورية الشرقية ، وكذلك من ناحية المسلمين على الحدود الجنوبية — كما سوف تفصل فيما بعد — وساعد على سوء الأحوال استمرار تمسك لويس التقى وخلفائه من بعده بسياسة تقسيم الإمبراطورية بين أبنائه الثلاثة : لوثر وبين رلويس (٢) ، ولما تزوج لويس التقى بعد ذلك وولدت له زوجته البافارية الجديدة واسمها Judith فى سنة ٨٢٣ فى فرانكفورت إبناً رابعاً سماه شارل ، حاولت جديد أن تؤمن مستقبل ولدها الصغير ، وتضمن له نصيباً أكبر من إرث والده ، فألزمت زوجها لويس التقى بإعادة النظر فى تقسيم الإمبراطورية ليضمن حقوق هذا الابن الجديد (٣) . وأدى ذلك إلى حدوث معارضة من قبل أبناء لويس التقى خاصة لوثر ، إلا أن لويس التقى لم يخفل بهذه المعارضة بل أقر فى مجمع فورم سنة ٨٢٩ م إعطاء ابنه شارل أراضى خاصة به قوامها ألمانيا والألزاس وريشيا وقسماً من برجنديا ، فلم يرض هذا التصرف الأبناء الثلاثة (٤) ، فاندلعت الحرب ضارية بين الإخوة بعضهم وبعض من جهة وبينهم وبين والدهم من جهة أخرى ، ثم حدث فى سنة

(1) Haskins. op. cit. p. 33

(2) Camb. Med. Hist. V. III. pp. 10 — 11

(3) Davis : op. cit. p. 159

(4) Ibid : p. 159

٨٣٨ م أن توفي أحد الإخوة وهو يبين الذى كان يحكم أكوتين ، ثم توفي .
بعده أبوه لويس التقى نفسه سنة ٨٤٠ م فانحصر الخلاف بين الثلاثة الباقيين
لويس ولوثر وشارل حتى جرى الإتفاق بينهم فيما عرف باتفاقية فردان
الشهيرة سنة ٨٤٣ م التى جرى بمقتضاها تقسيم الإمبراطورية الكارولنجية بين
الإخوة الثلاثة (١) .

فقد كان من نصيب لوثر الجزء الأوسط من الإمبراطورية ، فريزيا —
الأراضى المنخفضة — وجزء من أوستراسيا غربى نهر الراين فضلا عن
برجنديا وبروفانس وإيطاليا . وخص الإبن الثانى ، لويس الجرمانى الجزء
الواقع شرقى نهر الراين من أوستراسيا بالإضافة إلى بافاريا وسوابيا وسكسونيا
ونال الأخ الثالث شارل الأصلع الجزء الغربى من الإمبراطورية ، نستريا
وأكوتين والماركية الأسبانية على الحدود الجنوبية (٢) . وبعبارة أخرى أعطى
لويس الجزء الواقع إلى الشرق من نهر الراين ، والذى يعرف الآن بألمانيا
تقريبا ، وأعطى شارل الجزء الغربى الممتد حتى حدود أسبانيا أو ما يعرف الآن
تقريبا بفرنسا ، وأعطى لوثر الإقليم الواقع بينهما أى بين نهر الراين ومصب
الشلد والممتد جنوبا حتى نهر الرون وإيطاليا أى من بحر الشمال إلى روما (٣) .

وهكذا تجزأت إمبراطورية شارلمان بين أحفاده ، وحملت اتفاقية فردان
فى طياتها ملامح بعض الدول الحديثة (٤) ، فقد حكم لويس الجرمانى الجزء .

(1) Oman : op. cit p. 409

(2) Hoyt and Chodorow : op. cit, pp. 183 — 4

(3) See : Snyder : Documents of German Hist. p. 29 (New york
1975)

(٤) Hollister : Medieval Europe, pp 102 — 4

الشرقي الذي تسوده اللغة الألمانية ، وتجري الإشارة إلى هذا بألمانيا ، بينما حكم شارل الأصلع الجزء الغربي الذي تسوده اللغة الرومانية المحرفة عن اللاتينية ، ويمكن أن نطلق عليه لفظ فرنسا ، أما لوثر فكان يحكم منطقة انتقال بين اللغتين الألمانية والفرنسية وقد سميت لوثرنجيا - أى مملكة لوثر - ثم حُرف الاسم إلى اللورين وهي نفس المنطقة التي ما زالت حتى اليوم تمثل حلقة الانتقال بين الفرنسية والألمانية (١) . وهكذا أدت اتفاقية فردان سنة ٨٤٣ ، إلى نتائج هامة وخطيرة بالنسبة لمستقبل التاريخ الأوربي في العصور الوسطى (٢) . ومن الواضح أن معاهدة فردان قد قضت نهائياً على وحدة الإمبراطورية الكارولنجية ، وعلى ما كان يؤمله البعض من ضرورة الدفاع عن الشعب المسيحي وعظمة الكنيسة الغربية في ظل هذه الوحدة ، فقد أطاح هذا التقسيم بمفهوم الإمبراطورية والإمبراطور ولم يبق مملكة بل بقايا مملكة وان أدى ذلك إلى تشكيل أمتين كبيرتين هما فرنسا وألمانيا (٣) .

غير أن الواقع تمخض عن مولد ثلاث ممالك مستقلة يظللها تحالف وإخاء ، وان كان لوثر يحمل لقب الإمبراطور ، إلا أنه لم يكن في الحقيقة يتميز عن أخويه بشيء ، ولم يمنح هذا اللقب لحامله سوى رتبة شرفية ليس لها كبير أهمية (٤) . غير أن لوثر حاول استغلال هذا اللقب لمحاولة إعادة البابا إلى حدود

(١) سبهد عبد الفتاح طاعور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٢٠٤ (ط سنة ١٩٧٥)

(2) See : " Annales Bertiniani " in " Monumenta Germania Historica, Scriptores " Ed. by Georg H. Pertz and others, Hannover and Berlin 1826 — 19٠5, 1, p. 440 — in Documents of German Hist. p. 29, by Snyder (The Treaty of Verdun, 843),

(3) Davis : op cit. pp. 162 — 3 .

(٤) حاطوم : تاريخ العصر الوسيط ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

الطاعة والالتزام بالسير في ركاب الامبراطور بعد أن دمرت المشاجرات والحروب بين الإخوة الثلاثة هذا المفهوم^(١)، فأرسل لوثر ابنه الأكبر لويس الثاني إلى إيطاليا بعد أن نصبه ملكا عليها فلم يسع البابا سوى مبايعة الإمبراطور وبارك ابنه لويس الثاني ملكا فتوطدت إلى حد ما سلطة الإمبراطورية في إيطاليا ، على الرغم من أنها كانت سلطة ضعيفة^(٢) . ولقد حاول لويس الثاني في إيطاليا تأكيد الوحدة ، وانصرف إلى محاولة الإصلاح لتوطيد السلطة الملكية وإعادة النظام وإصلاح رجال الدين ، وقام استجابة لرأى والده الإمبراطور باسترداد بعض الأراضي من المسلمين في جنوب إيطاليا على أثر حملة قام بها سنة ٨٤٦ م ، فاسترد بنفنتو من المسلمين^(٣) ، وهذا المنازعات بين الأدواق في الجنوب حتى لا ينتهز المسلمون الفرصة للوثوب هناك ، وحاول لويس الثاني استرداد باري من أيدي المسلمين إلا أنه أخفق في ذلك سنة ٨٥٢ م . وقام لوثر في سنة ٨٥٠ م بتنصيب ابنه لويس الثاني إمبراطورا ، وبارك البابا ذلك وترك الإمبراطور الشاب يمارس في روما سلطاته بصورة فعلية ، وعادت البابوية تجرى في ركاب الإمبراطور الجديد^(٤) .

أما شارل الأصغر فكانت الأحوال في مملكته الغربية سيئة للغاية ، إذ تقلصت سلطته كثيرا ، ولم يجر الإعراف به في البداية في أكويتين وبريتاني والمنطقة أمامهما ، وفشل سنة ٨٤٣ في تأكيد سلطانه في أكويتين ، واضطر

(1) Hoyt and cholorow : op cit. 185.

(2) Davis : op cit. p. 163

Hoyt and chodorow : op cit p. 185

(3) Pirenne : op cit p. 158

Keen : A Hist of Med Europe, p. 34

(4) Hoyt and chodorow : op cit. p 185

للتراجع عن تولوز وأجبر على التخلي عن جزء من هذه البلاد لابن أخيه^(١) وفي سنة ٨٤٨ م اندفع شارل الأصلع إلى أكويتين واشتبك مع ابن أخيه المناوىء في معركة حامية واستولى على تولوز في العام التالي وأجبر ابن أخيه على الفرار سنة ٨٥٢ م ، لكن ذلك كله لم يمنحه سلاما في هذا الجزء من بلاده نظرا للمقاومة التي أبدتها سكان أكويتين بتحريض من لويس الجرمانى^(٢) ، فاضطر شارل إلى منحهم نوعا من الحكم الذاتي ، وانتهى الأمر بأن نصب شارل ابنه ، ويدعى شارل أيضا ملكا على أكويتين ، فهدأت الأحوال فيها إلى حد ما ، وعلى هذا النحو جرى الأمر في بريتانى إذ اضطر شارل الأصلع إلى منح زعيم البريتون لقب ملك ، وتخلي له عن جزء كبير من الولاية مقابل اعترافه بالطاعة ، كل هذا في الوقت الذي اشتدت فيه هجمات النورمان على سواحل المملكة ، وعجز شارل الأصلع عن وقف تقدم هؤلاء الغزاة فاستشرت الفوضى في المملكة وعاث الغزاة فيها الفساد^(٣) .

أما عن لويس الجرمانى فقد نجت مملكته من الإضطراب إلى حد ما ، على الرغم من أن ذلك لم يمنحه قوة وسلطانا في مملكته الشرقية ، فلم تكن سلطته في بوهيميا سوى سلطة شكلية وضعف نفوذه كثيرا في مورافيا ، وهجم البلغار على أطراف مملكته سنة ٨٥٣ م بتحريض من شارل الأصلع ردا على تدخل لويس الجرمانى في أكويتين ، هذا فضلا عن اضطراب لويس الجرمانى للقيام بمهمات في الجزء الشمالى من المملكة ضد القبائل الضاربة في هذا الجزء

(1) Davis : op cit. p. 171

(2) Oman : op cit p 422

(3) Camb. Med. Hist. V, III p 316

لإدخالها في حدود الطاعة^(١). على أن الشيء الذي كفل للويس الجرمانى بعض الهدوء هو جهوده الدائبة لنشر المسيحية في أجزاء مملكته ، وتخومها إذ كان لنشاطه التبشيري جانب من الفضل في تهدئة الأمور في كثير من الجهات ، وأخذت المسيحية تنتشر انتشارا حثيثا بين كثير من الرعايا ، والقبائل الضاربة فيما وراء الراين والدانوب ، ولعب القديس أنشير دورا بارزا في هذا النشاط التبشيري^(٢).

وعلى الرغم مما بدا أحيانا من سوء العلاقة بين الإخوة أبناء لويس التقي لاسيما بين لويس الجرمانى وشارل الأصلع ، إلا أن ذلك لم يغير كثيرا من سياسة الإخاء والوئام التي سار عليها أبناء لويس التقي في ممالكهم الثلاث^(٣). غير أن الأمر مالبث أن تبدل بوفاة لوثر سنة ٨٥٥م ، فبدأت حقبة جديدة في العلاقة بين أفراد الأسرة الكارولنجية ، وتبدد ما حاول الاخوة الثلاثة إقامته من التعايش والإخاء والتحالف ، وبزغت فترة جديدة في العلاقات بين أفراد هذه الأسرة الفرنجية^(٤).

توفي لوثر سنة ٨٥٥م وترك مملكة تمزقها الأهواء والمطامع ، ويتكالب على السلطة فيها أبناؤه الثلاثة : لويس الثانى ولوثر الثانى وشارل^(٥). وكان

(1) Oman . op. cit. p. 422

(2) Helmolt : " Italy throughout the Middle Ages ", B. H. VII, p. 3934

(3) Hoyt and Chodorow : op cit p 185

(4) Mahrenholtz : " The Empire of Charlemagne " B H. VII, p. 349

Hollister : Medieval Europe p 104

(5) Hollister : op. cit. p. 104

Hoyt and chodorow : op cit. p. 185

كل من لويس الثانى ولأثر الثانى يعتقد فى أنه مغبون فى حصته ، وينبغى إعادة التقسيم ليضمنا حصّة أكبر ، وربما فكرا فى ابتلاع حصّة أخيهما الصغير شارل ، لولا وقوف أمراء بروفانس إلى جانب شارل الصغير ، احتدم النزاع بين الإخوة الثلاثة ، وكاد يرهص بصراع مرير بينهم واشتباكات ضارية لولا الجهود التى بذلت لسكفالة السلام فيما بينهم^(١) ، وغدا تاريخ الكارولنجيين يشبه إلى حد كبير تاريخ الميروفنجيين فى أواخر أيامهم ، إذ أصبح تاريخ أسرة وليس تاريخ شعب ، وغدت الأمور تتجه فى صالح الملك الذى يكون له أقل عدد من الأبناء^(٢) . وإذا أضفنا إلى ذلك ما كان جاريا من سوء العلاقة بين شارل الأصلع ولويس الجرمانى ، وما فجره بين من ثورات ضد عمه شارل الأصلع فى أكويتين ، فضلا عن انهيار سلطة هذا الأخير فى بريتانى ، تأكدنا أن حقبة جديدة من الضعف والاضمحلال قد بدأت فى تاريخ الدولة الكارولنجية المتداعية^(٣) .

فقد لقي شارل الأصلع اضطرابا شديدا فى كثير من جهات مملكته ، وزاد فى سوء أحواله ما حدث من غزو الفيكنج لسواحل المملكة ونجاحهم فى الوصول إلى كثير من مدنها عبر الأنهار الفرنسية وإحداث الخراب والدمار فى كثير من جهات غرب فرنسا^(٤) . واندلعت الثورات ضد شارل الأصلع فى أكويتين وماين وبرجنديا ، واتصل الثوار بلويس الجرمانى فى المملكة الشرقية راجين إياه التدخل لعزل شارل الأصلع وتهديمه الأحوال فى فرنسا ،

(1) Oman : op, cit p. 423

(2) Davis : op cit. p 164

(3) Reinaud : Muslim Colonies in France pp. 119—10

(4) Camb. Med. Híst. V. III p. 315

ولم يستطع لويس الجرمانى أن يقاوم الرغبة الكامنة في نفسه لإقامة مملكة متحدة ، وبعث الإمبراطورية القديمة من جديد ، فقاد جيوشه سنة ٨٥٨ م. واخترق الحدود الفرنسية ، فهوى إليه كبار الأرستقراطيين الفرنسيين وأحزاب العصيان في فرنسا الغربية (١) ، فاضطر شارل الأصغر إلى الهرب ، إلا أن لويس الجرمانى لم يستطع برغم ذلك إنجاء مشروع له عدم تأييد رجال الدين له من ناحية ، وتقاعس حلفائه عن نصرته من ناحية أخرى ، فاضطر لويس الجرمانى في النهاية إن الارتداد إلى مملكته خائباً .

أما الإمبراطور لويس الثانى (٨٥٥ — ٨٧٥ م) في إيطاليا فقد شغل هو الآخر بالثورات التى تأججت هناك خاصة في سالرنو وبنونتو ، بعد أن جرى استقلال كابو ، وما حدث من رفع دوق اسبوليتو راية العصيان ، الأمر الذى اضطر لويس الثانى لمحاربتة لاعادته إلى حدود الطاعة والولاء . وجاهد لويس الثانى لتوطيد سلطته في روما ، فأقام علاقة طيبة مع البندقية التى أخذت تستقل تدريجياً عن بيزنطة (٢) . هذا في الوقت الذى انشغل فيه لوثر الثانى (٨٥٥ — ٨٦٩) — أخى لويس الثانى — بمشاكله الخاصة ، وطلاقة من زوجته . وتوثر ج لعقمة - وزواجه من خليلته والدراد وما حدث من معارضة الكنيسة وعقد المجامع الدينية لتسوية هذه المشكلة . وأدلى شارل الأصغر بدلوه في هذه الأحداث (٣) للحيلولة ضد زواج ابن أخيه من والدراد ليظل دون عقب ، حتى تؤول لوثرانجيا (مملكة لوثر) إليه ، الأمر الذى اضطر لوثر الثانى إلى

(1) Hoyt and chodorow : op. cit. p. 185

(2) Helmolt : op. cit VII, p. 3935

(3) Mahrenholtz : " France throught the Middle Ages. " B. H. VII, p. 3761

الإلتجاء إلى عمه الآخر لويس الجرمانى ، وعلى الرغم من أن هذا كان مثل شارل الأصلع يبطن الطمع فى إرث ابن أخيه (١) ، إلا أنه رأى أن يتدخل لحسم هذا الخلاف خوفاً من انتهاز شارل الأصلع الفرصة للتدخل ، فحسم هذا الخلاف وعقد مجمع دينى أقر زواج لوثر الثانى من زوجة ثانية فتزوج لوثر من والدراد وتوجهها ملكة إلى جانبه ، ضاربا عرض الحائط بمعارضة البابا نيقولا الأول ، وما نجم عن ذلك من مشاكل (٢) .

وفى غمرة الأحداث توفى لوثر الثانى سنة ٨٦٩ م ، فقتسم عمه لويس الجرمانى وشارل الأصلع مملكته سنة ٨٧٠ م ، بمقتضى اتفاقية ميرزن Mersin (٣) فحاز لويس الجرمانى : آخن وكولون وتريير Trier وThionville وبيونفيل و Metz ومينز وألسيز Alsace والجورا Jura ، وتعهد لويس الجرمانى ألا يضايق أخيه شارل الأصلع أو يحاول اغتصاب الجزء الذى آل إليه ، وأن يظهر له المودة والإخلاص (٤) ، وحاز شارل الأصلع فريزيا والأقاليم الواقعة إلى الغرب مما حازه لويس الجرمانى ، وأصبحت الحدود بينهما تسير مع نهر الميز والموزيل (٥) ، فاختلفت بذلك المملكة الوسطى ، واتخذت الخريطة السياسية

(1) Davis : op. cit. p. 164

(2) Oman : op. cit. p. 428

(3) See . " Monumenta Germaniae Historica, Scriptores, " Ed. by George H. Pertz and others, 1, p. 516 — in Documents of German Hist; by Snyder, p. 30

(4) See : " The Treaty of Mersin 870 ", Monumenta Germaniae Historica, Scriptores, pertz, 1, p. 516 — in Documents of German Hist. by Snyder, p. 30

(5) Hoyt and chodorow op. cit. p. 183

لأوروبا شكلا غدا أكثر ألفة لأعيننا ليس لتبلور فرنسا وألمانيا ، ولكن لظهور المملكة الفرنجية الغربية ، والمملكة الفرنجية الشرقية (١) .

وتابع لويس الثاني جهوده ضد المسلمين في جنوب إيطاليا ، وانحازت إليه نابلي وأمالفي ودوق بنفتو وأسطول البندقية ، ولم يبق للمسلمين في الجنوب سوى باري وتارنتو وحوصرت باري ولم تسقط سوى سنة ٨٧١ م (٢) غير أن المحن تكالبت على لويس الثاني واندلعت ضده الثورات وضرب الجنوب في فوضى ، وزاد من سوء الأحوال أن لويس الثاني لم يعقب ، ولهذا طمع أيضا عمه لويس الجرمانى وشارل الأصلع في أملاكه هو الآخر ، ولما توفي لويس الثاني فعلا سنة ٨٧٥ م دون وريث زحف عمه شارل الأصلع إلى إيطاليا رغم ما كان جاريا فيها من الفوضى ومن هجمات المسلمين (٣) ، ودخل شارل الأصلع روما ونصب إمبراطورا بمباركة البابا وحاول أخوه لويس الجرمانى منازعته السلطة في إيطاليا إلا أنه لم يوفق لثورة أبنائه عليه (٤) . وأخيرا جاز لويس الجرمانى إلى ربه في فرانكفورت سنة ٧٧٦ م فتطلع شارل الأصلع إلى مملكة هذا الأخ المتوفى أيضا منتهزا فرصة اندلاع الصراع بين ورثته : كارلومان ولويس وشارل السمين (٥) . غير أن الإخوة ساءهم طمع عمهم شارل الأصلع في مملكتهم ، فسووا خلافاتهم وقسموا أملاك والدهم ، فأخذ كارلومان بافاريا وبانونيا وكارانتيا والجهات السلافية التابعة لها ، وحاز

(1) Davis : op cit. 164

(2) Ibid , p. 168

(3) Lewis : The Arabs in History, p. 117

(4) Hoyt and chodorow : op. cit. p, 186

(5) Helmolt : op cit. p. 3936

لـويس الشاب فرنكونيا وسكسونيا وثورنجا ، وأخذ شارل السمين سوايا ،
وفي العام التالي توفي شارل الأصلع (١) آخر الأخوة الثلاثة وهو في طريقه
إلى إيطاليا سنة ٨٧٧ م . وهكذا توفي أبناء لويس التقى الثلاثة لوثر ٨٥٥ م
ولويس الجرمانى سنة ٨٧٦ م وشارل الأصلع ٨٧٧ م ، واقتسم أبناؤهم أركان
الإمبراطورية الكارولنجية التي توالى تجزئتها وتقسيمها ، وألحت عليها المحن
طوال هذا العهد (٢) .

وكان على مسرح الأحداث بعد وفاة أبناء لويس التقى أبناؤهم
وأحفادهم ، فكان هناك هيو بن لوثر الثانى بن لوثر الأول من زوجته
الأخيرة والدراد ، ومن أبناء لويس الجرمانى كان لويس الشاب وأخيه
شارل السمين (٣) ، ودخلت مملكة الأخ الثالث لهما وهو كارلومان — بافاريا
— فى حوزة لويس الشاب ، بعد إصابة كارلومان بمرض عضال ، فأضاف
ذلك إلى قوة لويس الشاب ، وبقي من أبناء شارل الأصلع لويس المتعلم
Stammerer (٤) ، الذى ما لبث أن توفي بعد نحو ستين سنة وفاة والده ،
فاقتسم ولداه : لويس الثالث و كارلومان مملكته على الرغم من أنه ولد للويس
المتعلم بعد وفاته ابن ثالث هو شارل الذى عرف بشارل البسيط (٥) .

وبدأ النزاع فى الحقبة الجديدة مريرا واندلع الصراع رهيبا ، مما أضاف
إلى ضعف الإمبراطورية الكارولنجية ، فقد طمع لويس الشاب فى مملكتى أبناء

(1) Hoyt and chodorow : op. cit. p. 187

(2) Oman : op. cit pp 433 — 35

(3) Davis : op. cit. p 172

(4) Hoyt and chodorow : op cit. p 187

(5) Mahrenholtz : op. cit. p. 3762

عمه لويس المتعلم (لويس الثالث و كارلومان) في فرنسا ، قد دخل لويس .
الشاب فرنسا أكثر من مرة ولكنه اضطر في النهاية للجلاء عنها والاعتراف
بمحقوق أبناء عمه في مملكتيهما (١) ، وزج ابن لوثر الثاني بنفسه في هذه .
الأحداث محاولا استرجاع مملكة أبيه ، غير أن اتفاق الأخوين : لويس الثالث .
و كارلومان ، أنهى هذه المشكلة مؤقتا إذ حاز لويس الثالث نستريا وحاز .
برجنديا وأكوتين (٢) . وشهدت هذه المرحلة اتفاق ذرية البيت الكارولنجي .
للتصدي للأخطار خاصة وقد تطلع بعض الغرباء عن الأسيرة إلى السلطة في
الدولة ، فكان لقاء أفراد الأسرة الكارولنجية واتحادهم أمام الأخطار المحدقة
بهم (٣) . أما شارل السمين بن لويس الجرمانى فقد خصه البابا بالبركة لحاجة .
البابوية إلى المعاونة لدرء الأخطار من قبل المسلمين والحكام الثائرين والمنشقين .
في إيطاليا ، فاعترف البابا بشارل السمين (ملك سوايا) ملكا على إيطاليا ،
ثم جرى تنويجه إمبراطورا في روما سنة ٨٨١م (٤) ، وبهذه الخطوة انتقل .
التاج الإمبراطورى إلى أبناء لويس الجرمانى ، بعد أن تخلى عنه ابن شارل
الأصلع (لويس المتعلم) . وهكذا كانت هذه الخطوة من خطوات قيام
البيت الألمانى من ذرية لويس الجرمانى ، لإقامة الإمبراطورية الكارولنجية .
الجديدة أو الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، كما هي شهيرة في تاريخ أوروبا .
في الحقبة التالية (٥) .

(١) حاطوم : تاريخ العصر الوسيط ص ٢٢٦ — ٢٢٧

(2) Camb. Med. Hist. V. III, p. 321

(٣) Helmolt : op. cit. p. 3936

(4) Oman : op. cit. p. 438

(5) Mahrenholtz : op. cit. p. 3762

وما لبث شارل السمين أن نجح في توحيد الإمبراطورية ، بعد أن توفي أخوه لويس الشاب سنة ٨٨٢ م ، ولحق به أحفاد عمه شارل الأصغر^(١) : لويس الثالث (الذى توفي فى نفس العام) وأخوه كارلومان (الذى تلاه بعد قليل سنة ٨٨٤ م) ، واعترف كبار الأمراء بشارل السمين ملكا خلفا لهؤلاء جميعا^(٢) . وهكذا عادت الوحدة الكارولنجية من جديد — باستثناء قسم من بروفانس — على الرغم من أنها كانت وحدة شكلية إلى حد بعيد ، وعلى الرغم من عودة قسم بروفانس إلى حدود الطساعة لشارل السمين سنة ٨٨٢ لتصبح الوحدة متكاملة ، فإن مفهومها ظل نظريا ولم تصل إلى مفهوم الوحدة العملية ، أو ترقى إلى اسم الإمبراطورية المتحدة عمليا^(٣) . وزاد من سوء الأحوال أن شارل السمين لم تكن له صفات الملك الناجح لضعفه الجسمى والفكرى والخلقى ، فتوالت المحن على الدولة ولاسيما وقد دهمه فى هذه الظروف غزو النورمان الذين اقتحموا فرنسا وحاصروا باريس فى نحو سبعمائة سفينة ونحو أربعين ألف محارب ، ولكنهم مع ذلك عجزوا عن اقتحامها^(٤) ، ولما حاول شارل السمين نجدة باريس ، وجاء بجيشه بدا له استحالة محاربة النورمان ، فاشترى رحيلمهم بدفع الأموال وغض الطرف عن نهيم برجنديا ، فأحدث بذلك استياءا عظيما فى كافة الأوساط^(٥) ، فتخلي عنه أنصاره وأتباعه وثار أحد

(1) Davis : op. cit. p. 172

(2) Camb. med. Hist. V. III, p. 321

Barrie Dobson : " German Hist. 911 — 1618 " — in " Germany A companion to German studies " — Ed. by Malcolm Pasley — p. 132

(3) Davis : op. cit. p. 166

(4) Oman : op. cit. p. 443

أبناء إخوته وأعلن نفسه ملكا في فرانكفورت وجرى خلع شارل السمين في النهاية من الحكم سنة ٨٨٧ ، ثم مالبت أن جاز إلى ربه في العام التالي سنة ٨٨٨ م . وانقسمت عرى الوحدة الكارولنجية من جديد وإلى الأبد لتنشأ على أنقاض الإمبراطورية الكارولنجية بعد ذلك الأمم الثلاث فرنسا وألمانيا وإيطاليا بعد أن جمع شارل السمين تحت سلطته الضعيفة كافة البلاد التي خضعت قهولا لسلطة شارل الكبير (شارلمان) (١) .

و حين تجزأت الإمبراطورية من جديد حاولت كل مملكة أن تجمد لنفسها ملكا من أبنائها لاسيما وأنه لم يكن هناك حينئذ من سلالة البيت الكارولنجي ممثلا شرعياً سوى « شارل البسيط » (٢) ابن لويس المتعلم ، الذي ولد بعد وفاة والده بقليل ، ولم يكن يتعدى السابعة من عمره في ذلك الوقت ، هذا فضلا عن ابن غير شرعي لكارلومان بن لويس الجرمانى ملك بافاريا يدعى أرنولف (٣) ، وكان رجلا ناضجاً له دراية عسكرية ونجاسة وطموح ، وكان والده قد عهد إليه بإدارة بعض الولايات في الشرق لاسيما بانونيا وكارافنيا ، ثم تولى إدارة شئون بافاريا ذاتها خلال مرض والده . ولقد أجبر الثوار شارل السمين بعد خلعها على الاعتراف بأرنولف خليفة له في ألمانيا ، فاضطر شارل السمين إلى ذلك ، وجرى تنصيب أرنولف ملكا على ألمانيا دون منازع (٤) .

(1) Mahrenholtz : op. cit p 3762

Cantor : op. cit. pp. 220 — 1

(2) Davis : op. cit. p. 212

(3) Helmolt : op. cit p. 3938

(4) Barrie Dobson : German Hist. 911 — 1618, p. 133

Oman : op cit p. 443

ويبدو أن أمراء ألمانيا رغبوا بهذه الخطوة تجنباً لمغبة الفوضى والانقسام وإقامة سلطة شرعية في البلاد من نسل البيت الكارولنجي، رغم كون أرنولف إبناً غير شرعي (١).

غير أن الأمر كان مغايراً في فرنسا، فلم يكن ثمة حرص على الولاء للبيت الكارولنجي في ظل الظروف الحرجة التي عاشتها البلاد، وغزو النورمان وحصار باريس، وما تلاه من تسليم مشين، لاسيما وقد خلت الأسرة من وريث راشد يمكن أن يسير دفعة الأمور بنجاح في هذه المرحلة الدقيقة (٢)، ولهذا أصبحت الرغبة جامحة، والحاجة ماسة لحاكم قوى من غير هذه الأسرة يمكن أن يعتمد عليه بدلا من طفل صغير لا حول له ولا قوة، ولا يستطيع الخروج بالبلاد من أوضاعها السيئة. ولهذا فقد نادى الأمراء بأودو - كونت باريس - ملكا (٣)، وزكته في ذلك مواقفه الشجاعة أثناء حصار النورمان لباريس، فضلا عن أنه كان قوى الشكيمة محاربا ذو مهارة فائقة، فجري تتويجه ملكا في أوائل سنة ٨٨٨ م (٤). وعلى الرغم مما بدا من بعض المعارضة لتتويج أودو ملكا لأنه لم يكن من الأرومة الملكية، إلا أن أودو نجح في تثبيت أقدامه حين أحرز نصراً مؤزراً على النورمان بعد تنصيبه بعدة أشهر (٥)، وتبع ذلك اعتراف أرنولف ملك ألمانيا بأودو ملكا على فرنسا، واجتمع معه في فورمز، ويبدو أن أرنولف لم يكن يهتم كثيراً بما كان يجري

(1) Hoyt and chodorow : op, cit p. 195

(2) Davis : op. cit. p. 10

(3) Camb . Med. Hist V. III, pp. 62 — 3

(4) Oman : op. cit. p. 444

(5) Hoyt and chodorow : op. cit. p. 188

في المملكة الغربية ، ولم يكن يهمه أكثر من أن تظل الوحدة المعنوية والتفاهم قائما بين الشطرين اللذين انقسمت إليهما الإمبراطورية المنصرمة ولهذا لم يجد غضاضة في التناهم مع الملك الجديد في فرنسا ومباركة تتويجه ملكا (١) .

وبجانب هذين الشطرين الكبيرين ، بزغت ممالك أخرى صغيرة في نطاق البلاد التي دانت لشارل السمين يوما ، فقد نهضت مملكة بروفانس في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي معتمدة على ما يجري في ألمانيا وفرنسا من ضعف وانقسام (٢) ، كما نهضت مملكة برجنديا بعد وفاة شارل السمين وكرست استقلالها بل طمعت في إحياء مملكة لوثرانجيا القديمة ، ومضت في تكريس استقلالها (٣) . كما نهضت مملكة اللورين بعد أن ظلت مقدراتها مرتبطة بمقدرات ألمانيا حتى أواخر القرن التاسع ، ولكنها اختارت ابنا لأرنولف لتقيمه ملكا عليها وظل فيها هذا الملك يتمتع بشيء كبير من الاستقلال في نطاق تبعية شكلية لألمانيا ، حتى وفاته سنة ٩٠٠ م ، ولما ورث لويس الطفل - الذي يعتبر آخر سلالة شارلمان من لويس الجرمانى (٤) - أباه أرنولف في ألمانيا منح هذه المملكة استقلالاً ذاتياً أكبر وعين فيها أحد الأدواق ، فتمتعت اللورين باستقلالها الذاتي فترة طويلة . وفي إيطاليا بزغت مملكة أخرى بعد وفاة شارل السمين ، على الرغم من أنها لم تستقر على حال نظراً لشدة التنافس على السلطة ، وتنازع كبار الأمراء فيها ، وطمع كل راغب في التاج في الحصول على تأييد ملك ألمانيا أرنولف ، إلا أن هذا لم يلتفت لذلك كثيراً

(1) Mahrenholtz : op. cit. p. 3762

(2) Farrie Dobson : op. cit. p. 181

(3) Helmolt : op. cit. pp. 3936 — 7

(4) Davis : op. cit. p. 212

لأنشغاله بشئون مملكته (١) ، وأخيراً وصل التاج فيها إلى دوق سبوليتو بعد حروب مريرة وصراع رهيب ، فجرى تنويجه في بافيا سنة ٨٨٩ م ، غير أن سلطة هذا الملك تقلصت كثيراً نظراً للوجود البيزنطى فى الجنوب ، وأملاك المسلمين هناك (٢) ، فضلاً عن تواجد مناوئين له فى الشمال الشرقى من البلاد .

وعلى الرغم من انقسام الإمبراطورية الكارولنجية وتفتتها ، وبزوغ ممالك متعددة على أنقاضها إلا أن فكرة الإمبراطورية كانت حية فى الأفتدة لم تمت (٣) ، لأنه جرى الاعتراف لأرنولف ملك ألمانيا بنوع من السمو والتفوق من قبل ملك باريس وملك برجنديا فضلاً عما أبداه ملك إيطاليا من احترام (٤) ، لأن أرنولف كان من ذرية شارلمان مها كان وضعه فى ألمانيا ، ولعل ذلك هو الذى جعل فريقاً من المؤرخين يؤكد أن اعتراف الممالك الصغرى بهذا الرجل ملكاً أعظم هو الذى مهد لقيام الإمبراطورية فى شكلها الجديد (٥) ، لأن فكرة الإمبراطورية لم تمت تماماً ولم تذهب من الوجود بل كانت حاضرة حية فى القلوب حتى فى أحلك الأوقات وأصعب الظروف (٦) . وساعد على نمو هذه الفكرة أن البابا كان يميل أيضاً إلى تنويج أرنولف رغم أنه كان ابناً

(1) Helmolt : op. cit. p. 3936

(2) Keen : op cit p. 34

Lewis : op. cit. p. 117

(٣) حاطوم : تاريخ مصر الوسيط ص ٢٣٩

(4) Oman : op. cit. pp. 468 — 9

(5) Barrie Dobson : op. cit. p. 133

(6) Mahrenholtz : op. cit. p. 3762

Davis : op. cit. p. 212

غير شرعي ، ورغم العار الذي لصق به من صغره ، وذلك للخدمات التي أداها
للكنيسة والمسيحية ، ولم يكن البابا يميل إلى تتويج شارل البسيط ملك فرنسا
لمعارضة فرنسا الغربية لهذه الخطوة من ناحية ، وصغر سن هذا الملك وضعفه .
من ناحية أخرى^(١) ، في الوقت الذي سلك فيه أرنولف سلوكاً أقنع البابا
بأحقية في العرش الإمبراطوري ، فقد تقرب أرنولف إلى رجال الدين الألمان
وسمح لهم بعقد المجامع الدينية ، وهو أمر لم يعهده الناس منذ أمد طويل في
ألمانيا ، كما أخذ على عاتقه الضرب بيد من حديد على يد القبائل الوثنية الضاربة
على تخوم المملكة وحماية المسيحيين من شرهم ، فقام في سنة ٨٨٩ م بحملة ضد
السلاف وتلقى بعدها دعوة البابا في إيطاليا بالذهاب إلى روما^(٢) ، وتطهير
إيطاليا من الوثنيين الأشرار والمسيحيين المنحرفين ، فدل ذلك على اتجاه البابا
إلى تتويج هذا العاهل النشط ، على الرغم من تحفز ملك إيطاليا « دوق
سبوليتو » ومعارضته لهذه الخطوة لتعارضها مع مشروعاته للمطالبة بالتاج
الإمبراطوري رغم عدم انتسابه للبيت الكارولنجي^(٣) .

وعلى الرغم من هذه الميول التي أظهرها البابا لتتويج أرنولف وحماسة
أرنولف ذاته للحصول على اللقب الإمبراطوري ، فإنه لم يتمكن في ذلك
الوقت من إجابة البابا إلى طلبه والذهاب إلى روما والفوز بالتاج الإمبراطوري .
نظراً لظروف داخلية خطيرة اضطرتته إلى البقاء بألمانيا حتى سنة ٨٩٤^(٤) ،

(1) Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 188

(2) Camb. Med. Hist. V. III, pp. 64 — 5

(3) Ibid. V. 5, pp. 167 — 8

(4) Helmolt : op. cit. p. 3937

فقد حدث أن أعلن برنارد وهو ابن غير شرعى لشارل السمين الثورة ضد
أرنولف في سوايبا ، وبرزت أخطار مورافيا في الشرق ضد أرنولف ، رغم
تدخل البابا ووساطته ولم يكن أرنولف يطمئن من هذه الجهة في الوقت الذي
هدد فيه النورمان المملكة أيضا من الغرب بعد أن اقتحموا نهر الموز وخربوا
إكس لاشابل وعاثوا فساداً في البلاد ، ولهذا لم يستطع أرنولف أن يتفرغ
في هذه الحقبة لمشروعاته في إيطاليا والفوز بالتاج الإمبراطورى (١) .

غير أن أرنولف نجح منذ سنة ٨٩١ م في تصفية هذه المشاكل تباعاً ، فقد
قضى على برنارد في سوايبا وأحمد ثورته ونكل بأنصاره وأتباعه ، وتحول
إلى مورافيا في الشرق فاقهزحهم وسمح لجيشه أن يعيث فيها الفساد ، وارتكب
فيها كثيراً من أعمال العنف ونصب فيها المذابح البشرية الرهيبة (٢) ، ثم التفت
إلى النورمان في الغرب فردم على أعقابهم سنة ٨٩١ م (٣) ، وتحالف مع ملك
البغار ، وجنب بلاده كثيراً من الويلات ، وألهته هذه المشاكل عن المطالبة
بالتاج الإمبراطورى ، وغض الطرف مرغماً عن دعوة البابا له للذهاب إلى
روما ، ولم يكن بوسع البابا الانتظار طويلاً دون أن يحسم هذا الوضع ويقرر
إلى من يدفع التاج واللقب الإمبراطورى (٤) .

(1) Mahrenholtz : op. cit. pp. 3766 — 8

(2) Oman : op. cit. pp. 468 — 9

(3) See : “ The Battle of the Dyle 891 ” — Trans. from “ The
Chronicle of Regins of Prum ” — Ed, Kurtz, pp. 136 — 7 —
in Davis ; op. cit p. 173, “ The Annals of. Fulda M. G. H.
Scriptorum, I, ٤07 ” — in Davis : p. 174

(4) See : “ The Battle of the Dyle 891 ” — op. cit. p. 136
Davis : op. cit. p 174, Oman : op cit. pp. 463 — 4

وعلى الرغم من أن البابا لم يكن يميل إلى دوق سبوليتو - ملك إيطاليا - ولا يجب أن يحمل هذا الملك اللقب والتاج الإمبراطوري ، نظرا لأنه لم يكن يظهر إجلاله للكرسي البابوي ، فضلا عن تعارض مصالح البابا مع مصالح هذا الملك في مناطق النفوذ ، فضلا عن أن استشراف النزاع والخلاف في إيطاليا أمر يؤثر على مصالح البابوية هناك ويعرض استقلالها للتهديد (١) ، إلا أن ملك إيطاليا هذا أخذ يعمل من جانبه على تغيير هذا الانطباع لدى البابا وأظهر قدراً كبيراً من الإجلال والاحترام للكرسي البابوي ، وعقد مجعاً في بافيا أقر فيه أن الكنيسة الرومانية هي رأس الكنائس كلها ، وأنه ينبغي الحفاظ على امتيازاتها وسلطاتها ، ولهذا بدأ البابا يميل إلى منح هذا الملك اللقب الإمبراطوري (٢) ، وخاصة أن أرنولف ظل مصماً أذنيه عن دعوة البابا ، ولم يبد استجابة لهذه الدعوة لانشغاله في مشاكله هناك (٣) ، وانتهى الأمر بتتويج دوق سبوليتو ملك إيطاليا في كنيسة بطرس في أوائل سنة ٨٩١ م ، وهكذا انتقل التاج الإمبراطوري من الأسرة الكارولنجية العريضة إلى ملك محلي في إيطاليا وبدأ أن الإمبراطورية الكارولنجية قد أصبحت أثراً بعد عين (٤) .

أما الإمبراطور الجديد فقد منحه هذا اللقب زهوا عظيماً ، فحاول التشبه بالأباطرة الكبار وأكسب أعماله مسحة من التقديس ، وأضفى على تشريعاته أنماط تشريعات شارلمان وسمات قوانينه وبلغ بهذه الأعمال الذروة حين جعل الإمبراطورية وراثية في أسرته (٥) ، وأملى على البابا ضرورة تتويج ابنه

(1) Hoyt and Chodorew : op. cit. p. 195

(2) Oman ; op. cit. p. 464

(3) Davis : op. cit. p. 168

(4) Helmolt : op. cit. p. 3937

لامبرت ، فتم له ١٠ أرا د في سنة ٨٩٢ م ، على الرغم من إمبراطورية سبوليتو لم تكن إلا ظلا باها للإمبراطورية القديمة حتى أن سلطتها لم تمتد على كل إيطاليا ذاتها ، فنازعه فيها المنازعون ، وأظهر ملك فرنسا احتقاره لها ولفظتها حتى الممالك الصغرى في لوثرنجيا ، وراح ملك ألمانيا أرنولف يعد العدة للقضاء عليها (١) .

ففي أواخر عام ٨٩٣ م أصبحت الظروف مهيأة في ألمانيا للقيام بعمل حاسم ضد إمبراطور إيطاليا ، فقد فرغ أرنولف من مشاكله وبدأ يستجيب للدعوات الموجهة إليه للذهاب إلى إيطاليا ، فقد قاب البابا ظهر المجن لإمبراطور إيطاليا ، ووجد الدعوة لأرنولف لتخليصه منه ، وكذلك بعث منافسو الإمبراطور في إيطاليا بدعوات مماثلة لأرنولف ، ولهذا استجاب أخيراً ملك ألمانيا (٢) ، وأرسل حملة يقودها أحد أبنائه ، فما أن اقترب هذا من إيطاليا ، وهوى إليه منافسو الإمبراطور في إيطاليا حتى تملك الذعر الإمبراطور وتحصن في بافيا ، ففرضوا عليه الحصار فيها لمدة ثلاثة أسابيع دون طائل فقرر الأمير الألماني العودة إلى بلاده حتى قيل أن إمبراطور إيطاليا قد اشتراه بالمال فقفل راجعاً إلى بلاده . وعندئذ لم يكن أمام أرنولف سوى أن يأتي بنفسه إلى إيطاليا (٣) ، فقام على رأس حملة في أوائل العام التالي (٨٩٤م) ، وشق طريقه في شبه الجزيرة ، فخضعت بعد صراع مرير مدن كثيرة إذ دخل برجام واستسلمت ميلانو و بافيا ، وفر الإمبراطور إلى سبوليتو ، وخضع أمراء تسكانيا للملك أرنولف (٤) ، وفكر في الزحف إلى روما غير أنه غير

(1) Hoyt and Chodorow , op. cit. p. 195

Camb Med. Hist. V. 5, pp. 167—8

(2) Deanesly : A Hist. of Early Medieval Europe. p. 565

(3) Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 195

(4) Deanesly ; op. cit. p. 565

رأيه فجأة وقفل راجعا إلى ألمانيا ، ، وتعزو بعض الحوليات المعاصرة هذه العودة المفاجئة إلى مرض انتشر في الجيش الألماني ، فضلا عن ظهور مشاكل أخرى وعداء من قبل ملك برجنديا ، الذي أخذ يتدخل في إيطاليا منبأوا أر نولف ومساعد إمبراطور إيطاليا ، ولهذا قرر أر نولف العودة مباشرة إلى بلاده (١) .

غير أن الظروف ما لبثت أن تغيرت في إيطاليا في أواخر عام ٨٩٤ م ، وتبدلت لصالح أر نولف ، فقد توفي إمبراطور إيطاليا ، وخلفه في العرش ابنه لامبرت الذي لم يكن له ما يؤهله لقيادة الإمبراطورية في تلك الظروف الحرجة ، أو توجيه الكفاح فيها ضد الألمان ، وفي نفس الوقت جدد البابا دعوة لأر نولف للعودة إلى إيطاليا (٢) . وعندئذ استجاب أر نولف من جديد ، وخرج في أوائل عام ٨٩٥ ، فوصل إلى بافيا ثم زحف إلى روما ، ورغم المصاعب الجمة التي واجهت أر نولف ، فقد اقتحم روما ، وقضى على مقاومة الحامية الإمبراطورية فيها ، واستقبله البابا استقبال الظافرين ، وتوجه إمبراطورا في أوائل عام ٨٩٦ في كنيسة بطرس العريقة ، واسترد أر نولف بذلك التاج واللقب الإمبراطوري الذي فقدته الأسرة الكارولنجية قرابة خمسة أعوام (٣) ، غير أنه كان مطالبا بالقضاء على جيوب المقاومة الباقية . قاتجه إلى سبوليتو لإنهاء المقاومة فيها ، ولكنه مرض في الطريق وأصابه شلل مفاجيء فجرى نقله إلى ألمانيا وأُخليت إيطاليا من جيوشه وعاش

(١) اقرأ تفصيلات عن ذلك في :

Oman : op. cit. pp. 464 — 6

(2) Helmolt : op. cit. p. 3937

(3) Helmolt ; op. cit. p. 3937

أرنولف مشلولاً حتى توفي في النهاية سنة ٨٩٩^(١) ، لينتهي عهد الأسرة الكارولنجية في ألمانيا ، وتبرز حقبة جديدة في تاريخ الإمبراطورية هناك ، لأن أرنولف كان من الناحية العملية آخر أباطرة السلالة الكارولنجية في هذا الجانب من الإمبراطورية ، وبموته انتهت الإمبراطورية الكارولنجية بصورة قاطعة ، وإن ظل بعض الأمراء يتلقبون باللقب الإمبراطوري ، ولكن لم يكن لهم كبير أهمية لا في الممالك المسيحية الغربية ولا حتى في ممالكهم الخاصة مهما صغر حجمها وضائق رقعتها^(٢) . وهكذا أدى إخفاق أرنولد في مشروعاته في إحياء الإمبراطورية الكارولنجية وضمان وحدتها إلى زيادة التفتت والتجزئة التي شهدتها هذه الإمبراطورية الزائلة . فلم تستطع الأسرة الكارولنجية البقاء والإستمرار ، وأضحت هذه الإمبراطورية في ذمة التاريخ من الناحية الفعلية^(٣) ، لأنه بعد وفاة لويس الطفل ابن أرنولف دون عقب ، أصبح وضع القسم الشرقي من إمبراطورية الفرنجة مختلفاً ، وأرهض ذلك بانتهاء السُلطة الفرنجية في هذا الجانب من الإمبراطورية التي وضع أسسها شارلمان^(٤) .

(1) Hoyt and Chodorew : op. cit. p. 196

(2) Oman : op. cit. p. 465

(3) Camb. Med. Hist. V. III, p. 67

(4) Barrie Dobson : Germany, A Companion to German studies, Ed. by Malcolm Pasley, p. 130 [London 1972]

الفصل الثاني

فرنسا بعد وفاة شارل السمين سنة ٨٨٨ م

لم يكن هناك في فرنسا بعد وفاة شارل السمين ممثل للبيت الكارولنجي سوى شارل البسيط ، الذي كان في السابعة أو الثامنة من عمره ، ولقد جاء انتخاب أودو كونت باريس ملكاً أمراً أملت له الأخطار المحدقة بالبلاد وحصار النورمان لباريس ^(١) ، في الوقت الذي أيقن فيه الناس أن المصلحة العليا تقضي بهذه الخطوة ، على الرغم من أن الولاء للسلالة الكارولنجية كان لا يزال باقياً ، والرغبة في الحفاظ على الأسرة الكارولنجية لا زالت حاضرة ^(٢) ، ولقد أكد أودو أحقاقه في العرش الفرنسي حين نجح في رد الغزو النورمانى عن منطقة السين والوار وإجبار النورمان على فك الحصار عن باريس. وإذا كان هذا مبرراً قوياً لحصول أودو على العرش ، إلا أنه لم يكن - بمرور الوقت - سبباً مقنعاً باحتفاظه بهذا العرش لاسيما في ظل نمو النظم الإقطاعية ^(٣) ، ووجود كونتات ونبلاء إقطاعيين نظروا إلى أودو على أنه ليس إلا شخصاً منهم لا يزيد عن أحدهم في شيء ، ولهذا بدأ بعضهم يتطلع إلى هذا العرش طالما هو في حوزة أودو ، ولم يعد إلى الأسرة الشرعية أو الذرية الكارولنجية ^(٤) ،

(1) Davis : op. cit. p. 166

(2) Camb. Med. Hist. V. III, pp. 62 — 3

(3) Ganshof : Feudalism, p. XVI, 3, 115

Hoyt and Chodorow : op. cit. pp. 202 — 203

(4) Mahrenholtz : “ France throughout the Middle Ages ”.

B. H. V. VII, 3761

وبرز في هذه الحقبة كونت فلاندرز ، وكونت بواتو وغيرها ممن طمع في الحصول على التاج الفرنسي في هذه المرحلة . وساعد على ذلك أن النصر الذي أحرزه أودو على النورمان في سنة ٨٨٨ م سرعان ما جرى نسيانه حين عاد أودو ليشتري مسالة النورمان بدفع الأموال الطائلة لهم حين هددوا البلاد من جديد سنة ٨٩١ م^(١)، بعد أن اجتاحتها غرب فرنسا وشماليها، ولم يوقف تقدمهم جديد ويجبرهم على الارتداد سوى ما أنزله بهم أرنولف من هزيمة^(٢) أدخلوا على أثرها البلاد واتجهوا إلى الجزيرة البريطانية^(٣) .

ولقد تسبب إخفاق أودو في صد النورمان في هبوط شعبيته ، وبروز أطماع المناوئين والكارهين ، فاندلعت الثورات في فلاندرز وفي أكويتين وغيرها وبرز في سنة ٨٩٣، شارل البسيط ليطالب بحقه في التاج الفرنسي، فجرى تنويجه ملكا في نفس العام ، لينفتح باب المنازعات منذ ذلك الوقت بين ذرية الكارولنجيين - المؤيدين من قبل كبار النبلاء في أوستراسيا وبرجنديا - وبين أودو وأنصاره - المؤيدين من قبل أهل نستريا في الغرب^(٤) . غير أن أودو لم يكن على استعداد للتسليم بسهولة ، فقد فعل كل ما في وسعه للحفاظ على تاجه

(1) Davis : op. cit. p. 166

(2) See : " The Battla of the Dyle 891 " — trans form " The Chronicle of Regins " — Ed. Kurtz. pp. 136 — 7, in Davis ; op. cit. p. 173

See : " The Anals of Fulda, M. G. H Scriptorum, i, 407 " — in Davis : op. cit, p. 174

(3) " Widukind' s Rerum Gestarum S xonicarum, Libri Tres-" Ed wai'z 1882. — in Davis : pp. 216 — 7
Camb. Med. Hist. V. III, p. 322

(4) Hoyt and Chodorow : op. cit, p. 192

وعرشه ، فأصلح ما بينه وبين كونت بواتيه ، وأجبر دوق برجنديا على التخلي عن مناصرة شارل البسيط ، وبدأ أن استرداد الأسرة الكارولنجية لعرشها . مسألة تحتاج إلى جهد كبير وصبر عظيم (١) ، وفي نفس الوقت نشط شارل البسيط وأنصاره في تهيئة الجو وكسب الأنصار والمؤيدين من كبار الحكام وذوى السلطة في إيطاليا وألمانيا ، فكتبوا البابا يلتمسون التأييد ، كما كتبوا إمبراطور إيطاليا ، وملك ألمانيا ، أرنولف ، وتعهدوا له بالاعتراف بسموه وتفوقه ، لو استعادت الأسرة تاجها في فرنسا (٢) . وعلى الرغم من تعاطف البابا ومساندة أرنولف لشارل البسيط ، إلا أن هذا أخفق في إجبار خصمه أودو على التنازل عن العرش ، في حين شغل أرنولف بحملته الثانية في إيطاليا ولم يعد يهتم بالنزاع في فرنسا ، ولهذا نشط أودو في محاولة القضاء على شارل البسيط وأحلامه في استعادة العرش الكارولنجي (٣) ، لولا أن وصل النورمان من جديد سنة ٨٩٥ — ٨٩٦ م إلى مصب نهر السين ، واخترقوا البلاد عبر هذا النهر (٤) . وأمام هذه الأخطار قبل أودو أخيرا المفاوضة مع شارل البسيط حيث قبل في النهاية أن يتنازل لشارل البسيط عن قسم من المملكة ، ووعده على حد قول كثير من المؤرخين بأن يوصى به خلفا له في العرش ، وذلك حين شعر بدنو أجله (٥) .

ويبدو أن الحروب الأهلية قد أنهكت قوى أودو ، وجعلته يستسلم أمام النورمان ، إذ سمح لهم باجتياح نسترية وأكوتين ، ولم يقو على مدافعتهم أو

(1) Ibid, p. 196

(2) Ibid p 195

(٣) Helmolt : op cit, p. 3937

(4) Haskins : The Normans in European Hist. p. 27

(5) Fliche : L'Europe Occidentale, pp, 62 — 8

ودهم عن هذه الجهات ، ثم توفي بعد ذلك في سية ٨٩٨ م بعد أن ير بوعريده .
وأوصى كبار النبلاء ورجال دولته بانتخاب شارل البسيط خلفا له (١) .
وهكذا تسبب خطر النورمان في رفع أودو إلى العرش الفرنسي في البداية ،
ثم ما لبث هذا الخطر أن أودى بشهرة أودو وجعله يستسلم ويوصى بشارل
البسيط ممثل البيت الكارولنجي خلفا له ، حين تأكد من سطوة رجال الإقطاع
وعجز في نفس الوقت عن تحقيق انتصارات على النورمان تكبت أصوات
المعارضين وتكسر شوكتهم (٢) .

دلف شارل البسيط إذن إلى العرش الفرنسي دون مصاعب تذكر ، فقد
يأبى أخوه أودو ، وكبار النبلاء الإقطاعيين ، واضطر في النهاية دوق برجنديا
إلى الاستسلام والاعتراف بشارل البسيط ملكا ، ولم تعبد نظرة الأمراء
الفرنسيين لهذا الملك على أنه ليس إلا واحدا منهم ؛ بل إن وراث البيت
الكارولنجي كان أعز منهم نسبا ، وأعظم منهم مبنزلة ، فضلا عن أنه حرص
على أن يحافظ على روح التوازن بينهم في ظل تأييدهم له والتفافهم حوله (٣) .
وعلى الرغم مما لصق بشارل هذا من أسماء تجعله في عداد البسطاء أو السذج ،
إذ سمى بشارل البسيط أو شارل الساذج ، إلا أن فريقا من المؤرخين يؤكدا أن هذا
الرجل لم يكن يخلو من مناقب (٤) ولم تنقصه القوة أو الطموح ، ولم يفتقر في
كثير من الأحيان إلى الأصالة والكرم والهمة ، وإن لم تسعفه الظروف والأحوال .

(1) Ibid. p. 68

(2) Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 196

(3) Davis : op. cit. p. 212

(٤) حاطوم : تاريخ العصر الوسيط ص ٤٧٤

فى ذلك الوقت ، وتوفير المال اللازم (١) .

استعاد شارل البسيط إذن العرش الفرنسى ، فاسترجع بذلك ملك آبائه وأجداده ولكن الظروف فى فرنسا لم تكن مواتية لسكى تضمن لهذا الشاب حياة هادئة ، فقد كانت هجمات النورمان تؤرق الفرنسيين وتقضى مضاجعهم ، لاسيما فى الجزء الغربى والشمالى من البلاد ، ولهذا حين استأنف النورمان غزوهم لفرنسا فى أوائل القرن العاشر ، تصدى لهم الملك الجديد وكبار النبلاء (٢) ، فى مهمة وعزيمة وحماسة طاغية حتى نجح الفرنسيون فى إلحاق هزيمة كبيرة بالنورمان تحت أسوار شارتر فى ذلك الوقت ، تراجعوا على أثرها إلى الورا ، وقبل زعيمهم رولو توقيع معاهدة صلح مع شارل البسيط ، عرفت بماهدة سان كلير ، على نهر الإلب فى يوليو سنة ٩١١ م (٣) . وتعتبر هذه المعاهدة أبرز أحداث تاريخ النورمان بهذه البلاد ، ونقطة البداية فى تأسيس المملكة النورمانية بغالة ، كما جاءت سنة ٩١١ م — على حد قول المؤرخ هاسكينز — فى منتصف قرن ورابع من الغزو والاستقرار النورمانى فى إقليم نورمانديا (٤) .

فلقد رأى الملك الفرنجى شارل البسيط — بعد سلسلة من المغامرات النورمانية بغالة — أن يمنح رولو بمقتضى هذه المعاهدة الجزء الشرقى الذى عرف فيما بعد باسم نورمانديا كقطاع له ولرجاله نظير ارتباط هذا بالتبعية له

(1) Painter : A Hist of the Middle Ages, p. 153

وانظر كذلك : سعيد عبد الفتاح هاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٢٣٧ — ٢٣٨

(2) Camb. Med. Hist. V, III, p, 322

(3) Cantor : op. cit, p. 254, Oman ; op. cit, p, 501

(4) Haskins : op, cit. pp, 26 — 7

وحلفه يمين الولاء^(١)، واعتناقه المسيحية هو وقومه ، فمنح رولو الإقليم الواقع على جانبي نهر السين، الذي عرف فيما بعد بنورمانديا العليا وإن حصل النورمان بعد ذلك وفي سنة ٩٢٤ م ، على وسط نورمانديا ثم الجهات الغربية في كوتنتين Cotentin والإفرانشين سنة ٩٣٣ م^(٢) ، وكان استقرار رولو وأتباعه في نورمانديا بداية عهد جديد للشعب الإسكندناوى في ذلك الإقليم^(٣) . ويبدو أن كلا من شارل البسيط ورولو رغبا في إبرام هذه المعاهدة طلبا للراحة ، بعد فترة طويلة من القتال والغارات النورمانية ، والتصدي الفرنسي لها ، وذهاب الاستقرار وضياح الأمن^(٤) ، حتى لتذهب الروايات إلى أن خسائر النورمان في آخر معركة قبل هذه الاتفاقية بلغت سبعة آلاف رجل ، ولا شك أنها في الجانب الفرنسي لا تقل عن ذلك إن لم تزد ، على حين توصل كبار زعماء النورمان إلى أن الحصول على إفليم غنى ، يعد أمرا مجزيا وثمنا . مناسبا ، ويبدو أن الإقليم المعروض امتد حول نهر السين واعتبر من أغنى وأخصب الأقاليم الفرنسية^(٥) .

وربما اعتقد شارل البسيط أنه بهذه المنحة ، إنما ينشئ إقطاعا جديدا . لقائد النورمان ليجهله أحد أنصاره ، ويربطه برباط التبعية له ، بينما كانت هذه المنحة بالنسبة لرولو — وهو خالي الذهن من الأفكار الإقطاعية — مجرد

وانظر : محمد الشيخ : الممالك الجرمانية ص ٢٨٦

(1) Schjoth : " Great days of the Northmen " B. H. V. VII p. 3550

(2) Haskins : op, cit, pp, 27 — 8

(3) Hallam : View of the State of Europe during the Middle Ages. p. 16

(4) Hoyt and Chodorow : op cit. p 182

(5) Fliche : op. cit. pp, 72 — 7

منحة كاملة يمتلكها هو ورفاقه كأرض يحتويها في وطنه^(١) ، وطبقا لذلك لم يجر في البداية اندماج بين هذه المستعمرة الجديدة وما يحيط بها ، لأن رجال الشمال ظلوا يتدفقون عليها ويحولون بينها وبين الذوبان فيما حولها ، ويعطونها الفرصة لتأكيد ذاتيتها وإبراز سماتها بعيدا عن جاراتها . وهكذا أخذت نورمانديا تشكل ببطء كيانها كبلد إفرنجي وكستعمرة نورمانية لتبدو كدوقية شبه مستقلة ، تلعب دورها في هذه الحقبة^(٢) . ويبدو أن رولو نفذ ما جاء بمعااهدة سان كلير ، فيما يختص باعترافه المسيحية وإدخال قومه فيها ، فقد بدأ الجميع يدخلون في المسيحية أفواجا ، وابتداء من سنة ٩١١ م أصبح النورمان في زمرة مسيحيي البلاد الغربية ، وجرى تعميد رولو نفسه وتبعمه قومه^(٣) .

وإذا كانت معااهدة سان كلير قد أثارت استياء في كثير من الأوساط الفرنسية واستهجن المؤرخون سياسة شارل البسيط ، واتهموه بالجهن والإستسلام للنورمان والتفريط في إقليم من أغنى أقاليم فرنسا وأخصبها^(٤) ، ومنحه لقرصان حقيق على حد قولهم ، فانه سرعان ما تغيرت هذه الانطباعات ، وجرى اعتبار هذه المعاهدة عملا أملاه العقل وسداد الرأي ، لأنها وضعت حدا للاغارات النورمانية ، وأعادت السلام إلى ربوع البلاد والهدوء إلى منطقة السين^(٥) ، وأمدت فرنسا بدماء جديدة سرعان ما أخذت تندمج في فرنسا لتلعب دورها في الحقبة التالية ، لا سيما وأن رولو تنصر في العام التالي لهذه

(1) Davis : op. cit. p, 166

(2) Haskins : op. cit. p, 4

(3) Camb. Med. Hist. V. III, pp, 315 — 20

(4) Hoyt and chodorow : op. cit p, 192

(5) Davis : op. cit. p, 166

المعاهدة (٩١٢ م) ، وجرى تعميده وفقاً للمسيحية الكاثوليكية ، وتسمى باسم روبرت Robert (١) وقرن توبته وهدايته بالمنح السخية من الأراضي للكنائس والأديرة في وطنه الجديد، وأن ابنه وليم طويل السيف Long Sword كان من طراز أكثر رسوخاً في المسيحية والفرنجية (٢) .

وبعد أن نجح شارل البسيط في حل مشكلة النورمان علي هذه الصورة ، اهتم بالحصول على إقليم آخر يوسع به حدود المملكة الفرنسية ونجح في ضم اللورين إلى المملكة فدفع بحدود المملكة إلى الراين والفوج ، على الرغم من أن هذه الخطوة جرت عليه المتاعب ابتداء من سنة ٩٢٠ م (٣) ، ذلك أن دوقية اللورين أعجبت كثيراً ، وفضل الإقامة بها باعتبارها مهد عائلته ، إلا أن هذه الخطوة أثارت ضده أهل نستريا في الغرب الذين ساء لهم أن ينقل شارل البسيط مركز الثقل نحو الشرق ، وفجرت ضده الثورة أيضاً في اللورين ذاتها ، التي كانت مطمعا لأمير محلي ومطمعا أيضاً لملك ألمانيا هنري الأول الذي اعتلى عرش ألمانيا سنة ٩١٩ م خلفاً لكونراد الأول (٤) ، وما لبث شارل البسيط أن دخل في حروب انتهت بعقد اتفاقية مع هنري الأول ، احتفظ فيها مؤقتاً باللورين ، وإن أشارت الدلائل إلى أنه سيفقدها إن عاجلاً أو آجلاً ، خاصة أن هنري الأول حاز شهرة عظيمة بانتصاره على المجريين في ذلك الوقت، واحتل مكانة هامة في هذا الجانب من دولة الفرنجة (٥) .

(١) Schjoth : op, cit. p. 3530

(٢) Haskins : op, cit. pp. 45 — 6

(٣) Davis : op, cit. pp 212 — 13

(٤) Fliche : op. cit. pp. 37 — 40

(٥) Widukind's Rerum Gestarum Saxoniarum, i. 25, Luidprand of Cremona, (Antapodosis, iv, 25)

R. H. C. Davis : op. cit. pp. 212 — 13

ولم يكد يمضى وقت طويل على هذه الاتفاقية التى أبرمت فى سنة ٩٢٠ م، حتى تفجرت الثورة ضد شارل البسيط من قبل روبرت أخى أودو — الملك السابق — الذى نجح فى تأليب أهل نستريا، ومعظم الرعايا وكبار النبلاء ضد شارل البسيط، حتى جرى تتويج روبرت هذا فى نفس العام، بعد أن انقض الناس من حول شارل البسيط، غير أن هذا لم يشأ الاستسلام بسهولة، بل جهز جيشا فى اللورين، وتقدم نحو سواسون مقر الملك الجديد، بعد أيام من تتويجه، وجرت معركة ضارية قتل فيها روبرت^(١)، وكادت تتم الكارثة على أنصاره وأتباعه لولا ثبات هيو — ابن روبرت المقتول — الذى استطاع أن يجمع شتات الجيش ويصمد فى الميدان، حتى انتهت المعركة بتراجع جيش شارل البسيط نحو اللورين^(٢).

وعلى الرغم من تراجع شارل البسيط إلى اللورين، فإن ذلك لم يحفز الثوار على رفع هيو — ابن روبرت — إلى العرش، نظرا لأن هذا لم يكن فى نظر الأمراء والنبلاء أهلا لهذا المنصب من ناحية، فضلا عن أن اختيار هذا سيعتبر اعترافا بالمبدأ الوراثى لصالح أسرة جديدة من ناحية أخرى، وهو أمر كان يعارضه كبار النبلاء ولا يرتضون به^(٣)، ولهذا استقر رأي الأمراء على اختيار رؤول صهر روبرت ملكا فى يوليو سنة ٩٢٣ م، نظرا لقوة شكيمته من جهة وللخلاص من فكرة المبدأ الوراثى من جهة أخرى^(٤)، وجرى تتويجه فى سواسون ملكا بتأييد من كبار رجال الدين، وقبول من أمراء شمال

(1) Camb. Med. Hist. V, III, p. 74

(2) Ibid p. 74

(3) Barrie Dobson : German Hist. 911 — 1018, — in Germany. A companion to German Studies, ed. by Pasley, p. 132

(4) Camb. Med. Hist. V, III, pp. 184 — 5

فرنسا وغربها ، على حين ظلت نورمانديا وجنوب فرنسا وشرقها واللورين .
تتمسك بملكها الكارولنجي شارل البسيط (١) .

ويشاء سوء حظ شارل البسيط أن يقع في أسر أحد الأمراء المحليين من
أنصار رؤول يدعى هربرت أمير فرماندوا سنة ٩٢٣ م ، الذي احتفظ به
رهينة يمكن أن يساوم عليها مليكه إذا اقتضى الأمر (٢) ، ففقد شارل البسيط
حريته في فترة حرجة كان يمكن أن يستعيد فيها تاجه وينفرد بالسلطة في
دولته في ظل تأييد جانب لا يستهان به من أهل البلاد ، لاسيما أن رؤول
شغل في السنوات الأولى من حكمه باضطرابات شديدة جاء أولها من قبيل
نورمانديا التي انتهزت الفرصة لثير المشاكل في وجه الملك الجديد ، وفي نفس
الوقت انتهز ملك ألمانيا الفرصة ليعبر نهر الراين ويستولي على اللورين (٣) .
وفي سنة ٩٢٦ م وما بعدها دهم المجرئون رؤول واجتاحوا إقليم شامبانيا
وجاثوا الفساد ونهبوا الأديرة (٤) ، وفي نفس السنة تفجرت الثورة في
أقطانيا منتهزة فرصة انهك رؤول في مشاكله ، وفي نفس الوقت ظهرت
مطامع هربرت الذي أمر شارل البسيط فراح يساوم الملك للحصول على
كونتية كبيرة ، ولما لم يستجب رؤول ، أفرج هذا عن شارل البسيط ، واعترف
به ملكا سنة ٩٢٧ ، إلا أن هذه المناورة لم تفلح لاسيما وأن رؤول عاد فوافق
على طلبات هربرت ، فأعاد هذا الملك شارل البسيط إلى السجن حيث بقي فيه ،
حتى جاز إلى ربه في العام التالي سنة ٩٢٩ (٥) ، على حين التجأ ابنه لويس .

(1) Hoyt and chodorow : op cit. p. 203

(٢) حاطوم : المرجع السابق ص ٤٨٢ .

(3) Mahrenholtz : op cit p 3764

(4) Davis : op. cit. p. 168

(5) Hoyt and chodorow : op cit. p. 192

(الرابع) إلى انجلترا مع أمه ابنة الملك أدوارد الأول ، ولم يفكر لويس في المطالبة بالعرش في هذه الظروف ، فصفا الجو لرؤول ليلعب دوره في تاريخ المملكة ، في ذلك الوقت .

جاء هذا التطور في صالح رؤول دون شك ، الذي يؤكد المؤرخون أنه كان شخصية عظيمة فعلا ، فقد أهلت صفاته الشخصية الممتازة للحصول على شعبية كبيرة في بلاده ، فزاد في السلطة الملكية ، وأضفى عليها مهابة واحتراما ، وساعده على ذلك مهارته الفائقة في القتال كقائد عسكري موهوب وصاحب خطط عسكرية فذة واستراتيجية هامة ، فضلا عن أنه كان رجل حكم بمعنى الكلمة ، وكانت له سياسة ثابتة طوعها لخدمة العرش والبلاد ، على حين كان سلفه أودو خاضعا للظروف تسيطر عليه وتوجهه (١) ، هذا بالإضافة إلى امتداح المؤرخين لتقوى رؤول وثقافته وكرمه وعدله وحبه للنظام وشهامته ، ولعل أبلغ دليل على ذلك أنه أظهر امتعاضا من تابعه هربرت حين أسر هذا الملك شارل البسيط في كمين أعده وأودعه السجن بدلا من أن يفرح لخلاصه من منافس عتيده ، ووارث شرعي للسلطة الكارولنجية ، فدل رؤول بذلك على شهامته وأصالته وتقواه ، فلم يكن يوافق على تلك الأساليب الرخيصة للخلاص من منافسيه ، وإنما يعول على الحكمة والحصافة والحرب ، في الوقت الذي لم يكن فيه شارل البسيط على شيء من الحكمة أو الحصافة (٢) .

ولعل هذه الصفات الممتازة هي التي جعلته يقضى على المشاكل تباعا ، ويؤمن العرش لخلفائه ، ويتخلص من أكثر مشاكل عصره تعقيدا ، فقد أخضع

(1) Oman . op. cit. pp. 444 — 5

(2) Davis ; op. cit, p. 212

النورمان في نورمانديا ، وقضى على ثورتهم ، والتفت إلى أقطانيا ، فأعادها إلى الهدوء والسكينة (١) ، وعالج مشكلة تابعه هربرت في فرماندوا بحكمة ، حتى أدخله في حدود الطاعة من جديد ، وبسط سيطرته على أنحاء الشمال والجنوب في فرنسا ، بفضل مهارته السياسية والدبلوماسية ، فلم تكدر تحصل سنة ٩٣٥ م حتى ظلت الوحدة المملكة الفرنسية في كل أرجائها ، ولم يمت رؤول سنة ٩٣٥ م إلا بعد أن مهد الطريق لخلفائه ليحكموا مملكة متحدة هادئة على الرغم من أنه لم يترك وريثا للعرش (٢) .

ولم يكن أخو رؤول أهلا للعرش الفرنسي في هذه المرحلة ، الأمر الذي مهد الطريق أمام هيو الكبير الذي كان يمت لرؤول بمتاة النسب ، وهو ابن أمير نستريا وكونت باريس ، وكان إقطاعيا كبيرا وزوج إيثيلد أخت الملك الإنجليزي إثلسان ، فضلا عن أنه كان يتميز بذكاء خارق وهمة عظيمة وكفاءة دبلوماسية عظيمة (٣) ، أغنته عن اللجوء للسلاح في كثير من الأحيان ، ودل هيو الكبير على مهارته وذكائه حين رفض قبول التاج أو الانتخاب ، لأنه أدرك بثاقب فكره أن الأرستقراطية الفرنسية ، ربما لن تمنحه هذه الفرصة حسدا وغيرة ، ولهذا أقنع كبار الأمراء والنبلاء بولائه لسلالة البيت الكارولنجي وبدعوته للويس (الرابع) بن شارل البسيط اللاجيء إلى إنجلترا ليتسلم تاجه على حين فضل هو أن يمارس السلطة من وراء حجاب في هذه المرحلة على الأقل ريثما تتحسن الظروف وتتهيأ الفرصة (٤) .

(١) Hoyt and chodorow : op. cit. p 205

(٢) Mahrenholtz : op. cit. p. 3764

(٣) Hoyt and chodorow : op. cit. p. 203

(٤) Mahrenholtz : op. cit. p. 3764

وبعودة لويس الرابع بن شارل البسيط إلى فرنسا سنة ٩٣٦ م ، عادت الأسيرة الكارولنجية من جديد إلى السلطة ، ولمدة تربو على النصف قرن بقليل . أى حتى سنة ٩٨٧ م ، ولو أن تسلسلها قطعتة حوادث غير متوقعة أحيانا (١) . وإذا كان شارل البسيط ضعيفا هشاً قليل الحصافة والحكمة ، كان ابنه لويس الرابع فارساً ممتازاً اتصف بالقوة والحزم والشهامة ، وعلى الرغم من أنه لم يحظ بكثير من التعليم أو الثقافة ، إلا أنه كان ذكياً نشيطاً مرناً شديد الصبر والمثابرة ، وكلها صفات أهله للتغلب على مشاكل عصره والعقبات التي تنتظره في فرنسا ، هذا في الوقت الذي أمل فيه هيو الكبير في ممارسة السلطة من خلف هذا الشاب مستنداً إلى تأييد خارجي (٢) ، إلا أن هيو الكبير سرعان ما اكتشف أنه أسرف في التفاؤل ، وأن لويس الرابع لم يكن على شاكلته والده ، بل إنه سلك في سبيل ممارسته سلطته مسلكاً حسناً دون عداء أو أحقاد . ولهذا اتخذ الصراع بينهما شكلاً مستتراً في البداية ، ثم ما لبث أن أصبح سافراً وبحث كل منهما عن حلفاء لحسم هذا الصراع (٣) .

فعلى حين عول هيو الكبير على محالفة أوتو الأول ملك ألمانيا بزواجه من أخت هذا الملك ، بعد اختياره ملكاً في آخن بواسطة كبار الأدواق والكونتات . وبتأييد من الكنيسة (٤) ، وبدأ هيو أيضاً يتوودد إلى كبار الأمراء والنبلاء .

(1) Camb. Med. Hist. V. III, p 80

(2) Davis ; op. cit. pp. 215 — 19

Hoyt and chodorow : op. cit. p. 203

(3) Davis : op. cit. pp. 215 — 16

Barrie Dobson : op. cit. pp. 136 — 7

(4) Widukind's Rerum Gestarum Saxonicarum, Libri Tres, ed

Waitz, in Davis : op. cit. pp 215 — 16

لأسيما منافسة القديم هربرت سيد فرماندوا ، إذا بلويس الرابع يتقرب إلى
دوق برجنديا هنرى المعروف بالأسود ، وعقد معه اجتماعا سنة ٩٣٨ م ، وجرى
التفاهم بينهما ضد العدو المشترك هيو الكبير ، على حين هوى إلى لويس الرابع
أمراء اللورين لإثبات ولائهم للبيت الكارولنجي . وفي غمرة هذه الأحداث لم
يلتفت كل من هيو الكبير ولويس الرابع إلى الخطر الذى دهم شمبانيا و برجنديا
سنة ٩٣٧ م من قبل المجريين ، الذين أحدثوا فى تلك الجهات الخراب والدمار ،
وأمعنوا فى نهب الأديرة (١) .

ولقد اندلعت الحرب ضارية بين لويس الرابع وهيو الكبير ، واضطر
لويس الرابع أن يجابه هيو الكبير وحلفه المتعاضم الذى ضم أوتو الأول الذى
اتخذ هذا الموقف ردا على موقف لويس الرابع من أمراء اللورين ، وقبوله
بالسيادة عليها ، على حين لم يكن أوتو الأول يسمح لأحد بتعكير صفوحه
أو بث الفرقة فى الولايات أو المقاطعات الخاضعة له ، أو التى ينبغى أن تدخل
فى نطاق حكم الألمان ويمتد إليها النفوذ الألمانى (٢) ، على حين ضم هذا
الحلف أيضا هربرت سيد فرماندوا ودوق فلاندرز ووليم طويل السيف دوق
نورمانديا ، وألف الجميع عصبة ضد ملك فرنسا لويس الرابع ، الذى لم يبق
على الولاء له سوى هنرى الأسود ودوق برجنديا ، وكان على لويس الرابع
أن يجابه الحرب الأهلية الداخلية وفى نفس الوقت يجابه العدوان الخارجى (٣)

(1) Hollister : Med. Europe, p 166

Hoyt and Chodorow : op. cit p 199

(2) Barrie Dobson : op. cit. p. 135

(3) Hoyt and Chodorow ; op cit. p. 203, Davis : op. cit. p.169

اجتاح أوتو الأول الألماني مقاطعة اللورين ، واستردها وسلمها لأحد أتباعه سنة ٩٣٩ م ، ونفذ في العام التالي إلى شمبانيا وأجبر الأمراء الفرنسيين على تقديم فروض الطاعة والولاء ، ثم تتبع لويس الرابع — الذي تقهقر بسرعة تجاه برجنديا — ولحق أوتو بهنري الأسود على ضفاف السين ، وأجبره على الخضوع والتخلي عن حليفه لويس الرابع ، وعندئذ قفل راجعا إلى ألمانيا ظنا منه أنه بذلك قد شفى غلته ، وقضى على منافسه ومد نفوذه إلى تلك الجهات (١) . غير أن الأحداث أثبتت أنه كان مخطئا ، فقد ثبت لويس الرابع ، وبحول الموقف لصالحه ابتداء من سنة ٩٤٢ م ، حين تدخل البابا ، وبذل وبساطته لإنهاء هذا الصراع ، وهدد باللعنة على كل من يرفع السلاح في وجه الملك لويس الرابع (٢) ، وفي نفس الوقت خفت حدة عداوة أوتو الأول للويس الرابع ، وتمهدت قواعد التفاهم بينهما ، فالتقيا في صيف سنة ٩٤٢ م ، بعد أن تزوج لويس من أخت أوتو الأول ، وأسهمت هذه الزيجة السياسية في تخفيف روح العداوة بينهما (٣) .

عاد الهدوء من جديد إلى ربوع فرنسا في صيف سنة ٩٤٢ م ، وظل السلام البلاد ، ومنح البابا حمايته الروحية للويس الرابع ، واعترف ملك ألمانيا بسلطة لويس في فرنسا وهدأ الثوار ، وأخلد كبار الأمراء للسكينة ، وبدأ أنه أصبح بوسع لويس الرابع أن يحكم مملكته في أمان ، كما أن انجابه لوريث للحكم سنة ٩٤١ م قد أرهص ببقاء البيت الكارولنجي في الحكم لفترة أخرى (٤) ، لولا أن هينو الكبير لم يكن قد سلم بعد أو دب اليأس في نفسه ، فقد أضمر

(1) Hollister : op. cit. pp. 123 — 4

(٢) حاطوم : نفس المرجع السابق ص ٤٨٩

(3) Mahrenholtz : op. cit. p. 3764

(4) Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 203

الانتقام ، وأخذ يعد العدة لإشعال الفتنة من جديد ، دون أن يترك الفرصة لغريمه لإظهار كفاءته ومواهبه ، فراح يبذر بذور الفتنة في فرماندوا وفورمانديا وبعض الجهات الأخرى ، وسعى لضم أوتو الأول من جديد إلى صفه معتقدا أن هذا يعينه مد نفوذه إلى فرنسا بأية طريقة وبأى ثمن (١) ، غير أن أوتو أصم أذنيه عن تلك الدعوة بتأثير من أخته جربرج زوج لويس الرابع من ناحية ، ولاتقنباعه بأن إثارة القلاقل في المملكة الفرنجية لا يفيد في شيء إن لم يضره من ناحية أخرى ، فربما حدث ألمانيا والامراء الألمان حذو أقرانهم في فرنسا ، فضلا عن انشغاله بمشروعات أهم في هذه المرحلة (٢) . ولهذا صمم على عدم التدخل في فرنسا ، ورفض مقابلة هيو الكبير .

وعلى الرغم من نشاط هيو الكبير في هذه المرحلة ودأبه على إثارة الفتنة ، وتأكيده سلطته في بعض المناطق الشرقية ، ليقطع أى معونة من قبل ملك ألمانيا للويس الرابع ، إلا أنه ابتداء من سنة ٩٤٨ م أخذ الوضع يتبدل ، في غير صالحه (٣) ، وساندت الكنيسة الفرنسية لويس الرابع ، وأنزلت اللعنة والحرمان على هيو الكبير لتدخله في شئونها ووضع رجاله في أهم وظائفها ، فاتخذت الكنيسة الفرنسية بذلك نفس الجانب الذى وقفت فيه البابوية من قبل . ولما ساءت أحوال هيو الكبير اضطر في النهاية إلى بذل الطاعة للويس الرابع سنة ٩٥٠ م ، والتمس الصلح ، فأبرم الصلح بينهما ، وخاصة لأنه لم يعد يؤمل في أى حليف خارجي بعد أن رفض أوتو الأول التدخل إلى

(1) Lyon, Rowen, Hamerow : A Hist. of western world, p. 192

(2) Davis : op. cit. pp. 216 — 17,

(3) Hoyt and chodorow : op. cit. p. 203

جانبه ، وشغل في هذه الفترة بالذات بمحملته في إيطاليا سنة ٩٥١ م (١) ، لتبدأ مرحلة جديدة من الهدوء في البلاد ، وإن لم يقض هذا الصلح تماما على مطامع هيو الكبير ، وتحفزه للوصول إلى الانفراد بالسلطة في فرنسا . وظلت الأحوال هادئة حتى وفاة لويس الرابع في سبتمبر سنة ٩٥٤ م ، تاركاً العرش الفرنجي لذريته ، ومهدداً الوضع ببقاء البيت الكارولنجي في الحكم (٢) ، ولم يثر أوتو الأول أية مشاكل أو يتطلع إلى المملكة الفرنسية بعد وفاة لويس الرابع وخاصة وأنه شغل في تلك الفترة بالثورة التي فجرها أحد أبنائه في سوابيا . الذي ضم إليه بعض الأمراء الحاققين ولم يوقف تقاوم هذه الثورة سوى موجة جديدة من غزوات المجرين المدمرة (٣) .

إعتلى لوثر بن لويس الرابع العرش بعد والده ، على الرغم من أنه لم يكن قد تعدى الثالثة عشرة من عمره ، فقد أصر كبار الأمراء والأساقفة على انتخاب لوثر هذا وإظهار الولاء للبيت الكارولنجي ، والغريب أن هيو الكبير لم يبد معارضة لانتخاب لوثر ملكاً ، ولم يحاول أن ينتهز الفرصة ، ويثير المتاعب في وجه الملك الجديد (٤) ، ويبدو أنه أحس بدق أجله فلم يشأ أن يعكر الصفو في أواخر أيامه من ناحية ، ومن ناحية أخرى لاستمرار نأسه من تلقى أية معونة من أوتو الذي لا زال منهمكاً في مشاغله الخاصة ، لاسيما في دفع

(1). Hollister : op. cit. p. 124 .

Barrie Dobson : op. cit. p. 137

(4) Mahrenholtz : op. cit. p. 3764

(3) Davis : op. cit. p. 218

Barrie Dobson : op. cit. pp. 134 — 5

(4) Hoyt and chodorow : op. cit. p. 203

المجريين الذين روعوا بلاده سنة ٩٥٥ م ، إذ نجح أوتو الأول في إلحاق هزيمة كبيرة بهم في ساحة لشفيلد Lechfeld ، حاز بفضلها شهرة ذائعة في جميع الأوساط الأوربية ، واستحق أن يطلق عليه الراهب السكسوني ودو كند Widukind — الذي كتب تاريخ أوتو الأول وعنى بتدوين سيرته — منذ ذلك الوقت فصاعدا لقب « أوتو العظيم » (١) ، ولا استمرار يأس هيو الكبير من تلقى أية معونة خارجية لم يحاول أن يعارض في اختيار لوثر الرابع ، وقد أحس بدنو أجله إذ توفي فعلا بعد ذلك بأقل من عامين سنة ٩٥٦ م تاركاً ذرية ضعفا ، لم يكن أحدهم أهلا للمطالبة بالعرش في هذه الظروف بالذات ، وكانوا ثلاثة أبناء : هيو الذي عرف بهيو كايه ، وأوتو وهنري ، وكانوا جميعا قاصرين وغير قادرين على المطالبة بالعرش حينئذ (٢) ، في الوقت الذي عاد فيه أوتو العظيم ملك ألمانيا للانشغال بشئونه الخاصة في إيطاليا حيث جرى تتويجه إمبراطورا في روما على يد البابا سنة ٩٦٢ م ، فلم يلتفت لغير ذلك من شئون فرنسا وما كان يجرنى فيها (٣) . وكان وصول أوتو العظيم إلى روما في يناير سنة ٩٦٢ م ، حيث كانت الاستعدادات قد جرت لتتويجه إمبراطورا ، وتم ذلك بعد يومين من وصوله إلى روما في ٢ فبراير على يد البابا يوحنا الثاني عشر في كنيسة بطرس

(1) Widukind's *Rerum Gestorum Saxonicarum*, Libri Tres, Ed waitz 1882 — in :

Davis : op. cit. p. 219

() Hoyt and chodorow : op, cit, pp. 203 — 4

(3) Hallister : op. cit. p. 124

بروما (١) .

إضطر لوتر أن يسير في بداية حياته في ركاب الملكية الألمانية ، ويقبر بنوع من الانقياد لها ، فقد حضر المجلس الكبير المنعقد في كولونيا تحت رئاسة أوتو العظيم سنة ٩٦٥ م ، ولكنه عاد في أوائل سنة ٩٦٦ م فتزوج بنت ملك إيطاليا ، ليحدث نوعا من التوازن في علاقاته الخارجية مع كل من ألمانيا وإيطاليا (٢) ، ودل لوتر على أنه كان على شاكلة والده إذ كان مثله شجاعا صاحب عزم وتصميم ، معنيا بإعادة الجاه والعظمه إلى أسرته وعرشها ، مع حزم وحسم إحتاج إليهما الوضع في تلك الظروف ، فضلا عن دهاء ومكر يصل في بعض الأحيان إلى حد الخداع ، وساعدته الظروف في السنوات التالية بوفاة الإمبراطور أوتو العظيم في سنة ٩٧٣ م (٣) ، ولحق به برونو — أسقف كولونيا النشط — الذي كان معنيا بربط فرنسا بألمانيا برباط أشبه برباط التبعية ، وعندئذ جاء رد الفعل عند لوتر ، الذي ما لبث أن أظهر هممة عظيمة حين قاد جيوشه ، واندفع نحو ألمانيا بعد أن قطع العلاقات معها ، وزحف نحو إكس لاشابل ، وسمح لجنوده بنهب القصر الإمبراطوري ، ثم قفل راجعا إلى بلاده ، مقتنعا بأن عهد الانقياد لألمانيا والتبعية لها قدر ولى

(1) Gregorovius : Hist of the City of Rome in the Middle Ages, III, pp. 332 — 4 (trans. to Eng. by Hamilton. London, 1895)

Mann : The Lives of the Popes in the Early middle Ages, IV, p. 243 (London — 1906 — 10)

(2) Lyon, Rowen, Hamerow : op. cit. p. 192

(3) Camb. Med. Hist. V. III, p. 203

Davis : op. cit, p. 227, Lyon, Rowen, Hamerow : op. cit., p. 192

وقد ذهب إلى غير رجعة (١) .

دخلت العلاقات بين ألمانيا وفرنسا مرحلة حرجية ، بهذه الفجأة المفاجئة . لأنه أصبح في حكم المعروف أن يحاول أوتو الثاني ، الذي خلف والده أوتو العظيم ، أن يشار لهذا العمل ، ويغسل هذا العار ، فقاد جيشه سنة ٩٧٨ م أي بعد نحو خمس سنوات من إغارة لوثر ، واجتاح رنسا واستولى على لا يون ، وتودى بشارل اللورين ملكا — وكان أخا أصغر للوثر (٢) ، ثم تقدم أوتو الثاني مخترقا فرنسا حتى نهر السين ، واضطر لوثر للفرار ، وبرز في هذه المرحلة هيو كاييه ابن هيو الكبير ، وبدأ يثبت أمام الألمان ، وأجبرهم على التراجع ، هكتفين بإحراق ضواحي باريس ، وكان آل كاييه يؤمنون أنه من المهم قبل أن يحاول الملك الحصول على سلطته أو يشرع في الحكم ، لا بد أن يكون قويا بما يكفي لإجبار رعاياه على الطاعة الكاملة (٣) . ولهذا فقد حاول هيو كاييه أن يثبت في هذه المناسبة قوة شكيمته وشدة بأسه ، تمهيدا لحيازة الساط في المملكة كلها ، وفي نفس الوقت أمد صمود هيو كاييه الملك لوثر بفرصة هوائية استطاع خلالها أن يكون جيشا وراء نهر السين ليقف في وجهه الألمان ، وبدأت الظروف تتبدل في صالح فرنسا في هذا الصراع (٤) ، فاضطر أوتو الثاني إلى العودة إلى بلاده في خريف سنة ٩٧٨ م ، وتشجع لوثر ، أخذ يلاحق الجيش الألماني ، وظفر بمؤخرة الجيش ، فأبادها تماما ، ودخل أوتو الثاني فرانكفورت بعد أن تقلص عمله إلى مجرد إغارة مماثلة تماما

(1) Mahrenholtz : : op. cit. p. 3768

(٢) جاطوم : المرجع السابق ص ٤٩٢

(3) Davis : op cit. p. 209

(4) Hoyt and Chodorow : op. cit p. 203

تلقا قام به لوثر ضد إكس لاشايل قبل ذلك بنحو خمس سنوات ، لا أكثر من ذلك ، ولم يجن أوتو الثاني ثمرة لهذه الأعمال الحربية ، بل كان عهده على حد ما وصفه المؤرخون مأساة لألمانيا وللشعب الألماني (١) .

ويشير المؤرخون إلى أن الحرب التي بدأها لوثر ضد ألمانيا لم يكن لها أى فائدة ، اللهم إلا التخلص من شعور التبعية والانقياد ، ولم تكن لتسفر عن فائدة لكلا البلدين إن لم تتسبب في إلحاق الضرر بهما ، وفي زعزعة العرش الفرنسى تحت حكم الذرية الكارولنجية ، بإثارة الخلاف بين لوثر وشارل اللورين ، ولهذا فقد سعى لوثر إلى إنهاء الصراع بين البلدين ، وأبدى استعدادة للقاء أوتو الثاني فى أى مكان لحسم الخلاف ، على الرغم من أن أوتو الثاني لم يكن فى تلك الظروف مهتما بشئون فرنسا وإنما كان معنيا بتأكيد سيادته الإمبراطورية فى روما وفى إيطاليا كلها شمالها وجنوبها (٢) . بدأ لوثر بإرسال وفد إلى ألمانيا لبحث هذا الأمر ، فجرى الاتفاق على لقاء أوتو الثاني بولوتر فى إيطاليا فى يوليو سنة ٩٨٠ م ، حيث تعاهد الملكان على الصداقة ، والتحالف ونبد الخلافات وإعادة السلام إلى ربوع البلاد (٣) . وتبع هذه الخطوة إشراك لوثر لابنه لويس (الخامس) معه فى الحكم ، وكان فى الثالثة عشرة من عمره فى الوقت الذى كان فيه نفوذ هيو كاييه — الابن البكر لهيو الكبير — فى ازدياد وتعاظم ، بعد أن حصل على شعبية كبيرة بدفاعه المجيد عن باريس أمام الألمان سنة ٩٧٨ م ، فضلا عن ورعه وتقواه ،

(1) Davis : op. cit. pp. 227 — 8

(2) Harrie Dobson : op. cit p. 138

(3) Mahrenholtz : op. cit. p 3736

وحبة لرجال الدين ، الذي ضمن له تأييد الكنيسة الفرنسية (١) :

ويبدو أن لوثر أحس بازدياد نفوذ هيو كاييه وتعاضم شعبيته ، فحاول حجبته وتقليل أهميته ، فأبعده عن المفاوضات التي جرت بينه وبين إمبراطور ألمانيا ، فأحرق بذلك هيو كاييه ، وتسبب في إغاضته ، الأمر الذي دفع هذا إلى السفر إلى إيطاليا للقاء أوتو الثاني في أوائل عام ٩٨١ م ، أثناء قيام أوتو الثاني بإعادة غزو جنوب إيطاليا (٢) ، فاستقبله هذا استقبالا وديا ، أدى إلى حرق لوثر وكاد يشعل نار الحرب من جديد بين ألمانيا وفرنسا ، إذ فكر لوثر في إعلان الحرب على أوتو الثاني لولا أن قدم كبار مساعديه النصيح له بالتريث والصبر ، وضغطت عليه الحاشية لضبط النفس ، وأعقب ذلك وفاة أوتو الثاني في أوائل عام ٩٨٣ (٣) ، تاركا طفلا صغيرا هو أوتو الثالث ، الذي لم يكن يتجاوز عمره ثلاث سنوات ، فوجدها لوثر فرصة لإشغال الفتنة من جديد مع ألمانيا ، وصورت له خيالاته إمكان الوصاية على الطفل الصغير الذي كان تحت وصاية والدته الإمبراطورة ثيوفانو الإغريقية الأصل (٤) ، غير أن الحلم لم يتحقق لوقوف هنري ودوق بافاريا القوي في مواجهة لوثر ، في الوقت الذي تربص فيه هيو كاييه بلوثر ، منتهزا فرصة انشغاله بمحاولة تحقيق أحلامه وأوهامه ، إذ فجر هيو كاييه الثورة في وجه لوثر ، وأنزل الهزيمة بقواته في الألزاس ، اضطر على أثرها لوثر إلى التراجع ثم التقى بهيو كاييه في مواقع أخرى ، انتهت بعقد الصلح بينها سنة ٩٨٥ م .

(1) Camb. Med. Hist. V. III, p. 80 — 3

(2) Davis : op cit. p. 228, Barrie Dobson : op. cit. p. 138

(3) Davis : op. cit. p. 228

(4) Barrie Dobson : op cit p 138

ثم توفي لوثر في العام التالي سنة ٩٨٦ ، تاركا العرش لابنه لويس الخامس^(١) .

و حين اعتلى لويس الخامس العرش كان في التاسعة عشرة من عمره ، ولم تصادفه متاعب في البداية من قبل هيو كاييه ، الذي فضل الصمت لاعتقاده فيما يبدو أن ولاء الناس للأسرة الكارولنجية أقوى من رغبته هو في هذا العرش ، وحماسه للفوز بالسلطة ، فضلا عما بدا من حروب أهلية وفوضى في ألمانيا عقب وفاة أوتو الثاني واعتلاء أوتو الثالث العرش الألماني^(٢) ، ولم يكن لويس الخامس على شاكلة والده أو جده ، ولم يكن له ما كان لهما من همة ونشاط وحزم وحسم واهتمام بإكساب الملكية الفرنجية المهابة والتعظيم بل أضاف إلى ضعف الكارولنجيين في هذه الحقبة^(٣) ، إذ كان متردداً ضعيفاً ، أثار استهزاء الناس وسخريتهم لا سيما حين تزوج ، قبل ذلك بسنوات وعلى عهد والده ، من أرملة أمير أكويتين التي كانت تكبره سناً ، ثم ما لبث أن دب الخلاف بينها فهجرها ، فتزوجت بعده من كونت آرل ، بعد أن تسببت في إحراجهِ وإثارة السخرية منه ، ولم يدم حكم لويس الخامس سوى سنة واحدة (٩٨٦ — ٩٨٧ م)^(٤) ، لم تجر فيها أمور ذات أهمية اللهم إلا إظهار لويس الخامس النفور من ألمانيا وإساءة العلاقة مع الكنيسة الأمر الذي أُنذر بشر مستطير ، لولا أن توفي لويس الخامس فجأة سنة ٩٨٧ م^(٥) .

(1) Camb. Med. Hist. V. III, pp 80 — 7

(2) Davis : op. cit. p. 228

(3) Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 204

(4) Encyclopaedia Britannica (Ed. 1952), Capar. V., IV, p. 789

(5) Mahenholtz : op. cit. p. 3766

ولم يكن هناك ممثل للبيت الكارولنجي ، بعد لويس الخامس سوى عمه شارل دوق اللورين ، ولم يكن محبباً إلى كبار النبلاء ، وجموع الناس بسبب تكريسه إلا انفصال في اللورين وأطباعه في اللورين العليا ، وخدمته لملك ألمانيا ودخوله في طاعته ، في الوقت الذي كرس فيه ألمانيا نفسها على عهد أوتو الثالث للظهور بمظهر الإمبراطورية الرومانية الوراثية لثراث الإمبراطورية القديمة من ناحية ، وإمبراطورية شارلمان من ناحية أخرى (١) . ولهذا تطلع هيو كاييه إلى العرش ، وشعر أن الوقت قد حان للفوز بشجرة أعماله وإخلاصه نوسا فدته شهرته وأعماله الطيبة ودفاعه المجيد عن فرنسا ، وحبه لرجال الكنيسة وورعة ورجاحة عقله ، فقد انبرى أحد كبار رجال الدين يدل على أحقية هيو كاييه في العرش قائلاً : « إن العرش لا يكتسب بحق وراثي وإنما يجب أن يوضع على رأس المملكة من لا يتميز بنبله فحسب ، بل أيضاً بصفات عقله ، أي من يوصى الشرف به وقد عمة مروءته وشهامته » (٢) ، وأيدت جموع الناس اختيار هيو كاييه للعرش الفرنجي ، وجرى تنصيبه ملكاً في نفس العام سنة ٩٧٨ م ، وباركته الكنيسة الفرنسية (٣) .

وهكذا انتهت الأسرة الكارولنجية ، بعد عمر طويل في حكم المملكة ، وكان يمكن أن تستمر لفترة أخرى ، لولا وفاة لويس الخامس الفجائية وشخصية عمه شارل دوق اللورين غير المحببة . ولهذا جاءت سنة ٩٨٧ م حداً فاصلاً في تاريخ المملكة الفرنسية . حقيقة لم يكن سلطة هذه الملكية تامة ، إلا في جزء من فرنسا ، بينما مارست دوقيات كبيرة نوعاً من الحكم الذاتي ، إلا أن

(1) Epistolae Gerberti, Ed. J. Havet, 1889, p. 281 Chronicon Novalliciense (trans. Davis — in C. M. H., 3, p. 213 — 14)

(٢) أنظر حاطوم : تاريخ مصر الوسيط في أدبرته ج ٩ ص ٤١٥ من المؤرخ آريشيه

(3) Camb. Med. Hist V. III, p. 80

الولاء لهذه الأسرة ضمن لها البقاء ، في أوقات اعتقد الناس فيها باستحالة استمرارها والدليل على ذلك ، انتقال العرش من لويس الرابع إلى لوثر ، ومن لوثر إلى لويس الخامس ، في الوقت الذي تطلع فيه هيو الكبير وهيو كاييه إلى العرش ، وكان كل منهما يمثل دوراً أشبه بدور دوق الفرنجة ورئيس البلاط ؛ في أوائل عهد الأسرة الكارولنجية في فرنسا في مستهل القرن الثامن الميلادي^(١) ، بينما مضت ألمانيا والجزء الشرقي من إمبراطورية الفرنجة في تكريس كيانه وذاتيتها ، وإقامة إمبراطورية تحمل سمات الإمبراطورية التي أقامها شارلمان ، بل بدأت على عهد أوتو الثالث تعتقد أنها إمبراطورية الرومان قاطبة ووارثة الإمبراطورية الرومانية القديمة ، فقد شعر أوتو الثالث أنه أكثر رومانية من والده وجده ، لكون أمة ثيوفانو أميرة إغريقية ، ومن سلالة بيزنطية — كما أشار إلى ذلك الكتاب القدامى ونوهوا به^(٢) .

(1) Mabrenholtz ; op. cit. pp. 3768 — 8

(2) Epistolae Geberti, Ed. J. Havet, 1889, p. 237

R, H, C. Davis ; op. cit. p. 229

الباب الثاني

الدولة الأموية في أسبانيا

الفصل الثالث : عصر الأماة ٧٥٥ - ٩١٢ م = ١٣٨ هـ - ٣٠٠ هـ.

الفصل الرابع : عصر الخلفة ٩١٢ - ٩٧٦ م = ٣٠٠ هـ - ٣٦٦ هـ.

الفصل الثالث

عصر الإمارة الأموية في أسبانيا ٧٥٥ م - ٩١٢ م

١٢٣٨ هـ — ٣٠٠ هـ

بعد أن استقرت الفتوحات الإسلامية في شمال إفريقيا ، في مطلع القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) ، ودخل البربر في الإسلام وصالح إسلامهم ، وأظهروا حماسة طاغية للفتح والجهاد ، عبر المسلمون المضيق سنة ٧١١ م ، وأنسابوا في أسبانيا فاتحين ، فنجحوا في القضاء على دولة القوط الغربيين على عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، وشكل البربر الجانب الأعظم من الجيوش التي استولت على أسبانيا ، ولم يمض وقت طويل حتى ضعفت الخلافة الأموية في الشرق ، وقضى عليها العباسيون وقتلوا آخر خلفائها مروان بن محمد سنة ٧٥٠ م (١٣٢ هـ) .

غير أنه قدر للدولة الأموية أن تبعث من جديد ويمتد عهدها في إقليم نابل بعيد في أقصى الغرب في بلاد الأندلس أو أسبانيا الإسلامية ، حيث نجح عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، الذي لقب بالداخل ، في الفرار من مذابح العباسيين إلى المغرب (١) . ومنها إلى الأندلس بعد أن نجح في نشر الدعوة الأموية فيها ، ومهد الطريق لبعث الدولة الأموية هناك (٢) ، وهوي إليه جند

(١) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٣٠٧ (تحقيق محمد غني الدين عبد الحميد - بيروت سنة ١٩٤٩ م)

ابن خلدون : المغرب ج ٤ ص ١٢٠ (ط بولاق)

(٢) ابن هذاري المراكشي : البيان المغرب ج ٢ ص ٤٩ (كولان ولبنى بروفنسال)

المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٣٠٩

فلسطين وجند الأردن ، وكثير من زعماء القبائل وجموع كبيرة من الأمويين في الأندلس وأهل الشام والناقلين على حكم يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، الذي كان يحكم الأندلس كإمارة مستقلة^(١) ، في ظل ولاء إسمي للخلافة العباسية الناشئة ، وتقدم عبد الرحمن إلى اشبيلية وجنوب الأندلس^(٢) تسبقه دعوته إلى جنوب البلاد وغربها : ثم تقدم إلى قرطبة في أوائل سنة ٧٥٦ م (١٣٨ هـ) ، حيث ألحق الهزيمة يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، وأجبره على الفرار إلى طليطلة ، وانهى الأمر بمقتله على يد بعض أصحابه ، ودخل عبد الرحمن قرطبة دون مقاومة تذكر ، وبويع بالإمارة في مايو سنة ٧٥٦ م (٣) .

لم يكن دخول عبد الرحمن قرطبة ، ومبايعته بالإمارة فيها نهاية لمتابعه وتنويع الكفاح ، بقدر ما كان بداية لعهد من النضال والكفاح لتأكيد سلطته ، وإحياء دولة الأمويين بالأندلس موحدة متمسكة أمام الأخطار المحدقة بها ، فقد كانت الأندلس في ذلك الوقت نهياً للفتن والثورات^(٤) ، ما بين خصومة حادة بين المضرية واليمنية ، إلى تطاحن القبائل من أجل مصالحها الذاتية ، على حساب تماسك الإمارة ووحدتها ، إلى فتن البربر الذين مثلوا أحد العناصر القوية في

(١) El — Hajji : And. Dip. Rel. p. 41

Laue - poole : The Moors in Spain, p. 61 (Beirut 1967)

(٢) ابن هزاري : البيان ج ١ ص ٥٠ — ٥١ .

(٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٧

المقري : نفع الطب ج ١ ص ٣٠٨ — ٣٠٩ ، ابن هزاري : البيان ج ٢ ص ٤٨ — ٤٩

(٤) المقري : نفسه ج ١ ص ٣٠٨ ، ابن هزاري : نفسه ج ٢ ص ٥١ — ٥٣ .

ابن الأبار : الحلة السراء ص ٢٣ ، ص ٥٠ (القسم المطبوع بحماية دوزي)

البلاد ببعضهم الدفين للعرب ، فضلا عن جيوب المقاومة النصرانية في الشمال والشمال الغربي من البلاد ، تنتظر الفرصة للوثوب والاسترداد (١) ، إلى تربص مملكة الفرنجة من وراء البرنيه رغبة في تمزيق المسلمين في الأندلس ، وانتزاع أطراف الإمارة منهم وتصفية مناطق نفوذهم قرب جبال البرنية (البرتات) ، بالإضافة إلى خطر العباسيين ، الذين لم يسلموا بعد بضياح هذا الإقليم الهام ، وتربصهم بعد الرحمن انتظاراً لفرصه موائية لطرده من الأندلس (٢) .

وكان على عبد الرحمن أن يواجه ذلك كله بالصبر والمثابرة والعزم ، وعلى الرغم من أنه لم يكن يتجاوز السادسة والعشرين من عمره حين دخل قرطبة ، إلا أن عزيمة هذا الشاب كانت أقوى من الخطوب وأصلب من الحن ، فقد قضى بقية عمره في نضال مستمر (٣) حتى نجح في النهاية في إرساء دعائم مملكته ، وبعث الدولة الأموية في ذلك القطر النائي ، لتبقى وتزدهر ردحا طويلا من الزمن .

فلم يكد عبد الرحمن يستقر في قرطبة حتى تبعه العلاء بن مغيث من إفريقية سنة ٧٦٣ م (١٤٦ هـ) رافعا العلم العباسي الأسود في الأندلس مستقطبا العناصر الثائرة والكارهة للحكم الأموي في البلاد ، وكان الخليفة العباسي المنصور قد عين العلاء واليا على الأندلس ، غير أن عبد الرحمن نجح في إنزال الهزيمة بالعباسيين ، والقضاء على أملهم في طرده منها ، ويجري قطع رأس

(١) EL - Hajji : op. cit. pp. 39 — 46 .

(٢) Lévi - Provençal : Histoire de L'Espagne Musulmane, t. ١, p. 121

(٣) ابن الأبار : الحلة السيرة ص ٣٥ (لیدن) ، ابن الخطيب : أحوال الأندلس ص ٨

(لبنى بروفنسال)

العلاء ، وأمر عبد الرحمن بمن أخذ رأس العلاء وحشاه بالملح والكافور ، لحفظه
ثم وضعة في قفة مع السجل واللواء العباسي ، وأرسله مع بعض الحجاج
الأندلسيين ، فوضع أمام سرادق المنصور أثناء أدائه الحج ، فلما رأى المنصور
ذلك ارتاع كثيرا وقال : « ما في هذا الشيطان (يقصد عبد الرحمن) مطمح
فالحمد لله الذي جعل بيتنا وبينه بحرا » (١) . ويذكر المؤرخ الشهير دوزي
Dozy أن نجاح عبد الرحمن في القضاء على هذه العقبة يعد أمرا بالغ الأهمية
فإنها لم تكن دعوة حزب أو قبيلة ، وإنما كانت دعوة عامة تدعمها الصبغة
الشرعية ، ولم يك أصلح منها لجمع خصوم عبد الرحمن من سائر الأحزاب والقبائل
تحت لواء واحد (٢) . ويشير المؤرخون إلى أن أبا جعفر المنصور كان شديد
الإعجاب بما أنجزه عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) ، وهو الذي أطلق عليه
لقب « صقر قریش » لأنه : « عبر البحر وقطع القفر ، ودخل بلادا عجميا
منقردا بنفسه ، فصر الأمصار وجند الأجناد ودون الدواوين ، ونال ملكا
بعد انقطاعه بحسن تديره وشدة شكيمته » (٣) .

ثم التفت عبد الرحمن إلى البربر ، ففقدى نحو عشر سنوات في إخضاعهم ،

(١) ابن عذاري : البيان ج ٢ ، ص ٥٢ ، المقرئ : فتح الطيب ج ١ ، ص ٢١١
ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٣ وانظر كذلك : المبادئ : في تاريخ
المغرب والأندلس ص ١٠٠ ،

Scott : Hist. of the Moorish Empire in Europe, 1 p. 309
(London 1904)

(2) Dozy : Histoire des Musulmans d' Espagne, V. 1, p. 234

وانظر كذلك : محمد عبد الله منان : دولة الاسلام في الأندلس ج ١ ص ١٦٢

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٩ — ١٠

والقضاء على ثوراتهم ، واستنفذ ذلك جانبا كبيرا من جهوده ١ ، ونجح في النهاية في كسر شوكتهم وقتل زعمائهم بالحرب تارة والخديعة تارة أخرى (٢) كما نجح بفضل دهائه وسياسته في طحن اليمانية ، وأعمل فيهم السيف حتى بلغ جملة من قتله منهم نحو ثلاثين ألفا وشتت الباقي منهم ٣ في الوقت الذي فش ل فيه شارلمان في حملته على الأندلس ، ولحقت بجيشه كارثة في مر رونسال كما سوف تفصل ٤ . كما التفت عبد الرحمن للدويلات المسيحية في الشمال ، وخاصة للبلاد الواقعة بين بلاد البشكنس وجبال كانتابريا على ضفاف نهر الإبرو ، فغزاها وتوغل فيها وأرغمها على أداء الجزية ، وقبض على مشيرى الشعب في تلك الأنحاء (٥) ، ولم يهمل الجهات النصرانية المجاورة ، فتعرضت لضرباته وأجبرت على الانصياع .

وفي نفس الوقت أخذ سكان أسبانيا المسيحيون يتحولون في ظل التسامح الإسلامي إلى الإسلام رويداً رويداً ، بعد أن كانوا يشكلون عاملاً خطيراً في إثارة القلاقل أمام عبد الرحمن ، فجاء تحول الغالبية العظمى منهم إلى الإسلام وتحمسهم له وتعصبهم له ، عاملاً هاماً في توطيد سلطة عبد الرحمن في أسبانيا (٦) .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٢٢٤ ، ابن مغازي : البيان ج ٢ ص ٥٤ — ٥٥

ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٣

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٥٠٦ (بيروت سنة ١٩١٥)

(٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣١ — ٣٢

(٤) Camb Med. Hist V III, p 413

(٥) ابن مغازي : البيان ج ٢ ص ٥٦ ، المقري : فتح الطيب ج ١ ص ٢٠٩

Levi - Provençal ; op. cit l. p. 126

(6) Lane - poole ; The Moors in Spain, pp. 65 — 6

وبعد نحو ثلاثة وثلاثين عاما من الكفاح المستمر ، توفي عبد الرحمن في أكتوبر سنة ٧٨٧ م (ربيع الثاني سنة ١٧٢ هـ) ، تاركا الحكم لابنه هشام الأول (١) .

وكان هشام الأول الرضا ، الذي خلف أباه عبد الرحمن ، عاقلا وافر الشجاعة والحزم متواضعا عادلا قرب الفقهاء ورجال الدين ، وأجزل لهم العطاء ، وحاول التشبه بالخليفة عمر بن عبد العزيز في عدله وتقواه . وكان حين ولي الإمارة في الثالثة والثلاثين من عمره ، ولم يكن أكبر إخوته بل خصه والده بالولاية ، لما توسمه فيه من النجاسة والنبل وحسن الصفات (٢) ، فكان هذا الاختيار سببا فيما تعرض له هشام من ثورات أخوية : سليمان وعبدالله ، غير أن هشاما استطاع أن يخمد هذه الفتنة ، وأن يجبرهما على طلب الأمان ، وعفى عنهما وسمح لهما بترك الأندلس والعبور إلى المغرب حيث أقاما بالمغرب ، وتخلص هشام بذلك من خطر هدد ولايته (سنة ٧٩٠ م = ١٧٤ هـ) (٣) .

وواجهت هشاما أيضا ثورات في شمال البلاد ، إذ أشعل سعيد بن الحسين الأنصاري الفتنة في طرطوشة والتف حوله جموع من اليمينية (٤) ، وطرح والى برشلونة الطاعة واستولى على سرقسطة ووشقة . غير أن هشاما أثبت أنه

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٢١٠ ، ابن مغازي : نفسه ج ٢ ص ٥٨ .

المراكشي : المعجب ص ٩ ، ابن الأثير : نفسه ج ٦ ص ٢٧ .

(٢) راجع ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠٢ (مصر سنة ١٩٢٨) .

ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٣٢ ، عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ١ .

ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٦٦ .

(٣) انظر ابن عذاري : نفسه ج ٢ ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٤) ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ١٣٤ .

لا يقل همة عن والده فبعث بجيوشه إلى الشمال ، نجحت في إخماد ثورة
طرطوشة ، ودخلت سرقسطة بعد أن قتلت واليها الثائر ، وأنهى هشام بذلك
ثورات الجهات الشمالية (١) . وفي نفس الوقت انتهز نصارى الشمال الفرصة
لمحاولة العبث والعدوان كلما أحسوا بانشغال حكومة قرطبة عن حماية الأطراف
غير أن هشام سارع بمجرد انتهائه من القضاء على الفتنة الداخلية بإرسال
جيشه إلى الشمال ، فحارب الأسبان في ولاية اشتوريش في شمال غرب أسبانيا ،
وكان لهذه الولاية جبهتان مع الحدود الإسلامية ، جبهة شرقية وهي منطقة
القلاع (castellas) التي صارت قشتالة فيما بعد ، وجبهة غربية وهي منطقة
غاليسيا أو جليقية (٢) . فاجتاح بلادهم ومنقهم شرمزقهم وحلفائهم من
البشكنس (٣) . ولم يخلد البربر أيضا للسكينة في عهد هشام ، إذ أشعلوا نار
الفتنة من جديد سنة ٧٩٤ م (١٧٨ هـ) ، فلم يتوان هشام عن إرسال حملة إلى
منطقة رندة مركز تجمعهم نجحت الحملة في إخماد ثورتهم ، وأبادت جموعا
كثيرة منهم ، وخربت بلادهم وشتت شمل الكثيرين منهم وقضى هشام بذلك على
هذا الخطر (٤) .

وهكذا نجح هشام في كفالة الأمن والاستقرار في الإمارة . فكان عهده
عزاهرا وافر الرخاء ، وكان لسياسته وعدله وتسامحه أثر في تحول كثير من
النصارى إلى الإسلام ، لاسيما بعد أن جعل لغة التدريس في معاهد النصارى

(1) El - Hajji : And. Dip. Rel. pp. 42 — 3

Lévi - Provençal ; op. cit. I, pp 142 — 3

(٢) أحمد مختار السأدي : في تاريخ المغرب والأندلس ص ١١٩

(٣) ابن الأثير : الحلة السيرة ص ٧٢ ، ابن الأثير : نفح ج ٦ ص ٤٨

(4) Lane - poole : The Moors in Spain, p 71

واليهود هي العربية ، فكان ذلك سببا في بث روح التفاهم والوثاق بين المسلمين والاصاري وغيرهم ، وكان له أكبر الأثر في اعتناق الكثير منهم الدين الإسلامي (١) . ولقد قرب هشام الفقهاء ورجال الدين وأكرمهم ، وأطاق أيديهم أحيانا في السياسة ، حتى غدوا خطرا على الدولة ، وعلى رأسهم يحيى بن يحيى الليثي ، الذي انتهر الفرصة ووجد في تقوى هشام وورعه غفلة يمكن أن يستغلها للحصول لهذه الفئة من رجال الدين على أعلى المراتب في الدولة ، وإذا لم يبرز خطر الفقهاء على عهد هشام بشكل سافر ، فإن ذلك الخطر ما لبث أن ظهر بصورة واضحة على عهد خليفته الحكم الأول (٢) . وتوفي هشام سنة ٧٩٦ م (١٨٠ هـ) ، وهو في الأربعين من عمره بعد أن حكم نحو ثمانية أعوام .

خلف هشاما ولده الحكم الرضى في الإمارة (٧٩٦ — ٨٢٢ م = ١٨٠ هـ — ٢٠٦ هـ) ، وكان في السادسة والعشرين من عمره ، وعلى عكس والده كان طاغية شديد الوطأة على خصومه والخارجين عليه ، لكنه مع ذلك كان شجاعا حازما ، ينزع أيضا إلى الإنصاف والعدالة (٣) . كما كان مؤثرا للذات . الحياة ، مبالغا في حياة الترف والتنعم ، وكان مرحا مولعا بالصيد والقنص وحفلات الرقص والغناء ، ومجاسة الشعراء والندماء ، حتى شابهت قرطبة في

«(1) Scott : op. cit. 1, p. 433

(٢) عبد الواحد المراكشي : العقب ص ١١

أقرى : نفع الطيب ج ١ ص ٢١٤ ، Dozy : op cit. 1. 288

(٣) أخبار بحومة لمؤلف مجهول ص ١٢٥ (١٨٦٧)

وأنظر كذلك : محمد عبد الله عنان : دولة المسلمين في الأندلس ج ١ ص ٢٣٠

عصره مدينة بغداد في الشرق (١) ، الأمر الذي أثار حفيظة الفقهاء ، بعد أن أهملهم الحكم وفضل علي مجالسهم مجالس الندماء والشعراء ، ويبدو أن الحكم تعتمد ذلك ليحد من نفوذهم ، الذي استفحل علي عهد والده (٢) ، محاولا إبعادهم عن التدخل في السياسة وشئون الدولة ، فراحوا يعرضون به وبسياساته . ويجونه فوق المنابر ، ويحاولون الإساءة إليه بين الرعية ، ووجدوا استجابة بين البربر ومسلمي الأسبان أو المولدين ، وهم الذين ولدوا من آباء مسلمين وأمهات أسبانيات ونشأوا علي الإسلام ، فهم إذن خليط من دم أهل البلاد الأصليين ومن دم العرب والبربر الفاتحين ، وكانوا علي عهد أمراء بني أمية يكونون الكثرة الغالبة من السكان (٣) . وقد اشتد سخطهم علي العرب لاستئثارهم بالسلطة ، ولما كان فيهم من كبرياء (٤) واستغل الفقهاء هذه الروح فدبروا مؤامرة لخلع الحكم سنة ٨٠٥ م (١٨٩ هـ) ، غير أنها اكتشفت ، فبادر الحكم بالقبض علي المتآمرين ، وأعدم منهم اثنين وسبعين رجلا ، واستطاع البعض الآخر الفرار ، وكان من جملة الذين أعدمهم بعض أعمامه ، صلبهم تجاه القصر ، وأظهر القسوة في قتلهم مما كان سببا في إحداث الشغب والثورة بين الناس في العاصمة ، إلا أن الحكم سحق الهياج دون رأفة وأحمد بأوار الفتنة (٥) .

(١) ابن بولة : العرب في أسبانيا ص ٧١

(٢) Jackson : The Making of Medieval Spain, p. 30

(٣) البهادي : في تاريخ المغرب والأندلس ص ١١٧ ، ص ١٢٨

(٤) Lévi - provençal ; op. cit 1, pp. 140 — 1

Lewis : op. cit. pp. 122 — 3

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٨٨ ، ابن عذاري : البيان ج ٢ ص ٧١

ولم يخل الأمر أيضا عن ثورات داخلية ضد الحكم ، إذ اندلعت الثورات .
 قى الثغور الشمالية لاسيما سر قسطة ووشقة ولارده وغيرها (١) ، وأذكي نيران
 هذه الفتنة عبد الله بن عبد الرحمن ضد ابن أخيه الحكم ، بعد أن قبع فترة في
 بلاد المغرب ، يترقب ويتحين الفرصة حتى وانت فتقدم إلى الشمال وأذكي نار
 الفتنة واستعان بالفرنيج — كما سوف تفصل في الفصل التالي — لكن الحكم استطاع
 بعد جهد جهيد ، إخماد هذه الثورة ، واسترد الحكم سلطانه على الثغور الشمالية
 وأجبر الفرنج على الانسحاب إلى ما وراء السيرانس (٢) . وفي نفس الوقت
 أشعل عمه الآخر سليمان بن عبد الرحمن الفتنة ، وضم إليه جموعا من البربر
 وانحاز إليه أخوه عبد الله بعد فشله في الشمال ، وسار الجميع نحو قرطبة . غير
 أن الحكم استطاع أن ينزل بالثوار الهزيمة وقبض على عمه سليمان سنة ١٨٣ هـ .
 (٧٩٩ م) ، وأمر بعدامه في العام التالي ، والتمس عمه الآخر عبد الله
 الصنفح فعفا عنه الحكم وألزمه الإقامة في بلنسية وأجرى عليه الأرزاق (٣) .

كما اندلعت الثورة في المدن الكبرى في ماردة وفي باجسة وأشبونة وفي
 طليطلة ، وتلاحقت ثورات طليطلة يغذيها اندفاع المولدين والنصارى في
 مناوأة حكومة قرطبة ، وانضم جموع البربر إليهم ، ولهذا بذل الحكم جهودا
 مضنية للقضاء على هذه الثورات واستطاع أن يخمّد الفتنة في ماردة ، ثم .

(1) Sc' mitz : Enc. Isl art " Al - Hakam "

(٢) ابن حبان : المتنبس في تاريخ رجال الأندلس — مخطوطة — نوحه ٩

عبدن : المرجع السابق ج ٢ من ٢٣٢ . شكيب أرسلان : تاريخ في روات العرب .

ص ١٦٦ ،

El - Hajji : And. Dip. Rel pp. 149 — 50

(٣) ابن حبان : نفسه لوحة ٩ ، ماردة في ج ٢ من ٢٣٢

التفت إلى طليطلة سنة ١٩١ م (٨٠٧ م) ، واستطاع بالحيلة والخداع أن يدبر مؤامرة أطاح فيها بوجهاء المدينة دفعة واحدة ، هلك في تلك المؤامرة عدد كبير من وجهاء المدينة وأعيانها ، فتجددت المدينة من زعاماتها ، وتمدت روح الثورة فيها ، وأخذت المدينة إلى السكينة^(١) . وفى السنوات الأخيرة من عهد الحكم عاد نصارى الشمال إلى العبث بالأراضي الإسلامية المتاخمة لهم ، فأرسل الحكم حملة سنة ٢٠٠ هـ (٨١٥ م) ، هاجمت جليقية (غاليسيا) ، وأنزلت هزيمة كبيرة بالنصارى فيها ، وقتلت عددا كبيرا منهم ، وأسرت عددا آخر من أمراءهم ومبرزيهم ، فلجأ النصارى إلى الجهات الوعرة هربا من سيوف المسلمين ، وعادت الحملة إلى قرطبة ظافرة^(٢) .

لكن أخطر ما صادف الحكم فى سنواته الأخيرة الثورة التى اندلعت فى قرطبة ، والتى أذكأها المولدون من أهلها وجمع من الفقهاء ، وبعض الرعاى ، الذين طحتهم الضائقة الاقتصادية ، واشتعلت الثورة سنة ٨١٨ م (٢٠٣ هـ) ، فى الرىض الجنوبى لقرطبة^(٣) ، على الناحية الأخرى من نهـ الوادى الكبير ، وهو حى أهل بالسكان امتد من ضفة النهر جنوبا حتى بلدة شقندة Secunda^(٤) ، واقتحم العامة فناء قصر الحكم غير أن قوات الحكم نجحت

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٩٩ ، ابن خلدون : المعرى ج ٤ ص ١٠٦ — ١٢٧

(٢) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٦ ، ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٧٥

(٣) ابن الأثير : الخلة السيرة ص ٣٩ ، ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٧٥ — ٧٧

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٢١٨ — ٣٠٠ (ويصفاى أحداث سنة ٩٨ — ٩٩ هـ)

(٥) العبادى : نفس المرحم السابق ص ١٣٠ ، وأنظر أيضا :

Dozy : Musulmans d' Espagne, II, p. 353

في دفع الثوار إلى الوراء ، واقتحام الضاحية النائرة ، وجرى اضرام النار في بعض أنحائها ، وحصدت سيوف الجند رقاب الثوار بعد أن طوقوهم في حيهم وطاردوهم في كل مكان لجأوا إليه ، وأمر الحكم بصلب نحو ثلاثمائة رجل من الثوار تجاه القصر ، وأتبع ذلك بالأمر بمسح بيوت ومعالم الضاحية النائرة (١) ، حيث جرى هدم المنازل ومسح المعالم وحرث الأرض وزراعتها وتشريد الألوف من أهل ذلك الحى دون مأوى ، فاتجه البعض ناحية طليطلة ، وفضل البعض الآخر العبور إلى المغرب ، وطلب الحكم إلى سكان الحى الثائر أن يخرجوا من أسبانيا نهائياً في مهلة قدرها ثلاثة أيام ، وقرر أن يستأنف صلب من يبقى بعد انتهاء المهلة ، فجمع السكان ما استطاعوا جمعه من أموالهم وحاجياتهم وحملوا أطعمهم ونساءهم ، وقصدوا شاطئ البحر فركبوا إلى مصر (٢) ، وكان عددهم نحو خمسة عشر ألفاً من الأندلسيين ، وهؤلاء هم الذين نزلوا بالاسكندرية ، وشاركوا في الحرب الأهلية ، التي أضرمت في عصر الخليفة العباسي المأمون ، حتى قدم عبد الله بن طاهر من قبل المأمون أميراً على مصر ، فصالحه الأندلسيون واتجهوا إلى كريت تحت زعامة أبي حفص عمر بن عيسى البلوطي ، ففتحوها واستقروا بها سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) (٣) ، وأسسوا بها إمارة صغيرة استمرت نحو قرن وثلث حتى استعاد البيزنطيون الجزيرة سنة ٩٦١ م (٣٥٠ هـ) ، بقيادة القائد ذائع الصيت نقفور فوقاس قائد الإمبراطور

(١) ابن هزاري : البيادج ٢ ص ٧٦ — ٧٧

(٢) السكسبي : تاريخ الولاة والقضاة ص ١٩٣ ،

Bury : Eastern Roman Empire, p. 287

رفازيليف : العرب والروم ص ٥٢ — ٥٣

رفازيليف : العرب والروم ص ٥٥ — ٥٦ ، Bury : op. cit. p. 288, (3)

رومانوس الثاني في ذلك الوقت (١).

وليس من شك في أن ثورة الرض كانت حركة شعبية عامة شارك فيها رجال الدين والفقهاء والشعراء ، وقام بها العامة ومعظمهم من المولدين ، لكنها افتقرت إلى الزعامة ، وحسن التنظيم فانتهد إلى ما انتهت إليه ، ويفسر ذلك اهتزاز الحكم كثيرا أمام هذه الثورة وإخمادها بمنتهى الشدة والقسوة ، لأنها كانت قاب قوسين أو أدنى من الإطاحة بحكمه ، ومرض الحكم بعدها وطال به المرض عدة سنوات ، فأنا ب عنه ابنه الأكبر عبد الرحمن ، وأخذ له البيعة قبل وفاته ثم ما لبث أن جاز الحكم إلى ربه في مايو سنة ٨٢٢ أو آخر سنة ٢٠٦ هـ (٢).

كان عبد الرحمن بن الحكم في الحادية والثلاثين من عمره ، حينما ولي الإمارة بعد والده (٨٢٢ — ٨٥٢ م = ٢٠٦ هـ — ٢٣٨ هـ) ، وعرف بعبد الرحمن الثاني أو الأوسط ، لأنه ثاني ثلاثة سمو بهذا الاسم (٣) ، وقد اهتم والده بإعدادة للحكم ، وأنا به عنه أثناء مرضه ، وكان قد عني بربيته وتثقيفه منذ الصغر ، فدرس الأدب والحديث والفقه ، وكان حكيم مستنيرا معنيا بالنواحي الثقافية والعلمية محاولا محاكاة بغداد في عظمتها العلمية والأدبية (٤) ، كما كان عظيم الكفاية وافر الخبرة بشئون الحرب والإدارة يحسن اختيار الرجال

(1) Camb. M d. Hist. V. IV, p 70

Sehlumparger : Un Empereur Byzantin au dixième siècle.

Nicephore Phocas pp. 80 — 95

Lewis : Naval power, pp 185 — 6

(٢) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ص ٤١ ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٥٥ .

(٣) العبادي : المرجع السابق ص ١٣٧ ، ٤١ — ٤٢ ، El - Hajji ; op. cit, pp.

(4) Jackson ; op. cit p. 28

للمناصب ؛ كما كان وافر البأس والعزم يعشق مظاهر البذخ والفتخامة ،
وسطعت في عهده الفروسية الأندلسية ، حتى غدت مثلاً يحتذى في مجتمعات
العصور الوسطى ، وغنها اقتبست فروسية النصرانية (١) .

وكما حدث في عهد والده وجده ، اندلعت الثورات في كثير من الجهات
والمدن ، وقضى عبد الرحمن وقتاً في اخضاعها ، فقد شبت الثورة في تدمير ،
ولكن عبد الرحمن نجح في القضاء عليها ، واندلعت الثورة في قرطبة ذاتها وكانت
ثورة شعبية شابهت تلك التي حدثت في عهد والده ، وذلك بعد مبايعة عبد الرحمن
بأيام قلائل ، وأذكى أوراها أهل الذمة القادمين من البيرة ، وجموع من أهل
قرطبة ذاتها ، ولكن عبد الرحمن نجح في القضاء عليها أيضاً (٢) . واندلعت
فتنة أخرى في طليطلة ، وفي ماردة برز أحد زعماء البربر ويدعى محمود بن
عبد الجبار بن راحلة ، فعاث في تلك الأنحاء الفساد قتلاً ونهباً وتخريباً ، ولم
يستطع عبد الرحمن القضاء على هذه الفتنة في البداية ، فأتسع سلطان هذا
البربري ، حتى شمل بطليرس واكشونة وباجة ، وأخيراً نجح عبد الرحمن في
تطويق هذا الثائر وهزيمته ، ففر لاجئاً إلى نصارى الشمال ، ولذا بالفونسو
الثاني في غاليسيا (جليقية) ، واستمرت طليطلة في ثورتها سنة ٢١٤ هـ تحت
زعامة رجل من العامة يدعى هاشم الضراب ، وحاول عبد الرحمن القضاء على
الثورة فيها مراراً ، وكلها هدأت الثورة وبدأ وكأن المدينة قد أذعنّت عادت
من جديد إلى فتنتها حتى اضطر عبد الرحمن إلى الخروج إليها بنفسه سنة ٢٢٠ هـ

(١) راجع ان الأبار : الحلة السيامس ٦١ ، ان عذارى : البيان ج ٢ ص ٩٢

(٢) ان الأثير : الكامل ج ٦ ص ٥٠٧ ، Lanæ - poolc : op cit. p 83

(٣) ان الأثير : الكامل ج ٦ ص ٣٨٤ ، ص ٤٠٠ ، ص ٤١٦

(3) Lévi - Provençal : op. cit. I. pp 203

(٨٣٥ م) ، وعاد فأرسل إليها حملات أخرى حتى ضعفت الثورة في النهاية سنة ٢٢٢ هـ (٨٣٧ م) بعد حملات مستمرة وحروب ضارية (١) .

وصرف عبد الرحمن جانبا من جهوده للجهاد ضد نصارى الشمال في غاليسيا وأهل غسقونيا والأطراف حيث أوغلت جيوشه إلى تلك الجهات وهزمت النصارى في مواقع عديدة ، وأجبرتهم على دفع الجزية وإطلاق أسرى المسلمين ، وعادت جيوشه ظافرة إلى قرطبة محملة بالغنائم والسبي سنة ٢٠٩ هـ (٨٢٤ م) (٢) ، واستأنف عبد الرحمن الجهاد سنة ٨٤٠ هـ (٢٢٥ هـ) ، بعد أن أخذ الثورات المحلية ، فأرسل جيوشه إلى الأطراف والقلع ونواحي النصارى في مملكة ليون وخرج بنفسه في بعض هذه الحملات ، وتوغل في بعض المرات حتى بنبلونة ، وأحدث الخراب والدمار في تلك الجهات وسبي من أهلها الكثير وأجبر البشكنس وحلفائهم على الإذعان وعاد عبد الرحمن من آخر حملاته ظافراً سنة ٨٤٢ م (٢٢٨ هـ) ، بعد أن ألقى الرعب في قلوب النصارى ومن والاهم (٣) .

وعلى عهد عبد الرحمن الأوسط هذا ، عرفت بلاد الأندلس لأول مرة خطر النورمان أو الفيكينج ، الذين انسابوا تجاه الجنوب دون أن تكبح جماحهم قوة بحرية ، إذ يبدو أن قضاء شارلمان على قوة الفريزيين Frisians البحرية ساعد على تسهيل مهمة الفيكينج أو النورتمن في غزو غرب أوروبا

(١) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٨٤ — ٨٥ ، ابن الأثير : نزهة ج ٦ ص ٤٤٤ ،

ص ٤٧٥

(٢) المعرى : نفع الطيب ج ١ ص ٢٢٣ ، ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٨١ — ٨٢

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٥٠٧ — ٥٠٨ ، ص ٥١٦ ، ابن عذارى : البيان

بطريق البحر دون أن يجدوا مقاومة بحرية تقف في وجههم وتحد من غلوائهم^(١). وبدأت هجماتهم على سواحل أسبانيا الغربية والجنوبية ، طلبا للمغانم والسبي سنة ٨٤٣ م ، وتعرفهم الرواية الإسلامية « بالأردمانيين » أى النورماندين أو « المجوس » لأنهم كانوا يشعلون النار في كل مكان يحلون فيه ، بل كانوا يحرقون بها جثث الموتى من زعمائهم بسفنهم ، فظن العرب أنهم يعبدون النار كالزردشتية أو المجوس^(٢). أو قد ترجع هذه التسمية إلى أنهم كانوا في العهد الذى عرفهم فيه عرب الأندلس لأول مرة « مجوسا » أى وثنيين لم يعتنقوا النصرانية بعد^(٣). ففي صيف سنة ٨٤٣ م أو آخر سنة ٨٢٥ هـ نزلوا في مياه أشبونة في نحو ثمانين مركبا ، فدافعهم المسلمون ، فأنحدروا جنوبا إلى قادس وشذونة ، ثم دخلوا في نهر الوادى الكبير حتى إشبيلية^(٤). وكانت هذه الغزوة مفاجأة للمدن الإسلامية التى لم تكن لها أسوار تحميها ، ولم يكن الأسطول الإسلامى فى قوة تمكنه من الصمود أمام الغزاة ، فضلا عن أن معظم سفن الأسطول الأندلسى ، كانت ترابط على الساحل الشرقى ، لهذا فقد اقتحم النورمان إشبيلية ، فأحدثوا فيها الخراب والدمار ، وعاثوا فيها فسادا وأمعنوا فى القتل والأسر والنهب والسلب^(٥) ، وظلوا على ذلك نحو سبعة

(I) Davis : op. cit. p. 165

(٢) العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ص ١٤٨ ،

El - Hajji : And. Dip. Rel. p. 157 (N. I)

(٣) همان : المرجع السابق ج ١ ص ٢٦٢

(4) Camb. med. Hist. V. III, p. 416

Bernhard and Whishaw : Arapic Spain, Sid. light on her Hist. and Art, p. 70 (London 1912)

(5) Braeford Mediterranean Portrait of a sea, p. 325 (London 1971)

أيام ، ثم عسكروا بظاهر المدينة ، فحينما بلغت الأخبار عبد الرحمن بعث بقواته إلى إشبيلية وهرع الناس من كل مكان للجهاد ورد الغزاة ، ووصلت بعض وحدات الأسطول الأندلسي إلى مكان المعركة ^(١) ، ثم اشتبكت القوات الإسلامية بالنورمان الذين دعمتهم إمدادات جديدة ، بظاهر إشبيلية ، واهب أحد رجال عبد الرحمن ، ويدعي أبو الفتح ناصر ، وهو مسلم من أصل أسباني. دورا بارزا ، في هذه الأحداث سنة ٨٤٤ ^(٢) ، وبعد قتال مرير انهزم النورمان. وخر منهم نحو ألف قتيل وأسر المسلمون نحو أربعمائة رجل وجرى إحراق نحو ثلاثين سفينة من سفنهم ، فارتد النورمان إلى سفنهم ، وأمر القائد المسلم بصليب الأسرى النورمان على جذوع النخل أمام عيون زملائهم ، ولهذا بادر النورمان بالتراجع نحو الجنوب ، والمسلمون في أثرهم ، فوصلوا إلى أشبونة من جديد ، ثم غادروا الأندلس في النهاية ^(٣) .

ولقد فتحت هذه الغزوة أعين عبد الرحمن على أهمية الأسطول والتحصينات البحرية وأسوار المدن المعرضة للغزو ، فأمر ببناء سور حول إشبيلية من الحجر وجرى إنشاء دار للصناعة كبيرة تصنع فيها السفن الكبيرة ، وحشد بها الجند المدربين من شواطئ الأندلس : « فقد تقدم عبد الرحمن فأصلاح ما خربوه من البلاد وأكثف حاميتها » ^(٤) ، وزودها بالآلات وقوارير النفط التي تقذف.

(١) البذري : ترصيع الأخبار ص ١٠٠

(2) Jackson ; op cit. p 29

(٣) البذري : نفسه ص ٩٨ — ١٠٠ ، ابن عذاري : البيان ج ٢ ص ٨٧ — ٨٨

ابن الأثير : الكافي ج ٧ ص ١٦ ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس.

ص ٦٣ — ٦٤

ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ١٢٩

(٤) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢٢٤

على سفن الأعداء ، فضلا عن المحارس والرباطات التي أقامها على طول الساحل المطل على المحيط الأطلسي يقيم فيها المرابطون والحراس الليليون ، وكانت هذه المراقب أو الربط مزودة بالمنائر أو المنارات. وكان لهذه السياسة الفضل في حماية الأندلس من خطر النورمان ، فلم يستطيعوا تثبيت أقدامهم فيها ، كما حدث في فرنسا وإنجلترا ، ويذكر للأمير عبد الرحمن الأوسط هذا جهوده في هذا الميدان ، فقد كان بحق المؤسس الحقيقي للبحرية الأندلسية (١) ، وكانت أعماله في إشبيلية ، وعلى طول الساحل ، واهتمامه باتخاذ تلك الإجراءات ، نواة للأسطول البحري الأندلسي (٢) .

وإذا كان الأمير عبد الرحمن الثاني قد تخطى عقبة النورمان وخاص من شرهم ، فإنه تعرض لفتنة أشد وأنكى في قرطبة ذاتها ، سببت له مشاكل جمة وهي المعروفة بفتنة المستعربين المتطرفين ، فقد كان هناك إلى جانب العرب والبربر والمولدين فئة من السكان ظلوا يحافظون على ديانتهم المسيحية ، على الرغم من اندماجهم في المجتمع الجديد (٣) ، وتعلمهم العربية إلى جانب لغتهم الدارجة المشتقة من اللاتينية ؛ ولقد أقبل هؤلاء على دراسة علوم العرب وآدابهم وأشعارهم ، حتى فاقوا العرب أنفسهم في الشعر والنثر حتى عرفوا باسم المستعربة أو المستعربين ، أي الذين تعربوا لغة وثقافة (٤) ، وفي ظل تسامح الإسلام

(١) راجع البادى : نفس المرجع السابق ص ١٠٠ - ١٠١ ،

Lévi - Provi : op. cit. 1, pp. 225 - 218

(2) El - Hajji : op. cit. p. 164

(3) Jackson : op. cit. p. 31

(٤) البادى : نفسه ص ١٠٠ ، El - Hajji : op. cit. p. 56

Jan Read : The Moors in Spain and Portugal. p. 58 (London

1974)

وتقريب بنى أمية فى الأندلس ، احتل بعضهم المناصب الكبيرة فى الحكومة والجيش والبلاط ، غير أن ذلك لم يرض فريقاً من القساوسة النصارى ورجال الدين المسيحى ، الذين ساءهم كثيراً إقبال الشباب المسيحى على الثقافة العربية والشعر العربى^(١) ، فضلاً عما كان يثير القساوسة والمتعصبين المسيحيين ما ينعم به المجتمع الإسلامى من رخاء ورغد ، وما يحيط بالحكم الإسلامى من مظاهر المجد والسؤدد^(٢) ، ولذلك راح أولئك المتعصبون يعيبون على الشباب المسيحى تركه للفته الأصلية ، والاتجاه نحو العربية ، إلا أن ذلك لم يجرد ، واستمر الشباب فى إقباله على الفكر العربى والثقافة الإسلامية واللغة العربية^(٣) . ولهذا فقد تحول المتعصبون المتطرفون إلى مهاجمة الإسلام نفسه لجهلهم البين بجمال الإسلام وضآلة معلوماتهم عن الإسلام من ناحية ، ولشدة تعصبهم وتطرفهم من ناحية أخرى ، فراحوا يدسون على الإسلام ونبيه ، ويختلقون الأقاويل المبنية على الخرافات والأباطيل كرها للإسلام وحقداً على أهله^(٤) ، وانقاد بعض الرجال والنساء والرهبان لهؤلاء القساوسة المتعصبين وخرجوا على الناس حينئذ بما أسموه « الاستشهاد » أى الموت فى سبيل العقيدة ، واعتبروا أن أقصر طريق إلى الاستشهاد هو سب الإسلام والرسول علناً^(٥) ، فى مكان عام كالساجد والميادين حيث يقبض عليهم ويقادون إلى القاضى ، ويكررون أمامه سبابهم ، فيأمر القاضى عندئذ بإعدامهم على الرغم من التسامح الذى أظهره

(١) لفى برونسالة : حضارة العرب فى الأندلس ص ٧٧ (ترجمة ذوقات قرفوط)

(٢) مان : المرجع السابق ج ١ ص ٢٧٠

(٣) Lewis ; The Arabs in History, p 123

(٤) ان الأثير : السكامل ج ٧ ص ٦٦

(٥) Jackson : op cit p. 31

المسلمون تجاه النصارى والأقليات الأخرى في كل عصر ، بإعتراف المعاصرين.
الأسبان أنفسهم (١) .

ولقد بدأت هذه المسألة فردية في البداية ، ثم ما لبثت أن تطورت إلى حركة عامة غذاها وقواها أولئك المتعصبون من القساوسة ورجال الدين ، حتى تصبح فتنة طائفية كبيرة ، فعمت البلاد موجة صارخة من التعصب الديني مركزها العاصمة قرطبة ، وأخذ كل من ينبغي الاستشهاد بسب الرسول والإسلام علنا حتى يعدم ويحتفل المتعصبون بدفنه في شكل تحدٍ لسافر للسلطة الحاكمة (٢) . ولم تكن هذه الحركة قاصرة على الرجال ، بل أسهمت فيها بعض النسوة الأمر الذي أندر بشر مستطير . واتخذت الحركة قرب منتصف القرن التاسع وفي السنوات الأخيرة من حكم الأمير عبد الرحمن الأوسط شكل فتنة طائفية متطرفة ، الأمر الذي جعل الأمير يفكر في إنهاؤها بأي شكل وبأية وسيلة ، فأمر بعقد مجمع ديني في قرطبة يضم جميع أساقفة الأندلس سنة ٨٥٢م (٢٣٧ هـ) للنظر في هذه المشكلة ، ومثل الحكومة فيه موظف مسيحي (٣) ، وغلبت على المجمع روح الاعتدال ، فأعلن الجميع باستثناء أسقف قرطبة استنكارهم لهذه التفتنة واعتبارها حركة خارجة عن تعاليم الكنيسة ، إلا أن موقف أسقف قرطبة ومعارضته لذلك (٤) ، دفعت الحكومة إلى إلقاء القبض عليه وسجنه مع مجموعة من الرهبان المتطرفين ، مما سبب خروج جماعة من

(1) Lane - poole : op. cit. p. 92

E1 - Hajji : op. cit. pp. 56 — 7

(2) Lane - poole : op. cit. p. 84

(٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس من ٨٢

(4) Jackson : op. cit. pp. 31 — 2

المتطرفين واقتحامهم لمسجد قرطبة وسب الإسلام ونبه فيه ، فجرى القبض عليهم جميعاً وإعدامهم في نفس العام ، وبعدها بأيام توفي الأمير عبد الرحمن ، وهدأت الفتنة إلى حد كبير في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن وأخذت الحركة تضعف تدريجياً حتى انتهت من تلقاء نفسها (١) .

وعلى عهد عبد الرحمن الثاني هذا جرى نوع من العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة ، حين التمس الإمبراطور ثيوفيل (ثيوفيلوس) المساعدة من الأمير الأندلسي ، ضد العباسيين الذين أنزلوا بيزنطة ضربات قوية في آسيا الصغرى ، تحت قيادة الخليفة المأمون والخليفة المهتمم بالله العباسي (٢) ، الذي خرب أنقرة وعمورية في حملة كبيرة أذل فيها ثيوفيل في مسقط رأسه - عمورية - رداً على إغارة قام بها ثيوفيل ضد بطرقة والشغور الإسلامية القرية ، وطلب ثيوفيل كذلك مساعدة الأمير الأندلسي ضد الأغالبة في صقلية والربضيين في كريت (٣) . ولقد استقبل عبد الرحمن سفارة ثيوفيل بالترحاب ، وأرسل سفارة للقسطنطينية رداً عليها برئاسة شاعر يسمى يحيى الغزال ، فاستقبلها

(١) العبادي : المرجع السابق ص ١٥٨ ،

Lewis : op cit. p. 124

(٢) المقرئ : نفع الطب ج ١ ص ٣٢٤ ، ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٤١٧ (أحداث سنة ٥٢١٠ هـ)

غازيليف : العرب والغرب ص ١٠٤ ،

Bury : Eastern Rom. Emp. pp. 472 — 3

وانظر : محمد الشيخ : « سياسة الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل تجاه الخلافة العباسية »
مقالة في مجلة العلوم الاجتماعية بالرياض — العدد الثالث ص ١٦٨

(٣) ليفي برومنسال : الإسلام في المغرب والأندلس (ترجمة د. سالم) ص ٩٧ — ٩٨ .

وؤنس : المسلمون في حوض البحر المتوسط ص ١٦٥ ،

Bury : op. cit, p 273

ثيوفيل بحفاوة أيضاً وتسلم رسالة الأمير الأندلسي^(١)، وتشير الدلائل إلى أن عبد الرحمن لم يتعهد بشيء لبيزنطة على الرغم من أنه شاطر الإمبراطور سخطه على العباسيين وعلى الربضيين الذين وصفهم بأنهم مارقون خرجوا عن طاعته، أما الأغالبه فقد اعتذر عبد الرحمن عن محاربتهم، لأنهم يجاهدون في سبيل نصرته الإسلامية. وواضح أن عبد الرحمن لم يعد الإمبراطور بالقيام بأي عمل حربي ضد من سماهم الإمبراطور، وإنما أظهر فقط تعاطفه مع بيزنطة ضد العباسيين والربضيين^(٢). وتذكر الروايات أن الإمبراطور ثيوفيل والإمبراطورة ثيودورا قد عاملا مبعوثي قرطبة معاملة رائعة في القسطنطينية، وعاد أولئك المبعوثون بالهدايا للأمير الأسباني^(٣). وأخيراً توفي الأمير عبد الرحمن، وهو في الثانية والستين من عمره، وذلك في سبتمبر سنة ٨٥٢ م (٢٣٨ هـ)، بعد أن حكم نحو إحدى وثلاثين سنة.

تولى الإمارة بعد الرحمن ولده محمد (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ = ٨٥٢ - ٨٨٦ م)، وكان قد تجاوز الثلاثين من عمره بقليل وقد أعده والده لخلافته في الإمارة وولاه ثغر سرقسطة فأحسن إدارته، وصحب والده في حملاته ضد النصاري في الشمال،

(1) Pascual de Gayangos : The Hist. of the Dynasties in Spain, 1, p. 475

المقرى : نفع الطيب ج ١ ص ٢٢٨

(٢) انظر القسم الخاص بعصر عبد الرحمن الأوسط في كتاب المقتبس الذي نشره د. محمود مكي وانظر كذلك : ليفي بروفنسال : الاسلام في المغرب والأندلس (ترجمة سالم)

ص ١٠١ — ١٠٥

السادى : المرجع السابق ص ١٥٣ ، مؤنس : المسلمون في حوض البحر الأبيض ص ١٦٤ — ١٦٧

Scott : op. cit. I, pp. 478 — 9

(٣) ليفي بروفنسال : حضارة العرب في الأندلس ص ٧٤ (ترجمة فرقاط)

فأبلى بلاء حسنا، وكان ذكيا فطنا حريصا على استمرار ما كانت تحتله الإمارة من مجد ورقى (١) بالنسبة للمالك النصارى ومملكة الفرنجة، ويعد عصر مجد بداية أخطر مرحلة مرت بها الإمارة الأموية بالأندلس، إذ اتصلت خلال عصره الثورات والفتن، وقضى فترة حكمه التي امتدت نحو خمسة وثلاثين عاما في كفاح مستمر (٢)؛ فقد بدت الدولة التي تركها والده عبد الرحمن قوية ثابتة الأركان مستقرة تنعم بالهدوء، بدت فوق بركان يوشك أن يثور من كل ناحية، ولم يكن ذلك الهدوء سوى هدوء ظاهر يائخفى وراءه كثيرا من المحن والشدائد (٣).

فقد اندلعت الثورة في طليطلة بعد تولي عبد مباشرة سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) (٤)، يغذيها ويذكي أوارها المولودون والنصارى الذين استعانوا بنصارى الشمال في ليون وملك نافار، فكان ذلك سببا في إذكاء الحماسة في نفوس المسلمين، فانقضوا على جموع الثوار وحلفائهم ومنزقوهم شر ممزق سنة ٨٥٤ م (٢٤٠ هـ) حتى قيل أن جملة القتلى النصارى بلغ عشرة آلاف، واستولى الأمير على عدد وافر من الأسرى بينهم كثير من القساوسة، جرى إعدامهم على الفور (٥) ولم يكن ذلك نهاية المطاف في طليطلة، لأنها عادت إلى الثورة في غضون أعوام قلائل،

(١) ابن هذارى : البيان ج ٢ ص ١٠٩

(٢) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٣٢٨

(3) Lane Poole : op. cit. p. 94

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٧٤

(٥) انظر : ابن هذارى : البيان ج ٢ ص ٩٤ — ٩٥ ، ابن خلدون : العبر

ص ١٣٠

EL - Hajji . A. d. Dip. Rel. p. 101

Lévi - Provençal : op. cit. I, pp. 227 — 8

فحاصرها الأمير وقام بعمل من أعمال الحيلة للإيقاع بالثوار إذ هدم مهندسوهم قواعد القنطرة الكبيرة ، مع تركها قائمة ، ثم انسحب الجنود ، فلما خرج أهل طليعة في أثرهم للقتال واحتشدوا على القنطرة سقطت بهم في نهر التـمـابـجة ، وغرق منهم عدد كبير ، وأمر الأمير بتخريب حصون المدينة ودفاعاتها ، حتى طلب الثوار الأمان سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) (١) .

وتفجرت الثورة في الثغر الشمالي أيضا في ألبه والقلاع سنة ٨٥٣ م ، (٢٣٩ هـ) ، فسار إليها الأمير محمد بعد ذلك بعامين ، فعاث فيها وفتح كثيرا من حصون النصاري بتلك الجهات وأرسل سراياه إلى الجهات المجاورة ، تحربت برشلونة وضواحيها وأسرت بعض مبرزيها (٢) . وتعددت حملات الأمير إلى الثغر الأعلى وألبه والقلاع لإقرار الأوضاع هناك ، ومعاينة نصاري الشمال كلما تجرأوا على حكومة قرطبة ، وفي كل مرة كانت حملات الأمير تعود ظافرة . يعد أن تقرر الأوضاع وتؤدب النصاري قتلا وأسرا وتخريبا (٣) . وحينما أبدت نافار وليون العداء لحكومة قرطبة سنة ٨٦٠ م (٢٤٦ هـ) ، وأغارت على بعض الأراضي الإسلامية ، خرج الأمير محمد إلى نافار فغزا بنبلونة وخرب حصونها وعاثت القوات الأندلسية في ضواحي نافار وقراها ، وعادت بكثير من الأسرى (٤) .

وأدلت قرطبة نفسها بدلوها في هذه الثورات إذ لا زال المولدون

(١) Lane-Poole : op. cit. p. 94

(٢) ابن حنباري : البيان ج ٢ ص ١٥

(٣) ابن حنباري : البيان ج ٢ ص ١٠٢

(٤) ابن حنباري : البيان ج ٢ ص ٩٧

والنصارى يتحذرون للثورة كلما سنحت الفرصة ، وكانت ثورات طليطلة ، عاملا هاما في تشجيع متطرفي قرطبة على الثورة ، وبرز في عهد هذا الأمير أيضا القساوسة الذين أشعلوا الفتنة في عهد والده ، إلا أن هذا الأمير أثبت أنه لا يقل عن والده همة ، إذ قبض على أبرز رؤسهم وأمر بإعدامه على الفور ، وعندئذ أخذ النصارى إلى السكينة وعادوا إلى حدود الطاعة من جديد (١) . وانتفضت أيضا الجهات الجبلية في شمال غرب الأندلس ضد الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وكانت ماردة في مقدمة المعاقل التي فجرت الثورة بذكاء من المولدين والمتمردين ، واضطر الأمير محمد إلى الخروج إليها سنة ٨٦٨ م (٢٥٤ هـ) حيث قضى على الفتنة فيها وقتل من أهلها الكثير ، ونقل وجوهها ومبرزيها إلى قرطبة بأموالهم وأولادهم اتقاء لاندلاع الفتنة من جديد في هذه الجهات (٢) . ولكن ماردة وبطليوس عادتا إلى الثورة من جديد بعد نحو ست سنوات وخرج الأمير إليهما مرة أخرى ومرة ثالثة ، حتى قضى على الفتنة هناك واستنفذت هذه الثورات جانبا من جهود الأمير ونشاطه (٣) . ومن الشمال إلى الجنوب تفجرت الثورة في الجبال الجنوبية فيما بين رندة ومالقة سنة ٨٨٠ م (٢٦٧ هـ) ، وثورة أخرى في رية واستنفذت هذه الثورات قدرا كبيرا من جهود الإمارة الأموية ، واستطاع أن يقضى على هذه الثورة بشق الأنفس بعد أن أرسل الجملة تلو الأخرى (٤) .

(1) Lane - Poole : The Moors in Spain, p. 84

Lévi - Provençal : op. cit. 1, pp. 230 — 7

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ١٨٩ .

(٣) ابن مغازي : البيان ج ٢ ص ١٠٠ ،

El — Hajji : op. cit. p. 104 — 6

(٤) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢٢٦ — ٢٢٩

ومن حسن حظ الأمير أنه قضى على الفتنة الكبرى التي اندلعت في قرطبة . قبل أن يدهمه خطر النورمان ، الذين عاودوا الكرة من جديد بإغارة على سواحل أسبانيا الغربية ٨٥٩ م (٤٤٥ هـ) ، فدهموا شواطئ غاليسيا (جليقية) في نحو ستين سفينة ، ولم تؤخذ الإمارة الأموية حينئذ على غرة ، كما حدث في المرة الأولى لأن قواتها كانت على استعداد لرد الغزاة ، إذ طاردتهم السفن الأندلسية ، فاتجهوا جنوبا ، ولكن السفن الإسلامية استطاعت أن تقضى على طلائعهم . وتأسر سفينتين محملتين بالغنائم والسي (١) ، غير أن النورمان واصلوا سيرهم إلى مصب نهر الوادي الكبير ، ثم جنوبا إلى مياه الجزيرة الخضراء (٢) ، وفي نفس الوقت تقدمت القوات البرية نحو الغرب ، وتقدم الأسطول الأندلسي المجهز بقوارير النفط وفرق الرماة ونشبت عدة معارك برية وبحرية ارتد على إثرها الغزاة عن إشبيلية ثم إشتبك المسلمون معهم تجاه شاطئ شذونة ، وأسر المسلمون عدة سفن أخرى (٣) ، ولكن النورمان استمروا في هجماتهم وحطموا جناحا للأسطول الإسلامي واندفعوا نحو الجزيرة الخضراء ، وشاطئ الأندلس الجنوبي حيث دخلوا عدة مدن وقسرى وعاثوا بالفساد فيها وأمعنوا في الأسر والقتل والنهب ، وعلى الرغم مما فقدوه من سفن ومحاربين ، إلا أنهم ظلوا أشهراء يعيشون الفساد في شواطئ الأندلس ، ويصلون إلى أبعد من مصبات أنهارها (٤) ، حتى ارتدوا في النهاية نحو الشمال .

(١) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٣٢٨ ، ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٩٠

(2) Davis : op. cit. p. 165

(٣) El - Hajji : op. cit. pp. 157 — 8

(4) Bradford : Mediterranean Portrait of a Sea, p. 325

ولم يعودوا بعد ذلك إذ يبدو أنهم آمنوا أن الأندلس ليست في ضعف البلاد الأخرى التي هاجوها في فرنسا وإنجلترا وغيرها من الأقطار^(١). وتوفي الأمير محمد بن عبد الرحمن أخيرا في أغسطس سنة ٨٨٦ م (صفر سنة ٢٧٣ هـ).

وبعد وفاة الأمير محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٧٣ هـ ، وحتى نهاية القرن الثالث الهجري ، تولى الإمارة اثنين من أبناء محمد هما : المنذر بن محمد وعبد الله بن محمد ، ولم يطل العهد بأولهما سوى عامين بينما حكم الثاني نحو ربع قرن من الزمان حتى وفاته سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) ، وتعد هذه المرحلة من أخطر المراحل في عمر الإمارة الأموية بالأندلس ، وأكثرها اضطرابا^(٢) ، وذلك لأن الثورات اتصلت خلالها واندلعت الحروب بين الأمويين وخصومهم من الثوار سواء من المولدين أو العرب أنفسهم أو البربر وران على البلاد ضعف واضمحلال ، إذ تطلع كل نائر إلى الاستقلال بما في يده ، وأنذر ذلك بشر مستطير^(٣) .

فلم يكن الأمير المنذر الذي خلف والده في الإمارة يستطيع القضاء على الفتن التي أطلت برأسها في كل مكان في ذلك المدى القصير الذي تولى فيه الحكم . فعلى الرغم من من أنه كان رجلا ناضجا عند ولايته وكان قائدا

(١) انظر : ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٨ ، ان عذاري : البيان ج ٢ ص ٩٦-٩٧

المذري : ترصيع الأخبار ص ١١٨ — ٩

(2) Lévi - Provençal : op. cit. 1. pp. 329 — 30

(3) Dozy : Hist. Mus. Esp. II, pp. 21 — 93

Lévi - Provençal : op. cit. 1. p. 330

موهوبا ورجلا حازما اعتمد عليه والده في جلائل الأمور من قبل ، فضلا عن أنه كان وافر الشجاعة والبأس^(١) ، إلا أن الظروف كانت أقوى منه والثورات الداخلية تؤرق أحلامه ، فقط اتسع خطر ابن حفصون في الجنوب وبسط سلطانه على كورة ربة بأسرها ، وامتد نفوذه إلى شذونة ومالقة وجيان وإستجة وغيرها وهوى إليه الثوار والمارقون من كل جانب^(٢) ، ودعا للعباسيين وطلب عون الأغلبة ، وأصبحت ثورته أخطر ثورات المولدين على الإطلاق ولم يجد الأمير المنذر بدا من الخروج إليه بنفسه ، فاستولى علي بعض معاقله وقبض على كثير من أتباعه ، لكنه لم يستطع القبض على ابن حفصون نفسه الذي لاذ بقلعه في بدشتر^(٣) ، فحاصره المنذر فيها نحو شهر ونصف ، إلا أنه مرض أثناء الحصار ، وبعث في طلب أخيه عبد الله ، وبعد وصول هذا بقاليل جاز المنذر إلى ربه في صيف ٨٨٨ م (٢٧٥ هـ)^(٤) ، فقفل عبد الله راجعا إلى قرطبة على رأس قواته تاركا ابن حفصون ينعم بالهدوء من جديد^(٥) .

ولي عبد الله بن محمد الإمارة بعد أخيه المنذر سنة ٧٧٥ هـ (٨٨٨ م) في ظروف صعبة كثرت فيها الفتن والثورات واهتز عرش الإمارة بشدة ، وزاد في خطورة الأحوال أن الثورة لم تعد قاصرة على المدلدين في جهات متعددة ، وإنما امتدت إلى القبائل العربية ذاتها وإلى البربر أيضا ،

(١) ابن هذاري : البيان ج ٢ ص ١٢٠ ، ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٤٢٤

ابن الأثير : الملّة السيرة ص ٩٠

(٢) ابن هذاري : البيان ج ٢ ص ١١٤ — ١١٥

(٣) El - Hajji : op. cit. p. 110

(٤) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٠٢

(٥) Lévi - Provençal : op cit. 1, p. 338

ورأى كل فريق أن يستقل بما فى يده ، واندلعت الفتن العنصرية بين العرب والمولدين وبين العرب والبربر وبين العرب أنفسهم ، واشتعلت النفتن فى كثير من المدن والقلاع والنواحي ، ولم يبق للأمر من نفوذ سوى فى العاصمة وما حولها^(١) ، وفى العام التالى لولايتة خرج الأمير عبد الله الى الجنوب للقضاء على ابن حفصون ، وأتبع هذه بمحاولة أخرى كبيرة فى سنة ٨٩١ م (٢٧٨ هـ) ، ألحق خلالها هزيمة كبيرة بابن حفصون فى بلإى ، وقتل ألوفاً من أتباعه وأجبره على التحصن من جديد فى قاعدته ببشتر والمناطق الجبلية الجنوبية^(٢) ، وتكرر هجوم الأمير على معاقل هذا الثائر وقلاعه دون نتيجة حاسمة^(٣) ، الأمر الذى ضاعف من حقد ابن حفصون على حكومة قرطبة ، فأعلن فى سنة ٨٩٩ م (٢٨٦ هـ) اعتناقه المسيحية هو وسائر أفراد أسرته ، واتخذ لنفسه اسماً نصرانياً هو « صمويل » إلا أن هذه الخطوة تسببت فى تفرق كثير من أنصاره وأتباعه وانصرافهم عنه^(٤) ، فاتجه نحو نصارى الشمال وحاول التحالف مع ملك ليون^(٥) ، وبعض المنشقين على حكومة قرطبة ، وتلاحقت حملات الأمير ضده ، ولكنها لم تفلح فى القضاء عليه ، واستمرت الحروب مع هذا الثائر زهاء ثلاثين عاماً لتؤكد أن ثورة المولدين فى هذه الجهات

(1) Bernhard and Ellen M. Whishaw : Arabic Spain. pp. 78—9

Lane - poole : op. cit. p. 102

(2) El - Hajji : op. cit. pp. 110 — 111

(٣) ابن خلدون : «مروج ٤ ص ١٣٢»

Lévi - Provençal op. cit. 1, pp. 368 — 80

(٤) ابن هنادى : البيان ج ٢ ص ١٤١

(5) Bernhard and Whishaw : op. cit. p. 86

El - Hajji : op. cit. p. 101

لم يكن من السهل القضاء عليها (١) . واندلعت فتن أخرى للمولدين في مدن شتى في شدونة وجيان وباجة وبذل الأمير عبد الله جهوداً مضنية للقضاء على هذه الفتن ، ونجح في إخماد بعضها واستمر البعض الآخر حتى عهد عبد الرحمن الناصر (٢) .

واشتعلت الثورة أيضاً في الشرق ، وجاءت هذه المرة من القبائل العربية ، ويبدو أن القبائل العربية وجدت الفرصة سانحة لإفراغ حصيلة هائلة من الكراهية لبنى أمية وسياستهم في تقريب الموالي ، وإذلال العرب والاساءة إلى القبائل العربية ، وتركزت الثورة في كورة البيرة ، وما حولها ابتداء من سنة ٢٧٥ هـ (٨٨٩ م) ، أى ابتداء من عهد الأمير عبد الله (٣) ، وتقلب على زعامة وقيادة ثورتهم عدد من وجهاء العرب ورؤساء القبائل ، واستفحل خطر العرب في تلك الجهات ، وقضوا على كل أثر لسلطة قرطبة في البيرة وما حولها ثم في غرناطة التي صارت مركزاً لزعيم العرب (٤) ، ونظراً لانشغال الأمير عبد الله بمحاولة القضاء على ثورة المولدين بالجنوب ، اضطر لمهادنة العرب ، وأقر أميرهم على ما بيده في حدود تبعية شكلية ، وكلما قتل زعيم عربي في البيرة أقر أمير قرطبة الزعيم الذي يخلفه حتى عهد عبد الرحمن الناصر الذي قضى على ثورة هذه النواحي وأسكن فتنة العرب فيها (٥) .

(١) ابن عذاري : البيان ج ٢ ص ١٤٨ — ١٥٤

Bernharp : op. cit. p. 86

(٢) ابن عذاري : نفسه ج ٢ ص ١٢٧ — ١٢٩

(3) Lane - Poole : op. cit. pp. 98 — 101

(٤) Bernhard and Whishow : op. cit. pp. 82 — 3

(٥) ابن عذاري : البيان ج ٢ ص ١٣٨ — ١٤١ ، ابن الأبار : الحلة للسيارة

ص ٨٠ — ٨٧

وفي إشبيلية أضربت نيران فتنة من نوع جديد بين البيوت العربية بعضها والبعض الآخر ، والأمر الطامحة إلى السلطة ، وهي بيوت ثلاثة : بنو أبي عبدة ، وبنو حجاج وبنو خلدون ^(١) ، وكانت الرياسة في إشبيلية في بني أبي عبدة ، لكن بني خلدون رفعوا راية العصيان سنة ٨٨٩ م (٢٧٦ هـ) ، وتحالفوا مع المولدين والبربر ^(٢) ، بينما تحفز بنو حجاج في نفس الوقت للمشاركة في الفتنة أملاً في السلطان والجاه واندلعت معارك ضارية بين العرب ، فأرسل الأمير عبد الله حملة إلى المدينة سنة ٨٩٥ م (٢٨٢ هـ) ، قتلت بني الحجاج ^(٣) ، وقتلت منهم ومن بني خلدون عددا كبيرا ، حتى أذعنّت المدينة ، واشترك بنو خلدون وبنو حجاج في إمارة المدينة إلى أن انفرد بها والي من بني حجاج ، وأقره الأمير عبد الله في إمارته ، فهدأت الفتنة في المدينة في نهاية الأمر ^(٤) .

وأثار البربر فتنة أخرى في طليطلة ، وشاركوا في الفتنة في بطليوس ، وكانت طليطلة قد سقطت في يد بني ذي النون من زعماء البربر منذ أيام الأمير المنذر ، وتقلبت الأحوال بالمدينة بين نائر وآخر ، حتى انتهت إلى زعامة رجل من البربر المحليين يدعي ابن الطريشة — حلفاء بني ذي

(١) ابن خلدون : البربر ج ٧ ص ٣٨٠ — ٣٨١ ، ابن الأبار : نفسه ص ٩٦

(2) Lane - Poole : op. cit. p. 101 — 102

Bernhard and Whlshaw : op. cit. p. 83

(3) Bernhard and Whishaw : op. cit. p. 82, 85, pp. 90 — 7

(٤) ابن خلدون : البربر ج ٧ ص ٣٨١ وما بعدها ، ابن مغازي : البيان ج ٢

النون^(١) ، على حين حاز بنو ذى النون الجهات المجاورة لطليطلة إلى نهاية عهد الأمير عبد الله وأوائل عهد عبد الرحمن الناصر^(٢) . وشارك البربر في إثارة الفتنة في بطليوس وماردة أيضا ، وظلت هذه النواحي ترفع راية العصيان والبربر يعيثون فسادا فيها حتى أقر الأوضاع فيها عبد الرحمن الناصر^(٣) .

وتطلب الثغر الأعلى وبلاد نصارى الشمال جانبا من جهود عبد الله ، الذى استعان بأمراء النواحي الشمالية في محاربة نافار في بنبالونة ، وبرشلونة ، ونصارى الشمال ، ووفق ولاية الأمير وحلفائه في إنزال الهزائم بالنصارى في تلك المناطق واجتياح قلاعهم وحصونهم والعودة بكثير من الأسرى والمغانم^(٤) ؛ وفي أواخر أيامه اضطر الأمير عبد الله إلى الخروج بنفسه إلى النواحي الشمالية ، فخرب للنصارى حصونا عدة وسبي كثيرا منهم ، وهكذا ، استمرت جهود الأمير عبد الله لإقرار الأوضاع في الجهات الشمالية ، وإعادة نصارى الشمال إلى الموادعة ، وإجبارهم على الإخلاء للسكينة ، ونجح في ذلك كثيرا بنفسه أحيانا وبحلفائه من ولاية الشمال أحيانا أخرى^(٥) . وأخيرا توفي الأمير عبد الله في سنة ٩١٢ م

(1) Lane - Poplè : op. cit. p. 101

Léve - Provençal : op. cit. 1, pp. 340 — 3

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب — ج ٢ ص ١٤١ — ١٤٢

(٣) ابن عذارى : نفسه ج ٣ ص ١٤٠ ، ابن خلدون : العبرج ٤ ص ١٣٣ — ١٣٤ ،

Bernhard and Whishaw : op. cit p. 82

(٤) ابن عذارى : نفسه ج ٢ ص ١٤٨ — ١٤٩

(٥) ابن الأبار : الحلة السراء ص ٩١ — ٩٢

(٣٠٠ هـ) ، بعد حكم امتد نحو خمسة وعشرين عاما تقريبا ، اضطربت خلالها أحوال الإمارة وثارَت الفتن في كل جانب ، وقضى عهده في التصدي لكل هذه الخطوب (١) .

(١) : Lane + Peole : op. cit. , p. 107

. Levi r'Provençal : op. cit. I, p. 396

الفصل الرابع

عصر الخلافة الأموية في أسبانيا ٩١٢ - ٩٧٦ م

٣٠٠ - ٣٦٦ هـ

آلت الولاية بعد الأمير عبد الله بن محمد إلى حفيده عبد الرحمن الثالث (٩١٢ - ٩٦١ م = ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) وكان عبد الرحمن الثالث حين ولي الحكم في الثالثة والعشرين من عمره ، وحكم نحو خمسين سنة ، فكان من أطول الأمراء عهدا ، وعلى الرغم من أنه كان للأمير عبد الله أبناء كثيرون يصلحون للولاية ، الأمر الذي بدأ في ظله اختيار الحفيد عبد الرحمن شيئا غريبا ، إلا أنه يبدو أن الولاية لم تعد تغري أحدا من أبناء الأسرة أو تثير اهتمامه ، بعد أن ضربت البلاد في أطناب الفوضى ، واتصلت الفتن والثورات ، وغدت الإمارة غرما لا غنما ، فلهذا عافها أعمام هذا الشاب (١) ، فضلا عن أن عبد الرحمن تربى في كنف جده عبد الله بعد وفاة والده وهو صغير ، ونال رعاية جده الخاصة ، وأظهر نجابة وهمة جعلت الجميع يقر له بالولاية متوسمين فيه كل ما يؤهله لإدارة دفة الحكم بنجاح في تلك الفترة الحرجة في تاريخ الإمارة الأموية ، وهكذا تنازل أعمام هذا الشاب عن الولاية ، لابن أخيهم عبد الرحمن زاهدين فيها من ناحية وللمصلحة العليا من ناحية أخرى (٢).

ومن الغريب حقا أنه لم يكبد عبد الرحمن الثالث يلي الولاية ، حتى عادت

(١) للقرى : نفج الطيب ج ١ ص ٢٢٠

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٧٢

الوحدة من جديد إلى ربوع البلاد ، وعادت الأندلس إلى سابق عهدها عزيزة متحدة نى ظل بنى أمية ، فقد أثبت هذا الشاب أنه يتمتع بمزايا الحكام العظام فعلا ، الأمر الذى أرهص بانتشال الإمارة من الأوضاع السيئة التى تردت فيها (٢١) ، إذ بدأ عهده باصدار مرسوم عام ناشد فيه الثوار فى كل مكان طرح قائلخلاف والعودة إلى حدود الطاعة ، واعداء إياهم بالعود الجيلة من سلطان وجه ومال ، إن استجابوا لدعوته ، متوعدا المخالف بأشد أنواع التنكيل .
الاستجاب الكثيرون لهذا النداء ، وسارعوا بالدخول فى الطاعة (٢٢) ، لما أحدثته احروب الطويلة من ملل بين الناس من ناحية ، ولما ترتب عليها من كساد فى التجارة والزراعة والصناعة من ناحية أخرى ، ولم يكد يمضى من عهد عبد الرحمن سوى سنوات قليلة — حتى كانت الأندلس قد عادت إلى سابق وحدتها فى ظل بنى أمية (٢٣) .

ولم يخل الأمر أحيانا من قيام عبد الرحمن ببعض الحملات الداخلية لإقرار الأوضاع ، فشن فى السنوات الأولى حروبا ضارية على من لم يستجب لندائه من الثوار ، لاسيما زعماء البربر وابن حفصون — تائر الجنوب الشهير — وزعماء المولدين ، فأنزل بكل هؤلاء هزائم متوالية ، واستولى على كثير من القلاع والحصون ، وبذل جهودا مضنية لإخضاع الثورات المتأججة (٢٤) ،

(١) Lévi - Provençal : op. cit. II, p. 5

(٢) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢٢٠

(٣) انظر : العبادى : المرجع السابق ص ١٨٠ ،

Lewis : op. cit. p. 124

(4) Jackson : op. cit. p. 32

فأخضع إشبيلية وشذونة وقرمونة وبطليوس وباجة ، وساعدته الظروف بوفاة عمر بن حفصون سنة ٩١٨ م (٣٠٦ هـ) ، فترتب على ذلك هدماء الجنوب ، وجنى عبد الرحمن ثمرة كل ذلك (١) . كما نزل بالبلاد فى سنوات حكمه قحط شديد واحتباس للغيث وشدائد عظيمة كما تحدثنا المصادر المعاصرة ، مثلاً حدث سنة ٣٠٣ هـ (٩١٥ م) ، وسنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) وسنة ٣٢٤ هـ (٩٣٦ م) ، وسنة ٣٢٩ هـ (٩٤١ م) ، وتسببت هذه الشدائد والمحن فى ضيق الناس وحنقهم (٢) ، إلا أنه فى كل مرة كانت الشدة تزول ، وتنقشع الغمة ، وينزل الغيث فياضاً فتعود الأمور إلى سابق عهدها ، ويزول الكرب وتنقشع سحب الفاقة (٣) .

وكان أهم حدث فى السنوات الأولى لعهد عبد الرحمن الناصر ، هو تحول الإمارة الأموية إلى خلافة أموية فى الأندلس ، حين تلقب عبد الرحمن بالخلافة ، وأمر أن يدعى له فى الخطبة بلقب الخليفة ، وأن يكون خروج الكتب وردودها عليه بلقب أمير المؤمنين ، كما أمر : ثبات عبارة « الناصر لدين الله أمير المؤمنين » (٤) فى أعلامه وطرأه ودنانيره ودراهمه ، واستمر لقب الخلافة فى ذرية عبد الرحمن حتى زوال الدولة الأموية قرب نهاية الربع الأول من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . ويشير مؤرخ محدث إلى ذلك بقوله أن عبد الرحمن كان مدفوعاً بالحاجة الماسة لصبغ حكمه

(١) ابن خلدون : المبرج ٤ ص ١٢٨ — ١٤١

(٢) ابن هزاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٦٧ ، ص ١٩٩ ، ص ٢٢٦

(٣) ابن ممدارى : نفـه ج ٢ ص ٢٢٦

(٤) Lane - Poole : op. cit. p. 122

بالصبغة الألبانية من أجل استمالة واسترضاء رعاية المسلمين (١) . إذ تذكر الروايات أن الأندلسيين هم الذين طلبوا ن عبد الرحمن التلقب بلقب الخلافة وبايعوه على ذلك ، وخاطبوه باسم الخليفة حتى قبل أن يعلن هو ذلك رسميا ، وأصرروا على أن يحمل الإسمين : « أمير المؤمنين » و « الناصر لدين الله » ، وإذا لم يكن أسلاف عبد الرحمن قد اتخذوا اللقب بل اكتفوا بتسمية أنفسهم أبناء الخلافة ، اعتقادا منهم بأن الخلافة تكون لمن بيده الحرمين الشريفين (٢) ، فإن عبد الرحمن اعتقد أن ذلك كان حقا أضاعه بنو أمية ، وواجبا تبادوا في تركه : « إذ كل مدعو بهذا الإسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه منه ، وعلمنا أن التماذى على ترك الواجب لنا من ذلك حق لنا أضعناه واسم ثابت أسقطناه ... » (٣)

وسعد عبد الرحمن على ذلك ما كان جاريا من ضعف الخلافة العباسية في المشرق آنذاك ، وتحكم الأتراك فيها وعجزها في نفس الوقت عن حماية العالم الإسلامي (٤) ، وكذلك بروز الخلافة الفاطمية الشيعية في المغرب ، التي تطلعت إلى امتلاك الأندلس باعتباره مكانا طبيعيا مناسباً لامتداد سلطانه . ويبدو أن عبد الرحمن الناصر أراد بهذه الخطوة أن يرفع مكانة بني أمية في الأندلس (٥) ،

(١) Jackson : op. cit, p 32

(٢) السمودي : مروج الذهب ج ١ ص ٧٨ (بولاقي) ، ابن الأبار : الحلة السيرة ص ٩٩
ابن خلدون : المقدمة ص ١٩٠

(٣) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ١٩٨ ، العبادى : المرجع السابق ص ١٨١

(٤) اقوى : نوح العلي ج ١ ص ٣٣٠

(٥) Jackson : op. cit p. 41.

Lévi - Provençal : op. cit, II, p. 5

بعد أن ضعف مركز الأمير الأموي في الفترة السابقة ، واندلعت الثورات في كل مكان ، وغدت الحاجة ماسة إلى إضفاء الأهمية على منصب الأمير من الناحيتين السياسية والدينية ، وإكساب الحكم الأموي شرعية دينية تمكنه من الصمود في وجه المطامع الخارجية ، لاسيما من قبل الفاطميين الشيعة ، الذين عاصر قيام خلافتهم الشيعية في المغرب بداية عصر الخلافة الأموية السنية في الأندلس على عهد عبد الرحمن الناصر (١) .

ولقد شكلت العلاقة بين عبد الرحمن الناصر والفاطميين الخط البارز في سياسة الأمويين الخارجية في ذلك الوقت ، إذ أدى قيام الخلافة الفاطمية بالمغرب على قربها من الأندلس إلى إرهاب بصدام الأمويين في أسبانيا ، صراعا على مناطق النفوذ من جهة وصراعا مذهبيا بين السنة والشيعة من جهة أخرى (٢) ، لاسيما وأن الفاطميين لم يضيعوا الوقت بل بدأوا مبكرا بالتمهيد للغزو الأندلس ببعث الدعاية الشيعية فيها ، وإرسال المخبرين والجواسيس للاستطلاع أحوالها ومعرفة مناطق الضعف فيها توطئة للاستيلاء عليها (٣) ، وكان نجاح الفاطميين في تهئية الأذهان في الأندلس وجذب الأنصار محدودا للغاية ، ربما لقوة المذهب السني في البلاد من ناحية ولهدوء الأحوال في الأندلس في تلك الفترة من ناحية أخرى وعودة الوحدة إلى الأندلس في ظل بني أمية ، فلم يستطع الفاطميون جذب سوى ثائر الجنوب عمر بن حفصون الذي استقبل رسل الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي ودعاه وان لم يكن جادا في انضمامه إلى الفاطميين ، بقدر ما كان يهدف إلى اتخاذهم وسيلة لارهاب

(1) Lewis : op. cit. p. 124

(2) Lévi - Provençal : op. cit II, p. 74

(٣) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٣٣١

خليفة قرطبة واغاضته (١) . وتذكر الروايات أنه أعاد دعاة الفواطم إلى خليفةهم .
فى أواخر أيامه يحملون رداً لطيفاً وبعض الهدايا إشارة إلى أنه لم يكن مخلصاً
فى نواياه تجاههم . هذا فضلاً عن اجتذاب بعض الأنصار من الأندلس الذين
قروا للاحتواء بخلافة الفاطميين فى المغرب مثل القائد على بن حمدون الجذامى .
المعروف بابن الأندلسى (٢) ، والشاعر محمد بن هانىء الأندلسى ، الذى التحق .
بخدمة الخليفة المعز لدين الله الفاطمى .

وعلى الرغم من هذا النجاح المحدود للفواطم فى الأندلس فإن خطرهم
كان عظيماً على الحكم الأموى هناك ، نظراً لامتلاكهم قوة بحرية هائلة على
سواحل المغرب وفى صقلية ، آلت إليهم من الأغلبية ، الذين روعوا سواحل
أوروبا الجنوبية فى القرن التاسع الميلادى (الثنائى الهجرى) (٣) . ولم يكتف
الفاطميون بذلك ، بل زادوا فى القوة البحرية وطوروها ، وبني الخليفة المهدي .
دار صناعة فى المهدية كانت آية فى القوة والعظمة ، ولهذا كان خطر
الفاطميين عظيماً على بني أمية فى الأندلس (٤) . غير أن هؤلاء جسدوا فى
مقاومة أطماع الفواطم وعملوا من جانبهم على استطلاع الأخبار وإرسال المخبرين .
والجواسيس فى أنحاء المغرب يوافونهم بما يستجد هناك معتمدين على وجود
جاليات أندلسية على طول ساحل المغرب من ناحية وعلى كراهية هؤلاء .

(1) Lane - Poole : op. cit. p. 110

Bernhard and Whishaw : op. cit. p. 77

(٢) ابن هنادى : البيان ج ٢ ص ٢٠٩ ، ص ٢٣٠

(3) Lévi - Provençal : op. cit. II, p. 80 .

Lewis : op. cit. p. 118

(٤) ابن هنادى : البيان ج ١ ص ١٧٤ ، القرطبي : إتحاف الخفا ص ٩٣ — ٩٧ .

المذهب الشيعي وشدة تمسكهم بالمذهب السني من ناحية أخرى^(١)، كما جدوا أيضا في تقوية الأسطول البحري الأندلسي لمقاومة أطماع الف واطم ، وبذل عبد الرحمن الناصر جهودا مضنية في سبيل حراسة سواحل الأندلس، وحشد أعدادا كبيرة من السفن في موانيه الهامة ، وجهازها بالعتاد والجنود المدربين ، وأعطى أهمية خاصة لمضيق جبل طارق لمنع نفاذ السفن الفاطمية إلى سواحل الأندلس لمساعدة الثائر ابن حفصون في الجنوب^(٢) . وترجع عظمة عبد الرحمن الناصر في ذلك أن جهوده هذه كانت في السنوات الأولى لولايته ، إذ أشرف بنفسه على تحصين سواحل بلاده وتغوره الجنوبية المواجهة للمغرب ، فذهب إليها سنة ٩١٤ م (٣٠٢ هـ) ، وأشرف بنفسه على تحصين طريف والجزيرة الخضراء^(٣) ، بل إنه احتل بعض موانئ المغرب المطلة على مضيق جبل طارق لأهميتها مثل مليلة سنة ٩٢٧ م (٣١٤ هـ) ، ومدينة سبتة التي احتلها سنة ٩٣١ م (٣١٩ هـ)^(٤) ، وحشد فيها الرجال والعتاد ، وبنى لها سورا قويا ، كما احتل طنجة وأقام فيها تحصينات قوية^(٥) ، وسيطر عبد الرحمن الناصر بذلك على الملاح في مضيق جبل طارق ، وأعطى نفسه فرصة التدخل في شؤون

(١) ابن عذاري : نفسه ج ١ ص ٢١٢ ، ص ٢١٨ .

البكري : كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٥ ، ص ٦٥ ، ص ٨٢ .

(٢) ابن عذاري : البيان ج ٢ ص ٢٠٤ ،

Bernhard and Whishaw : op. cit. pp. 114 — 115

(٣) المفري : فتح الطيب ج ١ ص ٣٤٨

(٤) ابن عذاري : البيان ج ٢ ص ١٩١ ، ص ٢٠٤ ، البكري : نفسه ص ٨٩ ،

ص ١٠٤

(٥) السلاوي : الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى ج ١ ص ٨٥

Lévi - Provençal : op. cit, II, pp. 86 — 97

المغرب ، وإثارة قبائل البربر ضد دولة الفواطم هناك (١) ، ومحالفة الدويلات الصغيرة التي كانت قائمة في بلاد المغرب مثل الأدارسة الذين انحصر نفوذهم كثيرا في المناطق الجبلية بعد الغزو الفاطمي ، ومثل إمارة نكور أد بنى صالح بمنطقة الريف كما حارل عبد الرحمن الناصر إثارة القبائل البربرية في بلاد المغرب مثل قبيلة زناته التي عمل على تحريضها ودفعها لمحاربة صنهاجة حامية الفاطميين (٢) ، وأيد ثائرا هاما ضد الفاطميين من قبيلة زناته هو أبو يزيد محمد بن كيداد الزناتي الخارجي الذي قاد ثورة في تونس والجزائر ضد الفاطميين ، وبذل الطاعة للخليفة عبد الرحمن الناصر ودعا له سنة ٩٤٤ م . (٣٣٣ هـ) ، فأمدّه الخليفة بالتأييد والمساعدة المالية والعسكرية ، واستمرت هذه الثورة نحو أربع سنوات ضد الفاطميين ولكنها انتهت بالفشل وبمقتل قائدها سنة ٩٤٨ م (٣٣٦ هـ) (٣) ، وعول عبد الرحمن على إقامة اقتصاد متين في بلاده ، وإنماء موارد دولته التي استمرت في الازدهار في هذا العصر ، على الرغم من عداوة الفاطميين والمسيحيين ، ولم يحل هذا العداء دون احتلال الإمارة لمكانتها المرموقة اقتصاديا وسياسيا وعسكريا (٤) ، إذا أخذنا في الاعتبار حجم السفارات المتبادلة بين الدولة الأموية وغيرها من القوى المعاصرة ، وكذلك سمو المكانة التي احتلتها عملة قرطبة في عالم الاقتصاد والتجارة في ذلك الوقت (٥) .

(1) Lane - Poole : op. cit. p. 116

(٢) العبادي : المرجع السابق ص ٢٠٣ ، ابن خلدون : العبرج ٤ ص ١٤١ - ١٤٦ .

(٣) ابن هزاري : البيان ج ٢ ص ٢١٢

(4) Bernhard and Whishaw : op cit. p. 129

(5) Jackson : op. cit. p. 41

كما عمل عبد الرحمن الناصر على التحالف مع أعداء الدولة الفاطمية في الشرق وفي الغرب على حد سواء فتحالف مع ملك إيطاليا هيج البروفانسي ، الحانق على الفاطميين بسبب تخريبهم لميناء جنوه الإيطالي والراغب في الانتقام منهم لذلك ، كما تحالف مع إمبراطور بيزنطة قنسطنطين السابع المتطلع لاستعادة جزيرة صقلية من الفاطميين (١) ، واستقبل عبد الرحمن الناصر سفارة بيزنطة بترحاب كبير سنة ٩٤٥ م (٣٣٨ هـ) ، وفي سنة ٩٤٩ م (٣٤٢ هـ) بعث الناصر سفارة أندلسية إلى القسطنطينية سنة ٩٤٦ م ، وتشير المصادر البيزنطية إلى أن السر في تبادل هذه السفارات وتحمس بيزنطة لها ، إنما يرجع إلى أن قنسطنطين فكر وقتذاك في إعداد حملة كبيرة ضد جزيرة كريت ، فأراد بهذه السفارة إما أن يحصل على مساعدة الخليفة الأموي أو على الأقل يضمن حياده (٢) ، ومن ناحية الخليفة عبد الرحمن كان يحاول إقامة محور سياسي مع بيزنطة ضد الفاطميين . وتشير المصادر الإسلامية المعاصرة إلى أن بلاط القسطنطينية هو الذي سعى إلى هذه الصداقة وإلى توثيق الروابط الودية مع بلاط قرطبة (٣) . كما رطد عبد الرحمن الناصر علاقته بحكام مصر الإخشيديين وعمل على محاربة الدعاية الشيعية هناك وأرسل مبلغا من المال من أجل ذلك .

ولقد تطورت الأمور بين الفواطم وبنى أمية في الأندلس إلى حد الحرب السافرة ، وبدأت هذه المرحلة حين أسرت سفن الأندلس مركبا مرسلًا من صقلية إلى المغرب كان فيه رسول من صقلية إلى الخليفة الفاطمي المعز لدين

(1) Camb. Med. Hist. IV. p. 66

(2) Rambaud : Histoire de l'Empire Grec. p. 407

Camb. Med. Hist. V. IV, p. 66

(٣) المقرئ : نفج الطيب ج ١ ص ٣٤١ ، ابن خلدون : العبرج ٤ ص ٤٢٢ .

الله ، وكتبوا إلى المعز واستولى الأندلسيون على ما في ذلك المركب ، ورجح المؤرخون المحدثون أن هذا الرسول والكتب لها علفة بإعداد مشروع مشترك للهجوم على الأندلس (١) ، ولهذا لم يترد الأندلسيون في الاستيلاء عليه لخطورة ما يحمله . وحين بلغ هذا النبأ الخليفة المعز لدين الله الفاطمي أعد أسطولا كبيرا وبعث به إلى الأندلس ، فهاجم ثغر المرية ، وأحرق جميع ما فيها من السفن وأخذ السفينة التي أسرت مركب الفاطميين وأهل صقلية (٢) ، واستولوا على ما فيه من متاع يخص الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وأحدثوا الخراب والدمار في ثغر المرية ، وقتلوا ونهبوا ثم عادوا إلى قاعدتهم في شمال إفريقيا (٣) ، ورد الخليفة الناصر على ذلك بتجهيز أسطول للإغارة على سواحل المغرب سنة ٩٥٥ م (٣٤٤ هـ) وإن لم يوفق أسطوله كل التوفيق في هذه الإغارة ، فإنه عاد في العام التالي في نحو سبعين سفينة فخر ، وأضرم النار في قاعدة بحرية هامة للقواطم في الغرب هي مدينة الخرز Marsa L-Kharaz (٤) ، كما أحدث الخراب والدمار بمنطقة سوسة وطبرقة شرقي بنزرت ، وعاد سالما إلى قواعده في الأندلس ، واستمرت الاشتباكات العسكرية بين الجانبين في البحر دون توقف فيما تلا من سنين (٥) .

(١) ابن هزاري : البيان ج ٢ ص ٢٢١

(2) Barnhard and Whishaw : op. cit. p. 129

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١١٩ ، ابن هزاري : البيان ج ٢ ص ٢١٩ —

٢٢٠ وما بعدها

ابن خلدون : الديبر ج ٤ ص ١٢٨ ، ١٢١

(4) Lévi - Provençal : op. cit. II, p. 108

(٥) البكري : نفسه من ٥٥ ، ابن هزاري : نفسه ج ٢ ص ٢٢٠ — ٢٢١

المعادي : المرجع السابق ص ٢٠٧

وكان الخطر الثاني الذى هدد عبد الرحمن الناصر هو خطر المسيحيين
الأسبان فى الشمال لاسيما من قبل مملكة ليون فى المنطقة الشمالية الغربية ، التى
كانت قد أقامت على حدودها الجنوبية والغربية المتاخمة للمسلمين سلسلة من
القلاع والحصون Castellas لحماية تلك الحدود (١) ، فاتحدت فى القرن الرابع
الهجرى (العاشر الميلادى) ، فى إمارة واحدة عرفت باسم Castilla ،
الذى عربيه المسلمون إلى قشتالة أى القلاع . هذا بالإضافة إلى خطر نافار
(نبرة) وقاعدتها بنبلونة وهى التى تحكمت فى المعابر الجبلية بين أسبانيا وأوربا .
وغدت هذه الممالك المسيحية خطرا يهدد المسلمين فى أسبانيا لاسيما وأن
حدودها الشمالية كانت ملاصقة لأوربا (٢) ، وعلى اتصال بفرنسا والبابوية
والعالم المسيحى فى الغرب ، الأمر الذى أمدها بقوى روحية ومادية هائلة فى
صراعها مع المسلمين . ولقد تشكل حلف مسيحي من ملك نافار وملك ليون ،
واستطاع أن يستغل انقسامات المسلمين على أنفسهم فى الفترة السابقة لعهد
عبد الرحمن ، ليستولى المسيحيون على بعض المدن الإسلامية والأراضى المتاخمة ،
ويعمدون نفوذهم إلى السهول المجاورة سنة ٩١٦ م (٣٠٥ هـ) (٣) ، بل تجرأ هذان
الملكان وهاجما قاعدة الثغر الأعلى للمسلمين مدينة سرقسطة .

قرر عبد الرحمن عندئذ الخروج بنفسه على رأس جيوشه لخوض الحرب ،
وفعلا اشتبك معهما فى معارك ضارية طويلة ، ونجح فى إلحاق الهزائم بهما ،
واستعاد كثيرا من المدن والأراضى منهما سنة ٩٢٠ م (٣٠٨ هـ) وأعادها إلى

(1) El - Hajji : op. cit. pp. 44 — 5

(2) Lévi - Provençal : op. cit. 1, p. 128

(٣) ابن هنادى : البيان المغرب ج ٢ ص ١٧١

حجمهما في هذه الآونة (١). غير أن مملكة ليون استمرت في عنادها ، وظلت تتحين الفرص مع حليفتها مملكة نافار (نبرة) للمجـوم على المسلمين ، واضطر عبد الرحمن إلى الخروج مرة ثانية إلى الشمال على رأس جيش كبير من العرب والبربر والصقالية (٢) الذين كثر عددهم في الجيش الأندلسي ، وحازوا مكانة خاصة لدى الخليفة الأموي - وسلم عبد الرحمن القيادة لمملوكه نجدة الصقلي ، وحينما إشتبك الجيش الأموي مع الأسبان ، وقعت الهزيمة على المسلمين سنة ٩٣٩ م (٣٢٧ هـ) في وقعة الخندق (٣) ، ويرجح بعض المؤرخين أن السبب في ذلك هو حقد العرب على أولئك الصقالية الذين حازوا مكانة هامة لدى عبد الرحمن ، فصمم العرب على ترك الصقالية وحدهم في المعركة الأمر الذي أدى إلى هزيمة المسلمين ، ومقتل القائد الصقالي وفرار عبد الرحمن نفسه في عدد قليل من أصحابه (٤) ، ولم يحاول النصاري أن يطاردوا فلول .

(١) Bozy : Hist. des Musulmans d'Espagne. 11, pp 144 — 5

ابن هذاري : نفسه ج ٢ ص ١٨٧ ، س ١٩٥ — ٢٠١

(٢) Lévi - Provençal : op. cit. 11, pp. 122 — 9

(٣) اقرأ تفصيلات عنها في : ابن الأثير : الحلة السيرة ص ١٥٠ ، ابن حلدون :

الدرج ٤ ص ١٧٧ — ١٤٠

المسعودي : مروج الذهب ج ١ ص ٧٨ (بولاق) ، المقرئ : نفع الطيب ج ١

ص ٣٣٢

ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٣٦ — ٣٧

Dozy : Recherches sur L'Hist. et la Littérature de L'Espagne,

1, pp. 156 — 70 (3. Ed.)

(٤) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٧١ ، س ٢٦٥

(5) Dozy : Hist. des Musulmans d'Espagne. 11, 155 — 6

وانظر العبادي : المرجع السابق ص ٢١٠ .

الجيش الإسلامي خوفا من الكائن ، ورغبة في الاستيلاء على المغانم والأسلاب . الضخمة ، ولولا ذلك لفنى الجيش الإسلامي بأسره (١) ، وصمم عبد الرحمن على الفتك بكل من تسبب في هذه الهزيمة ، ولم يكد يصل إلى قرطبة حتى أمر بصلب نحو ثلاثمائة من الفرسان (٢) ، ولم يكن لهذه الهزيمة أثر كبير في موقف عبد الرحمن الذي سارع بجمع الشمل والعودة إلى الحرب ضد الأسبان ، فتجسج في إنزال هزائم متوالية بهم وانتقم لما حدث له في الخندق قبل ذلك ، وفرض نفوذه على كل الجهات ، بل تدخل في شؤون الممالك المسيحية الأسبانية ذاتها . وأصبحت كلمته نافذة فيها (٣) .

وعلى عهد عبد الرحمن الناصر واجهت الأندلس من جديد الخطر النورماندي ، ولكنه في هذه المرة جاء خطرا بحريا بريا في آن واحد ، إذ هدد النورمان سواحل الأندلس بحملاتهم البحرية ، وفي نفس الوقت كانوا يعبرون جنوب فرنسا لمهاجمة الأندلس برا ، وذلك بعد أن نجحوا في تأسيس دوقية نورمانديا في شمال غرب فرنسا وجعلوها نقطة انطلاق لتهديد المناطق المجاورة (٤) ، وكان تأسيس هذه الدوقية في نفس الوقت الذي تولى فيه عبد الرحمن الناصر الحكم في الأندلس ، ويفهم مما أوردته بعض المصادر المعاصرة ، أن خطر النورمان تفاسق على الأندلس في ذلك الوقت ، وأنهم

(١) المقرئ : تقع الطبعة ١ ص ٢٢٢

ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١١٥

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٧

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥٧

(٤) Haskins : op cit p. 45

هاجوا ثغر سرقسطة ، أكثر من مرة على عهد عبد الرحمن الناصر^(١) ، وإن كان خطرهم لم يتفاقم إلا بعد ذلك بكثير .

ولم تشغل هذه المهام الكبيرة عبد الرحمن عن الاهتمام بسياسته الداخلية أو الالتفات إلى أحوال البلاد داخليا ، فقد شيد العمار ونظم الإمارة وصرف جانباً كبيراً من همته للقيام بمشروعات داخلية كبيرة ، فأنشأ الزهراء وأقام فيها وفي قرطبة القصور والجوامع والدور والمحلات ، ومصانع الأسلحة وغير ذلك ، وبلغت البلاد في عهده شأواً بعيداً في الرقي والعظمة والفخامة والرفاهية^(٢) ، ونظم الأسطول والجيش واهتم بالشئون المالية والاقتصادية ، واستكثر من الرقيق الصقلية والخدم والحشم ، وذكر بعض الرحالة أن الناصر كان أغنى ملوك عصره^(٣) ، واستقبل سفراء الملوك والباطرة وبالغ في إظهار الحفاوة بهم وإطلاعهم على عظمة الأندلس سياسياً وحضارياً وفكرياً^(٤) ، وأخيراً توفي عبد الرحمن الناصر بعد عصر حافل وعمر مديد ناهز الحادية والسبعين من عمره بعد حكم امتد قرابة خمسين عاماً ، ودل عبد الرحمن على بعد نظر وحصافة ترتب عليها أن تجنببت الإمارة في عهده الثورات الداخلية

(١) المذرى : ترصيع الأخبار ص ٧٢ — ٧٣ .

(٢) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٧٨ ، ابن مغازي : البيان ج ١ ص ٢٢٣

— ٢٢٢ —

المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢٣١ ، ابن خلدون : المبرج ٤ ص ١٤٤

ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٣٨

Levi-Provençal ; op. cit. ll. p. 130

(٣) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٧٧

(٤) ابن خلدون : المبرج ٤ ص ١٤٣ ، ابن مغازي : البيان ج ٢ ص ٢١٢ — ٢١٥

واندلاع الفتن والأحقاد ، كما اهتم بإكساب ابنه وولى عهده مهارة في الشؤون السياسية والإدارية كان لها فضل في استمرار الحكم الأموي بأسبانيا رغم المصاعب الجمة وكوامن الانقصال (١) .

تولى الحكم الثاني الملقب بالمستنصر بالله الخلافة الأموية بعد والده سنة ٩٦١ م (٣٥٠ هـ) ، وكان في الثامنة والأربعين من عمره (٢) ، كما كان على دراية بشئون الحكم خبيراً بالسياسة ، نظراً لسابق اشتراكه مع والده في تدبير شئون الدولة من قبل ، فضلاً عن أن والده كان قد عهد إليه بالإشراف على بناء الزهراء — ذائعة الصيت — فتجج في هذه المهمة أيما نجاح ، وفضلاً عن ذلك كان الحكم الثاني مولعاً بالقراءة منصرفاً إلى تحصيل العلوم ، مغرماً بكل ما هو جديد في عالم الكتب ، معنياً بمحاذاة كل ما يؤلف فيها في الشرق وفي الغرب على حد سواء (٣) ، حتى تكونت في الفصر الملكي بالزهراء مكتبة كبيرة ، حوت نحو أربعائة ألف مجلد ، في شتى الننون والعلوم ، ورعى الحكم الثاني العلماء المبرزين في كل فرع من العلوم وأغدق عليهم وبالغ في إكرامهم ، وجذب الكثير منهم إلى بلاطه ، وأحاط نفسه بالعلماء والشعراء والأدباء ، وحرص على شباستهم وتشجيعهم (٤) .

ولقد واجه الحكم الثاني نفس المشاكل والصعاب التي واجهت والده .

(١) Jackson : op. cit, p. 42 .

(٢) ابن الخطيب : الاطاعة في أخبار غرناطة ج ١ ص ٤٨٧ (القاهرة ١٩٥٦) ، ابن الأبار : نفسه ص ٣١

(٣) Lewis : op. cit. p. 125

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٤١ ، المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢٦١ — ٢٦٢ — ابن خلدون : البرج ٤ ص ١٤٦

تعبد الرجن الناصر وكانت سياسته الخارجية امتدادا لسياسة والده ، لاسيما تجاه الفواطم ومن والاهم في المغرب ، وتجاه الممالك المسيحية الأسبانية في الشمال (١) ، فعلى الرغم من أن الفاطميين جدوا في ذلك الوقت في فتح مصر للانتقال إليها ، وإخلاء الميدان في المغرب أمام تحفز البربر وثوراتهم من ناحية ، وغارات الأمويين ودسائسهم من ناحية أخرى ، فضلا عن اقتناعهم باستحالة غزو الأندلس أو الخلاص من تدخل الأمويين في المغرب (٢) ، إلا أن الحكم أولى سياسته تجاه الفواطم أهمية خاصة ، وحرص على تحصين ثغوره في الجبهة الشرقية والجنوبية المواجهة للدولة الفاطمية والمعرضة لهجماتهم من إفريقية (٣) ، فأشرف بنفسه على تحصينات المرية سنة ٩٦٤ م (٣٥٣ هـ) ، وتفقده بنفسه أحوال المجاهدين في هذه الثغور ، مدى استعداد المجاهدين فيها لصد أى هجوم من جهة الفاطميين . وكانت المرية قاعدة هامة للأسطول الأندلسي ، بل أعظم القواعد على الإطلاق ، وبلغ عدد السفن التي ترسو بها نحو ثلاثمائة سفينة وقطعة بحرية مجهزة للقتال (٤) .

وبانتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر اعتبارا من سنة ٩٧٣ م (٣٦٢ هـ) ، بعد فتحها ، خفت إلى حد ما حدة العداء بينهم وبين الأمويين في الأندلس ، لأن الفاطميين تركوا الدولة الزيرية الصنهاجية تحاول جاهدة الحفاظ على نفوذها في القسم الشرقي من المغرب في ظل التبعية للفاطميين ، بينما سيطرت

(١) Bernhard and Whishaw : op, cit p. 155

(٢) Lévi - Provençal ; op. cit. 11, pp 185 — 6

(٣) ابن هذا : الديار ج ٢ س ٤ ، ابن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٢٨٦ (١٩٥٦)

(٤) ابن عداري : نفوس ج ٢ ص ٢٠٤ ،

ابن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٤٨٦

القبيلة الأخرى المنافسة زناته على القسم الغربي حتى طنجة في ظل تحالف مع بني أمية في الأندلس (١). وأخذ كل من الفاطميين في مصر والأمويين في الأندلس يلعب دوره من وراء ستار ، ولكن هذه الأحداث أدت إلى نوع من توازن القوى بين الخلافتين ، وقل خطر الشيعة على المغرب الأقصى والأندلس وتنفست الخلافه الأموية حينئذ الصعداء (٢).

ويبدو أن انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر قد أدى إلى شعور زعماء زناته في المغرب الأقصى وبقايا الأدراسة هناك بنوع من الراحة ، فطمع هؤلاء في الخلاص من سيطرة بني أمية في الأندلس وممارسة السلطة في استقلال تام في غيبة التهديد الفاطمي ، غير أن هذه السياسة لم تعجب الحكم المستنصر ، الذي كان ماضيا في تأمين بلاده باحتلال المراكز الهامة المطلة على المضيق (٣) تحسبا لدرء أي خطر من جهة المغرب أو الفاطميين وكان معنيا بتأكيد وجوده في سبته وطنجة ومليلة ، ولما تجرأ الأدراسة ورفعوا راية العصيان ، وخلصوا طاعة بني أمية تحت زعامة الحسن بن جنون (كنون) ، ومدوا نفوذهم إلى طنجة وبعض النواحي الأخرى ، لم يتردد الحكم في إرسال أساطيله وجيوشه عبر المضيق لإعادة الأوضاع إلى سابق عهدها ، ونزلت جيوش الأندلس سنة ٣٦١ هـ بسبته ثم ما لبثت أن هاجمت طنجة ، وأجبرت زعيم الأدراسة الحسن بن جنون على الفرار ، وتم لجيوش الحكم دخول المدينة في صيف سنة ٩٧٢ م (٤) ، وإذا كان الأدراسة قد عادوا وجمعوا

(1) Chejne : Muslim Spain, its Hist. and Culture, p. 37.

(Minneapolis 1973)

(2) Lévi - provençal ; op. cit II, p. 189

(3) Ibid, p. 188

(4) Ibid, p. 191

شملهم وهاجموا جيوش الأندلس على غرة قرب طنجة وأنزلوا بها الهزيمة فان ذلك قد أوغر صدر الحكم الذي صمم على الثأر منهم واستعادة سلطته كادته في المغرب ، فبعث بجيوش أخرى يقودها وزيره وقائده غالب بن عبد الرحمن (١) الذي عبر المضيق إلى طنجة ، واجتمعت معه أساطيل الأندلس للمعاونة وراح غالب يبتلع معاقل الأدارسة ، ثم حاصر الحصن الذي لاذ به الحسن بن جنون وشدد الحصار عليه حتى اضطر الحسن إلى الاستسلام ، وطلب الأمان فأجيب إلى طلبه ، دخل غالب ومن معه الحصن ، وذلك في مارس ٩٧٣ م (٣٦٣ هـ) ، ودعا فيه للخليفة الحكم المستنصر (٢) . وهكذا تابع الخليفة الحكم سياسته الرامية إلى السيطرة على مضيق جبل طارق ، ومنع أى تآثر من انتقاص سيادته في هذا الجزء ، لأنه فيما يبدو كان لا يزال يعتقد في وجوب الخطر الفاطمي من هذه الجهات .

أما بالنسبة لسياسة الحكم تجاه الدول المسيحية الأسبانية ، فانها كانت أيضا امتدادا لسياسة والده عبد الرحمن ، فحينما نقضت ليون شروط الصلح المبرم بينها وبين عبد الرحمن الناصر ، واعتقد ملكها أن الخليفة الجديد رجل علم وفلسفة لا دراية له بالحرب ، ولا يهتم بها — تحالف مع ملكة نبرة (نافار) ، كما تحالف مع مارة قشتالة التي كانت لا تزال حديثة عهد (٤) ،

(١) ابن خلدون : البرج ٦ ص ٢١٨

(٢) ابن هزاري : البيان ج ٢ ص ٢٤٧ — ٢٤٨ ، السلاوي : الاستقما ج ١

ص ٨٦ — ٨٨

(٣) المقرئ : تاريخ الطب ج ١ ص ٢٦١

(٤) ابن خلدون : البرج ٤ ص ١٤٤ — ١٤٥ ، ابن الخطيب : أعمال الأفعال

ص ٢٧٥

فلم يكن أمام الحكم المستنصر إلا أن يعيد هذه الممالك إلى جادة الصواب ،
ولهذا بادر بإرسال جيوشه إلى الشمال ، حيث اجتاحت الممالك الثلاث ، واستولت
على بعض الحصون (١) ، ولا سيما الحصون التي كانت مثار تنازع منذ عهد
عبد الرحمن . وهكذا أثبت الحكم المستنصر أن همته لا تقل عن همة والده
تجاه هذه الممالك المسيحية (٢) .

وواجه الحكم الثاني أيضا خطر النورمان من فرنسا بعد أن استقروا في
دوقيتهم الجديدة في شمال غرب فرنسا (نورمانديا) ، فإذا لم يكن خطرهم
قد تفاقم على عهد والده عبد الرحمن الناصر ، فمنهم عادوا في هذه الآونة لتهديد
الأندلس عبر سواحلها الغربية وحدودها الشمالية (٣) ، غير أن الحكم احتاط
لذلك بفتح الجواسيس والخبرين في جهات شتى في الشمال والشمال الغربي بإوافرنج
بتحركات المجوس (النورمان) ، ويحذرونه عند تقدمهم لتهديد سواحل
الأندلس ، فكانت الأخبار تصله أولا بأول ، كما أمر الحكم بصنع مراكب
على هيئة مراكب النورمان ، ووضعها في نهر الوادي الكبير استعدادا للقائهم
بها على نفس طريقةهم ، وطبقا لأسلوبهم في الحرب (٤) . كذلك أهتم كثيرًا
بإرسال الصوائف البحرية والتربة التي تجوب سواحل الأندلس في صيف كل
عام ، وتتجول برا في الجهات المعرضة لهجومهم ووضع على رأس هذه
الحملات خير قادته وبرز مقاتليه ، وجاءت أولى الهجمات النورمانية

(١) ابن عذاري : البيان ج ٢ ص ٢٣٨ ، ابن خلدون : البرج ٤ ص ١٤٤ .

(2) Lane - poole : op cit. pp. 152 — 5

(3) Haskins ; cp. cit p 45

(٤) ابن عذاري : البيان ج ٢ ص ٢٣٩

على سواحل الأندلس الغربية سنة ٩٦٦ م (٣٥٥ هـ) ، على عهد الحكم الثاني حيث هاجموا سهول لشبونة وجنوب البرتغال الحالية ، ودارت معركة برية هامة في سهول لشبونة ، استشهد فيها من المسلمين عدد كبير (١) ، وقتل مثلهم من النورمان وما لبثت السفن النورمانية أن انسحبت حاملة معها بعض الأسرى (٢) ، غير أن الأسطول الأندلسي ما لبث أن فاجأها وحطم الكثير منها ، واستخلص الأسرى منهم (٣) ، وتشير المصادر المعاصرة إلى أن هذه الغارة قامت بها ثمانية وعشرين سفينة نورمانية تحمل أكثر من ألفي محارب نورماني قتل أكثرهم ولاذ القليل منهم بالفرار (٤) ، غير أن النورمان ما لبثوا أن عادوا لمهاجمة الأندلس مرتين بعد ذلك في سنة ٩٧١ (٣٦٠ هـ) ، وفي السنة التالية لها ، غير أنهم في المرتين لم يستطيعوا النزول على السواحل الأندلسية ليقظة الأسطول الأندلسي الذي تصدى لهم وبدد شملهم ، وأجبرهم على الارتداد (٥) .

غير أن الخليفة الحكم المستنصر ما لبث أن أصيب بالفالج في أواخر أيامه ، فاقعده المرض عن ممارسة السلطة ، كما ينبغي فاستأثر بها الوزراء والحاشية والنساء ، واضطريت شئون الدولة إلى حد ما ، وما لبث الحكم أن جاز إلى

(1) Schmitz : Enc Isl art " Al - Hakam "

(2) El - Hajji : And. Dip. Rel. p. 162

(٣) ابن هذاري : البيان ج ١ ص ٢٢٩

(٤) المقرئ : فتح الطب ج ١ ص ٢٦٠

(٥) ابن هذاري : البيان ج ١ ص ٢٢٩ ،

ربه سنة ٩٧٦ م (٣٦٦ هـ) (١)، بعد أن حكم نحو خمسة عشر عاماً ، تاركاً
طفلاً صغيراً دون العاشرة هو هشام المؤيد ، الأمر الذي تسبب في فترة
ضعف واضح ، لتبدأ مرحلة جديدة في عمر الخلافة الأموية
في أسبانيا (٢) .

« (١) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٣٧٢ ، ابن الأثير : الحجة السيرة ص ١٠١
ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٥٦

(2) Schmitz : op. cit, " Al - Hakam "

البَابُ الثالث

الاشتباكات العسكرية بين الفرنجة والأمويين

الفصل الخامس : الاشتباكات بين الجانبين على المستوى الرسمي

الفصل السادس : الاشتباكات بينهما على المستوى الشعبي

الفصل الخامس

الاشتباكات بين الفرنجة والأمويين على المستوى الرسمي

كان لوقعة تور — بواتيه أو بلاط الشهداء سنة ٧٣٢ م (٨١١٤) ، بين الفرنجة بقيادة شارل، مارتل والمسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقي ، وما حدث من هزيمة المسلمين فيها ، أثر في ارتداد المسلمين إلى ما وراء البرنيه وضعف النفوذ الإسلامي إلى حد كبير والتواجد الإسلامي في جنوب فرنسا (١) . حقيقة عاد المسلمون مرات إلى الغزو في جنوب فرنسا ، واجتياح المناطق الواقعة على الناحية الأخرى من جبال البرنيه (البرتات) ، إلا أن هذه العودة كانت موقوتة ، وكان أثرها باهتا في إمكان تثبيت أقدام المسلمين في تلك الجهات ، ومتابعة نشاطهم فيها (٢) ، كما كان من نتائج هذه الواقعة أيضا أن تبنت دولة الفرنجة على عهد يبين القصير سياسة جديدة ترمي إلى تعضيد روح الثورة والفتنة في أسبانيا المسلمة ذاتها، توطئة للانقضاض عليها لطرد المسلمين منها ، بعد أن انهارت سيادتهم في جنوب فرنسا، وأصبح في الإمكان إحداث ذلك أيضا في أسبانيا (٣) .

وكان المسيحيون في سبتانيا قد وثبوا تحت قيادة قوطي يسمى انسمندس Ancemundus وبمساعدة الجيش الفرنجي على الهرب في سبتانيا وطردهم من أهم مدنها سنة ٧٥٢ م أي في السنوات القليلة قبل وصول عبد الرحمن الداخل

(1) Camb. Med Hist. V. fl, pp. 129 — 130

(2) Scott : Hist. of Moorish Empire in Europe, 1, p. 309

(3) Oman : op. cit p, 295

إلى الأندلس ، واستعاد الفرنجة مدن نيم وآجد وبيزلى وماجلوت ، وفرضوا الحصار أيضا على أربونة ، وصمدت المدينة لحصاتها ، ونجح المسلمون خلال الحصار فى قتل القسائد القوطى ، وطال حصار المدينة نظرا لانشغال يبين القصير فى إخماد بعض الثورات فى بلاده (١) . وكان أول عمل قام به عبد الرحمن الداخل بعد استتباب الأمر له عام ٧٥٨ م (١٤٠ هـ) ، أن حاول فك حصار أربونة ، فأرسل فرقة من جيشه لذلك ، ولكنها فشلت فى إخراج المدينة من تحتها ، وقضى مسيحيوها جبال البرنية على هذه الفرقة ، وأعقب ذلك تأمر المسيحيين من أهل المدينة مع يبين القصير لتكينه من دخول المدينة ، وتمت المؤامرة ودخل الفرنجة مدينة أربونة ، بعد أن أجهز المسيحيون على الحامية الإسلامية فيها سنة ٧٥٩ م ، وفقد المسلمون هذه المدينة بعد أن خضعت للحكم الإسلامى نحو أربعين عاما ، وأنعش هذا الفتح مملكة الفرنجة على عهد يبين القصير ، واعتبرت جبال البرنية الحدود الطبيعية لبلادها (٢) .

ولقد تابع شارلمان ، الذى عاصر عهود ثلاثة من الأمراء الأمويين فى أسبانيا هم : عبد الرحمن الداخل وابنه هشام وحفيده الحكم الربضى ، تابع سياسة والده يبين القصير من قبل الرامية إلى تأييد الثوار فى أسبانيا المسلمة وتعضيد روح الثورة والفتنة ضد حكامها وولاتها ، تحقيقا لنفس الهدف وهو محاولة طرد المسلمين منها ، وإعادتها إلى حظيرة المسيحية من جديد إن أمكن

(1) Deansely: A Hist. of Early Med. Europe, p. 294

. وانظر أيضا : طرخان : المسلمون فى أربونة ص ١٦٧

(٢) ارشيدالد لويس : القوى البحرية والتجارية ص ١٩ ، طرخان : المرجع السابق

ص ١٦٨ ،

Deanesly : op. cit. p. 295

ذلك^(١)، وغنى شارلمان بتنفيذ هذه السياسة عناية تامة على الرغم مما كان يشغله هناك فى القارة الأوربية من مشاريع سياسية وعسكرية وحروب طاحنة بينه وبين اللباردين فى إيطاليا والسكسون فى بعض جهات ألمانيا والبافارين والآفار على الحدود الشرقية للمملكة الفرنجية^(٢)، ولهذا كان يرقب الأحداث فى أسبانيا متحفزا متحيناً الفرصة المواتية لإخراج هذه السياسة إلى حيز الوجود .

ولقد واثته الفرصة على عهد عبد الرحمن الداخل حين اندلعت ثورة فى شمال الأندلس ضد الأمير عبد الرحمن سنة ٧٧٤ م (١٥٧ هـ) ، بقيادة سليمان ابن يقظان الكلبي أو الأعرابي والى برشلونة وجيرونة (جيرندة) ، ومعه أبو ثور صاحب وشقة^(٣) ، الذى كان على خلاف مع عبد الرحمن ليل هذا إلى المضربة ، ومعاداته لليمنية التى ينتمى إليها هذا الوالى الأعرابي ، وكذلك الحسين بن يحيى الانصارى والى سرقسطة ، الذين تحالفوا على قتال الأمير عبد الرحمن منتهزين فرصة انشغاله بمحاولة قمع الثورات التى اندلعت فى أنحاء مختلفة من الأندلس لاسيما فى الجنوب ، ومعتمدين على طبيعة الجهات الشمالية ووعورتها وما يكتنفها من جبال فى الاستمرار فى الثورة لتحقيق أهدافهم ، وانضم إليهم ائد يدعى عبد الرحمن بن حبيب الفهرى المعروف بالصقلبي ، الذى أرسله الخليفة العباسى المهدي إلى الأندلس لمحاولة استعادتها من

(1) Oman : op. cit p. 352

(2) Mahrenholtz : " The Empire of Charlemagne " in B. H. V. VII, p. 3482

(٣) ديفز : شارلمان ص ٢٩٦ (ترجمة المبريني) ، طرخان : الملهوت فى أوروبا

عبد الرحمن. (١). وعلى الرغم من انشغال عبد الرحمن حينئذ في محاربة بعض الثوار إلا أنه جهز جيشا وأرسله إلى الشمال لمقاتلة الثوار هناك ، تحت قيادة أحد كبار أعوانه ويدعى ثعلبة بن عبيد الجذامي (٢) ، إلا أن سليمان بن يقظان نجح في إلحاق الهزيمة بهذا الجيش بل أسرقائده وبدد شمل قواته سنة ٧٧٥م (١٥٨ هـ) ، وزاد هذا النصر في حماسة الثوار في الشمال وأذكي روح العناد في نفوسهم وأطمعهم في الاستمرار في مناوأة حكومة قرطبة (٣) .

ويبدو أن سليمان بن يقظان وحليفه الحسين بن يحيى والى سرقسطة ، لم يركنا إلى هذا النصر الموقت لما يعلمانه من عزم الأمير عبد الرحمن وقوة بأسه ، وروح الانتقام لديه ، لهذا فكرا في الاعتماد على قوة خارجية تسند الثورة في الشمال ، وتساعد على تحقيق أهدافها فطلبوا العون من عاهل الفرنجة شارلمان (٤) . وتسير الروايات إلى أن سليمان بن يقظان خرج بنفسه ومعه نفر من أعوانه وأصحابه للقاء شارلمان أو كما تقول الرواية الفريرية كارل الأكبر في ربيع سنة ٧٧٧م (١٦٠ هـ) ، وكان شارلمان حينئذ في ساكس في مدينة بادربورن ، في شمال غرب ألمانيا بعد أن أنزل بالسكسون أشد أنواع التشكيل وأجبرهم على اعتناق المسيحية (٥) ، وفي زهوة الانتصار تقدم سليمان إلى شارلمان عارضا عليه المحافاة على قتال عبد الرحمن الداخل مقترحا عليه غزو المناطق

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٤

(2) El - Hajji : op. cit. p. 141

(3) Ibid, p. 141

(4) Oman : op. cit. p. 352

(5) Scott : op. cit, 1, p. 304

Heyck : " Rise of the Frankish dominion " B. H. VII, p. 3480

الشمالية في الأندلس ، متعهدا بمعاثته هو وحلفائه ، وتسليمه ما في حوزتهم من مدن لاسيا سرقسطة ، وتسليمه كذلك أسيره ثعابة بن عبيد (١) ، ليكون ورقة رابحة يمكن مساومة عبد الرحمن عليها .

جاءت الدعوة إذن لشارلمان ، كما تؤكد الروايات العربية واللاتينية الفرنجية من قبل سليمان بن يقظان الكلبي وحلفائه ، ولم تكن من قبل أمير ليون . (جليقية) النصراني كما ذهبت بعض الروايات الأسبانية النصرانية ، التي لاقت رواجاً وتأيداً من بعض المؤرخين المحدثين (٢) ، وإن لم يكن ذلك مستبعداً في ظل تحفز النصارى الأسبان لاسترداد أسبانيا من المسلمين ، ودأبهم على مضايقة إمارة قرطبة كلما سنحت الظروف (٣) ، إذ تصرح المصادر الإسلامية المعاصرة بأن الدعوة جاءت من قبل سليمان ، الذي استدعى قارلة (كارل أي شارلمان) ملك الفرنجة ، واعداء إياه بتسليمه برشونة وسرقسطة (٤) ، وتأييدها الرواية اللاتينية التي اهتمت بذكر خضوع سليمان وأعوانه للملك الفرنجة وانضواءهم تحت حمايته (٥) .

غير أن موافقة شارلمان على هذه المقترحات لم يكن اقتناعاً منه بقضية الثوار في شمال أسبانيا ، ورغبة في معاونتهم لتحقيق أهدافهم هناك ، وإنما كانت لتنفيذ سياسته في أسبانيا وتأمين حدوده الجنوبية (٦) ، وتحقيق مشروعه في

(1) El - Hajji : op. cit. p. 141

(2) Lane - poole : op. cit. p. 33

(3) Oman : op. cit. p. 352

(٤) انظر ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٥٠ ، ص ٢١ ، ان خلدون : البرج ٤ ص ١٢٤

(5) Reinaud : Invasions des Sarrazins en France, p. 94

وانظر كذلك حنان : دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ١٧٠

(6) Mahrenholtz : op. cit. p. 3483

إحياء الإمبراطورية الرومانية الذي طالما سعى إلى تحقيقه ، فضلا عن أن ذلك كان عنصرا هاما في مؤامرة دولية كبيرة واسعة النطاق دبرت للقضاء على عبد الرحمن شاركت فيها الخلافة العباسية على عهد المهدي الذي تابع سياسة المنصور لاسترداد الأندلس من عبد الرحمن ، ولقد كان تقارب الخلافة العباسية من الدولة الكارولنجية الفرنجية ، واشترائكها في هذه المؤامرة معا ، يرجع إلى عداوتها المشترك للدولة الأموية في أسبانيا من ناحية ، وضد الدولة البيزنطية المتاخمة للعباسيين من ناحية أخرى (١) . وتذكر الرواية الفرنجية أن الملك يمين القصير كان قد سعى من قبل إلى توطيد علاقته بالخلافة العباسية ، وأرسل في سنة ٧٦٥ م سفارة إلى بغداد في هذا الشأن ، استقبلت بحفاوة بالغة ، ورد الخليفة المنصور على ذلك بإرسال سفارة إلى ملك الفرنجة بعد ذلك بنحو ثلاثة أعوام (٢) ، فاستقبلت في البلاط الفرنجي في مدينة متر ، بحفاوة أيضا ، وتابع شارلمان سياسة والده بعد ذلك ، فكان بينه وبين الرشيد مكاتبات وسفارات ورسل وهدايا (٣) .

لم تكن موافقة شارلمان على حملته في شمال أسبانيا استجابة لدعوة سليمان

(١) العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ص ١٠٦

(٢) Deanesly : op cit, p. 294 , Pirenne : op cit, p: 160

دينز : شارلمان ص ٢٩٥ (ترجمة العريني) ، طرخان : للمسلمون في أوروبا ص ١٧٠

(3) Reinaud ; op. cit. p 89, 92

Lyon, Rowen, Hamerow : A Hist. of the western world.,
p 113

واقرا تفصيلات أكثر من العلاقات بين هارون الرشيد وشارلمان في :

Lot et Ganehof : L'Hist du Moyen Ages de Glotz, 1, p. 483-

Lévi - Provençal : op. cit., 1, p. 121 — n. 1

فحسب ، بل دخلت في هذه المسألة عناصر ومصالح دولية ، وسياسات عليها لدولة الفرنجة ، واستغل شارلمان الروح المسيحية المتوثبة وحرصه على أن يحارب في سبيل المسيح ^(١) ، سواء أكان ذلك فيما وراء الراين والدانوب. ضد قبائل السكسون ^(٢) ، وقبائل الآفار ^(٣) ، أو ضد الدولة الإسلامية في أسبانيا ، وغدت الكنيسة هذا الاتجاه ، وأذكت روح القتال ضد من أستمهم الكفرة في الجنوب ، فإذا كان الفرنجة قد نجحوا في طرد المسلمين من جنوب فرنسا إلى ما وراء البرنيه ، فلا مانع من تتبعهم فيما وراء البرنيه للقضاء على ريحهم ، وإعادة الصليب إلى ربوع أسبانيا أو على الأقل جزئها الشمالي حماية للدولة المسيحية في فرنسا من ناحية ، ومحاولة بعث الإمبراطورية الرومانية القديمة من ناحية أخرى ^(٤) . وإذا أفسحنا صدرنا لرواية أخرى فان شارلمان ساءه ما يولغ في تصويره من شكاوى النصاري الأسبان الذين قيل أنهم يعانون ضغطا وإرهاقا من المسلمين ، على الرغم من اعتراف مختلف الروايات بتسامح الإسلام والمسلمين هناك ^(٥) . ويبدو أن سليمان وحلفاءه اعتقدوا أنهم في ظل حماية الفرنجة يمكن أن يدعموا انفصالهم بالمناطق الشمالية ويكرسوا استقلالهم غير واضح لعناصر هذه المؤامرة الكبيرة ، ولهذا فقد بادر سليمان

(١) انظر: نص خطاب أرسله شارلمان إلى البابا ، هذا الصدد ترجمه إلى الإنجليزية:

R. H. C. Davis : 'from Duimier, Epistolae karolini Aevi (M. G. H.) 11, no. 93 — in Davis : cit. p. 146

(2) Einhard : Life of Charlemagne, Chapter 7, — In The Med. world, by Cantor, p. 141 — 2

(3) Oman : op. cit. p. 356

(4) Scott : op. cit. 1, p. 405

Lévi - proençal : op. cit. p. 120

(5) Jackson : op. cit. p. 12, p. 30

بتسليم أسيره ثعلبة بن عبيد — قائد عبد الرحمن — إلى شارلمان عنوانا للثقة والتحالف ، وتنفيذا لما سبق الاتفاق عليه ، فسارع شارلمان فسجن ثعلبة في إحدى القلاع الفرنسية قبل تحركه تجاه الجنوب ، وهذا هو الأرجح في رأى مؤرخ محدث (١) .

وجرى الاتفاق بين الثوار وشارلمان على أن ينحدر شارلمان بجيوشه إلى شمال أسبانيا عابرا جبال البرنيه ، متجها إلى مدينة سرقسطه فيسلمها له سليمان بن يقطان الأعرابي لتكون قاعدة لانطلاق الجيوش الفرنجية لتدمير عبد الرحمن (٢) ، وفي نفس الوقت ينزل عبد الرحمن بن حبيب الفهري من المغرب في أسطول بحري ، وجيش كبير من البربر على الساحل الشرقي للأندلس في مدينة تدمير (مرسية) حيث يبدأ هجومه في هذه الجهات ، وبذا يجرى تطويق عبد الرحمن للقضاء عليه ، ثم يجرى إعلان تبعية الأندلس لصاحبها الشرعي الخليفة العباسي (٣) . ويسدو أن عبد الرحمن ابن حبيب الفهري كان أكثر المتآمرين تحرقا للقضاء على عبد الرحمن ، فقد سارع بتنفيذ الشق الخاص به في المؤامرة ، فبادر بالنزول بجيشه وأسطوله على ساحل تدمير (مرسية) وذلك قبل وصول شارلمان ، وحينئذ وجد الأمير عبد الرحمن الفرصة مواتية للقضاء على أحد عناصر المؤامرة قبل أن تستكمل حلقاتها ، ويهوى إليه حلفاؤه ، ويجتمع الأعداء على حربه ، وكانت هذه إحدى مزايا عبد الرحمن الداخل ، في أنه يعاجل أعداءه فرادى قبل أن يجتمع ثملهم وينالهم فرادى

(1) El - Hajji : op. cit. p. 144 (N 1)

(2) Mahrenholtz : op. cit p. 3483

(3) Scott : op. cit. I, p. 403

واحداً واحداً ، قبل أن يجمعوا على حربه ، ومن هنا كان النصر حليفه دائماً (١) .

بادر عبد الرحمن بالمسير إلى ابن حبيب الفهرى ، قبل أن ينحاز إليه حلفاؤه ، ولم يجد ابن حبيب بدا من الاستغاثة بوالى سرقسطة سليمان بن يقظان ابن الأعرابي ، غير أن هذا لم ينهض لنجدته ، متذرعاً بأنه لا يستطيع أن يترك ولايته قبل وصول شارلمان كما تقضى الخطة ، وهو فى حقيقة الأمر كان يخشى بأس عبد الرحمن ، ويعلم قوة شكيمة ومبلغ عزمه ، ويخشى عاقبة لقائه (٢) ، وكان يريد الاحتماء بقوات شارلمان ويحارب فى ظل جيشه ، فلما أتته الدعوة من ابن حبيب أصم أذنيه ، ولم ينهض لنجدته ، ووجدها عبد الرحمن فرصة لانزال الضربة بخصمه ابن حبيب ، فقد سحق جيشه وقتله ، وأشعل النيران فى أسطوله قرب ساحل تدمير ، ليقضى على عنصر هام من عناصر المؤامرة ، ثم بدأ يلتفت لسليمان (٣) .

وكان شارلمان قد انتظر حتى انقضى فصل الشتاء ، ثم سار فى قواته إلى جنوب فرنسا ، وقضى أعياد الفصح فى أكوتين بقرب بوردو ، وفى أوائل الربيع سنة ٧٧٨ (١٦١ هـ) ، تقدم على رأس قواته المؤلفة من جنود نسطرياء ، وفريق برتانيا وأكوتين وبعض اللهبيردين والجرمان ، وانحدر فى ولاية أكوتين ، حتى وصل إلى نهر الجارون ، وهناك قسم جيشه إلى قسمين (٤) .

(1) Lane - poole : op cit. p. 33

(٣) ابن مغازى : البيان ص ٥٦

(3) Lane - poole : op cit p. 33

(4) Oman : op. cit pp. 352 — 3

Hoyt and Chodorow : op. cit. pp. 152 — 4

قسم يقوده بنفسه ، وتقرر أن يعبر جبال البرنيه (البرتات) من جهتها الغربية ، عبر الطريق الرومانى القديم ، فوق آكام « جان دى لا بور » الشاهقة التى تشرف على مفاوز رونسفال الوعرة (١) ، والقسم الثانى تحت قيادة أحد كبار أعوانه ، وتقرر أن يعبر البرنيه من جهتها الشرقية (٢) ، وتقرر أن يجتمع الجيشان على ضفاف نهر الايرو ، أمام مدينة سرقسطة حيث يتم اللقاء مع حلفاء شارلمان من المسلمين . وفى هذه الأثناء بلغه نبأ مصرع ابن حبيب القهرى والقضاء على جيشه ، بعد خلافه مع سليمان بن الأعرابى ، وساء شارلمان ذلك كثيرا ، إلا أنه تقدم على رأس قواته تجاه جبال البرنيه (٣) .

ولم يجد القسم الشرقى من جيش شارلمان صعوبة فى تقدمه نحو شمال أسبانيا إذ أنه كان يتقدم فى منطقة من مناطق نفوذ الفرنجة منذ أيام بين القصير ، حين تقلص نفوذ المسلمين عنها ، ولهذا سار هذا القسم فى بلاد صديقة رحب به أهلها آمليين فى عون الفرنجة وحمايتهم (٤) ، لكن مسير القسم الآخر من جيش شارلمان جهة الغرب ، تحت قيادة شارلمان نفسه أزعج بأن عاھل الفرنجة ، كانت عازمة على تضييق القوى فى تلك المناطق لضم هذه الجهات لدولة الفرنجة ، أو على الأقل إخضاعها تحت سلطان الفرنجة (٥) ، ذلك أن الجهة الشمالية الغربية والمناطق الغربية الملاصقة لجبال البرنيه (البرتات) ، كانت فى

(1) Lévi - Provençal : op. cit. I. pp 123 —4

Mahrenholtz : op. cit p. 3484

(2) Oman : op cit. p. 352

(٣) حاطوم : تاريخ العصر الوسيط فى أوربة ص ١٦٥

(٤) Oman . cit. p. 352

(5) Lévi - Provençal : op. cit. p. 124

حوزة البشكنس أو الشعبة المعروفة منهم بالنافاريين أصحاب بنبلونة (١) — أو نافار الحديثة — وكان هؤلاء البشكنس يحاولون دائماً الحفاظ على استقلالهم منذ عهد القوط الغربيين ، وكثيراً ما رفعوا راية العصيان في سبيل ذلك ، وساعدتهم طبيعته بلادهم الوعرة وجبالهم الشاذقة ، وكثيراً ما أنشؤوا الدخول تحت طاعة أية قوة حتى ولو كانت قوة مسيحية (٢) .

وإذ تقدم شارلمان تجاه بنبلونة وبلاد النافاريين من البشكنس أو الغسقوينيين وهم من المسيحيين ، فقد أعطى فرصة لأولئك المنادين بأن شارلمان لم يكن خارجاً في حملته على أسبانيا من أجل الدين ونصرة المسيحية ، وإنما كان يتخذ ذلك ستاراً لتحقيق أهدافه السياسية وإخضاع أسبانيا وحماية فرنسا ، وإحياء مشروعه القديم في بعث الإمبراطورية الرومانية (٣) . حقيقة أكدت الروايات أن شارلمان عرض مشروع حملته الأسبانية على البابا قبل خروجه ، وأيده البابا في ذلك ، إلا أن ذلك لا ينفي أن شارلمان كان يهدف إلى تحقيق مصالح سياسية عليا أكثر مما كان خارجاً من أجل المسيح ونصرة الدين ، كما يهمل لذلك كثير من المؤرخين . فقد تقدم شارلمان نحو بنبلونة ، وألقى الحصار عليها ، ثم ما لبث أن استولى عليها ، ثم سار تجاه سرقسطة (٤) ، فخرج إليه وإليها المتآمر سايمان بن يظان بن الأعرابي لقاته ، خارج المدينة وسلم إليه بعض الرهائن ، كما خرج لاستقبال شارلمان أيضاً حاكم وشقة ،

(1) Ibid : p. 128

(٢) شكيب أرسلان : تاريخ فزان العرب في فرنسا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط

ص ١٥٧ (بيروت ١٩٦٦)

(3) Lévi - Provençal : op. cit. 1. p. 120

Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 154

(4) El - Hajji : op. cit. p. 145

وقدم إليه أخاه وولده كير هائن ، فسار شارلمان إلى سرقسطة وفي صحبته حلفاء من المسلمين ، وعلى رأسهم سليمان (١) .

وفي نفس الوقت تقدم القسم الآخر من جيش شارلمان ناحية جبرونة (جبرونا) وبرشلونة واتجه غربا إلى سرقسطة للقاء شارلمان وبقية القوات ، واكتمل جيش شارلمان على مشارف المدينة ، التي أمل شارلمان اتخاذها قاعدة لعملياته في أسبانيا ، معتقداً أن حلفاء المسلمين سيسلمونها إليه ، ويتعاونون معه لتحقيق بقية أهدافه (٢) ، ولكنه في حقيقة الأمر كان قد أسرف في التفاؤل ، ذلك لأن أهل المدينة ساء لهم أن تسلم مدينتهم لملك نصراني ، وأنقوا من الدخول تحت حماية الفرنجة المسيحيين ، ومعاونتهم ضد إخوانهم المسلمين ، في أسبانيا ، وفي نفس الوقت دب الخلاف بين الشوار أنفسهم أو قادة الثورة في الشمال ، فقد تغيرت الأمور في تلك الآونة ، وحدث شقاق بين الحسين بن يحيى الأنصاري وبين حليفه سليمان بن الأعرابي ، ويبدو أن الحسين بن يحيى هذا خشي عاقبة التورط في حلف مع الفرنجة (٣) ، بما يسببه ذلك من إيذاء المشاعر الإسلامية في المدينة ، وما يمكن أن يترتب على هذا التورط عند انسحاب الفرنجة فآثر تعديل موقفه في اللحظات الأخيرة حين أيقن بمسير الفرنجة نحو المدينة ، وربما نقم الحسين بن يحيى على سليمان موقف الصدارة والزعامة الذي اتخذته سليمان من الفرنجة (٤) ، فبيت النية على التخلي عنه معتمداً

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٦٤

(٢) Scott : op. cit. I, pp. 406 — 7, Lévi - Provençal : op. cit. I, pp. 128 — 9

Mahrenholtz : op. cit. pp. 3483 — 4

(٣) El - Hajji : op. cit. p. 145

(٤) بيان : المرجع السابق ج ٢ ص ١٧٤

علي ما سوف يلقاه من تعضيد المسلمين في سر قسطة ، وتأيسدهم ، وتحصن
الحسين بن يحيى الأنصارى في سر قسطة وأغلق أبوابها ، ورفض استقبال
شارلمان وحليفه سليمان (١) .

ولما وصل شارلمان إلى سر قسطة وجد المدينة متحفزة للدفاع والمقاومة ،
مماضية في محاولة صده وإجباره على الارتداد ، ولهذا فقد بادر بعبور نهر
الإيبرو إلى الضفة الأخرى ، وأخذ يهاجم المدينة من مواضع مختلفة ، ولكن
المدينة صمدت وردت كل هجماته (٢) ، ولم يستطع حليفه سليمان أن يفعل شيئا
أبو يقدم أية مساعدة أو يقنع الحسين بن يحيى بفتح أبواب المدينة ، ولهذا
أخذ شارلمان يرتاب في نية سليمان ، وخشى أن يكون ضالعا في مؤامرة
ضده ، فبادر بالقبض عليه وسجنه (٣) ، وأخذ يتنقذ الجهات المجاورة فألناها
وهادا وهضابا ، ومناطق وعرة ولهذا لم يشأ أن يغامر بالدخول في معارك
في تلك الجهات ، وظل محاصرا المدينة فترة ثم بدأ يرتد عنها منسحبا نحو
الشمال الشرقي ، وذلك في شهر يوليو سنة ٧٧٨ م (شوال سنة ١٩١ هـ) (٤) .
والواقع أنه لم تجر بين الفريقين مواقع ذات أهمية أو اشتباكات ذات شأن ،
ولعل ذلك هو الذى أدى إلى تضارب الروايات وتعددتها ، فهل قرر شارلمان
الارتداد من تلقاء نفسه أو لظروف طارئة ، أم أن تلك الاشتباكات على
على قتلها أقنعتة بعدم جدوى الحصار ، وأرغمته مضطراً إلى فك حصاره

(1) Deanesly : op. cit. p. 352

(2) Oman ; op. cit. p. 353

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٦٤ ،

Lévi . Provençal : op. cit. 1, 127

(4) Mahrenholtz : op. cit. p. 3484

والعودة من حيث أتى ؟ أم أنه وجد مصاعب في تمويل جيشه / كبره من ناحية وبعد المسافة بينه وبين بلاده من ناحية أخرى، مع تحفز البشكنس ضده، وعداء المسلمين من حوله ؟ أكان ذلك سبب عودته المفاجئة أم أسهمت هذه العوامل كلها في إرغامه على الارتداد ؟

الواقع أنه يمكن اعتبار هذه كلها أسبابا لعودة شارلمان وارتداده عن المدينة. بجانب سبب هام ركزت عليه الرايات اللاتينية بصفة خاصة (١)، هو أنه بلغه في تلك الآونة أنباء هامة من بلاده مفادها أن قبائل السكسون، قد عادت إلى مشاغباتهم وثورتها، وارتدت عن المسيحية، وبدأت من جديد تعيث الفساد فيها حولها (٢)، تحت قيادة زعيم يدعى وتكنند Wittekind، الذي تقدم على رأس قواته حتى وصل إلى كولون Cologne (٣)، ويضيف بعض المؤرخين المحدثين أن شارلمان قرر العودة بعد يأسه من معونة العباسيين (٤)، ولكن يبدو أن عودة السكسون إلى مشاغباتهم وطرحهم الطاعة، كان له ضلع في عودة شارلمان، بعد أن علم بأنهم تحت قيادة زعيم جديد استولوا على مدينة Deutz (دتز)، المقابلة لمدينة كولونيا على نهر الراين (٥). وعندئذ قرر شارلمان العودة إلى بلاده لمعالجة هذه المسألة، ودرأ هذا الخطر قبل أن يستنحل، فارتد شارلمان عائدا، مصطحبا سليمان بن يقظان بن الأعرابي،

(1) Einhard : op. cit p. 143

(2) Ibid : p 141

(3) Lane - Poole : op cit. p. 34

(4) Deanesly : op. cit. p. 352

Lévi - Provençal : op. cit. 1, p. 129

(5) Dozy : Hist. des Musulmans D'Espagne, 1, p. 379 (Leiden 1982)

كأسير حرب ، ملقيا عليه التبعة في فشل حملته ، كما اصطحب معه عدداً آخر من الرهائن . ويذكر المؤرخون المحدثون أن هذا هو السبب الحقيقي لارتداد شارلمان ، لأنه كان يولي أمر إخضاع السكسون أهمية خاصة (١) ، ويحاول إدخال هذه التباين في حظيرة المسيحية ، والقضاء على مشاغباتها هناك على ضفاف نهر الراين ، ولهذا لم يتردد في قطع مشروعه والعودة مسرعاً إلى بلاده للقضاء على ذلك الخطر (٢) .

قرر شارلمان العودة من نفس الطريق الذي سلكه في المجيء مارا بينلونة ، على الرغم من أن النافارين البشكنس كانوا في تحفز منذ هزيمتهم على يد شارلمان ، ولهذا فقد عادوا إلى جمع قلوبهم وعزموا على الدفاع عن مدينتهم واستقلالهم ، خاصة بعد أن شجعهم صمود مدينة سرقسطة وواليها الحسين بن يحيى في وجه شارلمان ، وإرغامه على الارتداد (٣) ، على حين كان شارلمان قد قرر إخضاع هذه المدينة تماماً ، والقضاء على مقاومة البشكنس ، وتمهيد الطريق أمام جيوشه ، لو فكّر في إعادة الكرة على أسبانيا في وقت آخر ، ولعل هذا هو السبب الذي دفعه إلى العودة إلى محاربة البشكنس ، وإخضاع بنبلونة حاضرتهم (٤) ، غير أن النافارين في هذه المرة ، كانوا أكثر شراسة في حربهم ضد شارلمان ، وانضم إليهم كثير من المسلمين من أبناء النواحي المجاورة للتعاين معا في دفع الخطر المشترك ، وعلى رأسهم أبناء سليمان بن الأعرابي أسير شارلمان ، الذين جددوا في محاربة فك أسر وادهم ، ويحتمل أن

(1) Hoyt and Chodorow : op cit. pp. 151 — 4

(2) El - Hajji : op. cit. p 145

Mahrenholtz: op cit. op. 3482

(3) Oman : op. cit. p. 353

(4) Scott : op. cit I. p. 406

الأمير عبد الرحمن الداخل هو الذى أمدهم بفرقة من جيشه وساعدهم بالمال والسلاح ، محفزا إياهم على الانتقام لأبيهم (١) . ولكن على الرغم من ذلك ورغم بسالة النصارى ومن انضم إليهم من المسلمين ، إلا أن شارلمان هاجم بنبلونة بشدة وأجبر البشكنس على إخلائها والتفرق فى مختلف النواحي ، ودخل شارلمان بنبلونة للمرة الثانية ، وأمر بهدم حصونها وأسوارها (٢) ، حتى لا تعود إلى المقاومة إذا فكر فى العودة إليها ، ثم غادر شارلمان بنبلونة متجها إلى جبال البرنيه (البرتات) عن طريق هضاب رونسفال المؤدية إلى باب الشزرى . أو ما يعرف بممر شيزر أو رونسفال Roncesvalles (٣) .

ويصف الجغرافيون المسلمون القدامى جبال البرنيه (أو البرت أو البرتات) « وصفا لا يختلف كثيرا عما تقدمه الجغرافية الحديثة فى ذلك ، إذ يصف الشريف الإدريسي هذه الجبال والأبواب الرومانية فيها بقوله : « وطول هذا الجبل من الشمال إلى الجنوب مع سير تقويس سبعة أيام ، وهو جبل عال جدا . صعب الصعود ، وفيه أربعة أبواب بها مضائق يدخلها الفارس بعد الفارس . وهذه الأبواب عراض لها مسافات ، وهي منحرفة الطرق . وأحد هذه الأبواب الباب الذى فى ناحية برشلونة ويسمى : برت جاقة ، والباب الثانى الذى يليه يسمى : برت أشيرة ، والباب الثالث منها يسمى برت شيزر (Roncesvalles) . وطوله فى عرض الجبل خمسة وثلاثون ميلا ، والباب الرابع منها يسمى : برت بيونة ، ويتصل بكل برت (باب) منها مدنى فى الجنتين ، فما يلي برت

(١) طرخان : المسلمون فى أوروبا من ١٧٨

(2) Deanesly : op. cit, p. 351

Oman : op. cit, p. 351

(3) Mahienholtz ; op cit, p. 3484

شيزروا مدينة بنبلونة ... » (١) . ولقد اتجه شارلمان إلى أحد هذه الأبواب الهامة وهو ممر شيزر أو شيزروا أو الرونسفال لعبوره لأنه أقرب الممرات إلى مدينة بنبلونة ، إذ يقع على بعد نحو ثلاثين كيلومترا إلى الشرق منها (٢) ، وهو أحد الممرات التي تستعمل لاختراق جبال البرنيه من الشمال إلى الجنوب ، واستخدمها العرب للعبور إلى غاليسيا منذ وطئت أقدامهم هذه الجهات ، وكانت هذه الجبال الشاهقة الوعرة حاجزا هاما على مر القرون ، يفصل شبه الجزيرة الأسبانية عن غاليسيا (٣) .

أما ما حدث عند عبور شارلمان على رأس جيشه ممر رونسفال ، فتجمع الروايات العربية واللاتينية على أنها كانت كارثة لجيش شارلمان ، إذ تذكر الرواية العربية أنه بمجرد أن خرج شارلمان من بلاد المسلمين وبدأ العبور ، أنقضت عليه قوة عربية على رأسها إبننا سليمان بن الأعرابي : مطروح وعيشون تعرض فك أسر والذهاب ، ونجحت هذه القوة في استنقاذ سليمان والعودة به تجاه سرقسطة (٤) ، بعد أن فصلوا مؤخرة الجيش الفرنجي ، وأعملوا فيها القتل ، وغنموا منها كثيرا من المغانم . ويبدو أن أبنى سليمان قد جمعاً قوات سليمان بعد سجنه ، وحصلوا أيضاً على معاونة ، والى سرقسطة — الحسين بن يحيى — وتأيند أمير قرطبة — عبد الرحمن الداخل — الذي مدها بالمال والسلاح فسارا

(١) العريف الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الأماق (ط روما)

وراجع عنان : المرجع السابق ج ٢ ص ١٧٧

وانظر : شكيب أرسلان : الحال السندسية ج ٢ ص ١٠٩ — ١١٠

(2) El - Hajji : op. cit. p. 146

(3) Lévi - Provençal : op. cit. 1, p. 128

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٦٢ ، العذري : ترصيع الأخبار ص ٢٠

في أثر شارلمان حتى حانت الفرصة فانقضوا على مؤخرة الجيش وأبادوها إبادة شبة تامة ، ونجحوا في استنقاذ سليمان ، والعودة به تجاه سرقسطة ، على الرغم من أن الحسين بن يحيى عاد بعد ذلك فقتل سليمان حتى لا ينأزعه الولاية في المدينة (١) .

وتشير الرواية اللاتينية والمصادر الفرنسية ، إلى أن البشكنس هم الذين هاجموا مؤخرة جيش شارلمان عند عبوره ممر رونسفال ، واستطاعوا في شراسة القضاء عليها انتقاما لما أنزله الفرنجة ببلادهم من الخراب والدمار (٢) ، وقد اختاروا وقتا مناسباً ووضعاً ملائماً حينما كان الجيش يعبر أضييق بقعة في الممر فأحدثوا الاضطراب فيه ، وقضوا على مؤخرته تماماً وقتل رولان Roland ، الذي كان أحد أعوان شارلمان المقربين (٣) . وعلى الرغم من أن البشكنس كانوا الجانب الأضعف من ناحية السلاح والعدة والعتاد ، إلا أن ثقل العدة والسلاح التي يحملها الفرنجة (٤) ، وعدم ملائمة المكان لعمل المناورة المطلوبة أعطت للبشكنس على حد قول هذه الرواية (اللاتينية) ميزة تامة فكان النصر حليفها ، وتم لها ما أرادت بالقضاء على مؤخرة جيش الفرنجة ، وقتل خيرة قادته وعدد من المبرزين فيه لاسيما رولان ، ولم يستطع شارلمان عمل شيء إلا نقاذ مؤخرة جيشه ، ولم يتمكن من الاستدارة لتجدة المؤخرة (٥) ،

(١) العبادي : الرحم السابق ص ٢٥

(2) Einhard : op cit. p. 143

(3) Einhard : op. cit. p. 243

Pirenne ; A Hist. of Euope, p 81

Mahrenholtz : op cit p. 3484

(4) Lane - Poole : op. cit. p. 34

(5) Einhard : op. cit, p. 143

Dozy ; op. cit V I 243

أو هو لم يبلغ بالكارثة في حينها ، فتمت الهزيمة على المؤخرة ، وأعملت سيوف
اليشكنس في أفرادها قتلا وأسرا ، وكان مقتل رولان في هذه الكارثة سببا
في ظهور ملحمة فرنسية شهيرة بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون ، واشتهرت هذه
الملحمة بأنشودة رولان Chanson de Rorland (١) ، وأذاعت هذه الأنشودة
أحداث ممر رونسفال على الرغم من أنها ترجع إلى القرن الثاني عشر ، إذ تشيد
ببطولة رولاند الضابط الفرنسي وتفانيه في خدمة قائده (٢) ، حتى أنه رفض
أن ينفخ في البوق حتى لا يسمع شارلمان ، ويحاول العودة لإنقاذه فيتعرض
للمأساة أخرى وكين آخر من قبل المهاجمين ، وتشير الملحمة إلى أن خطيئة
هذا الضابط الفرنسي التي كانت تنتظر عودته إلى فرنسا ، قد ماتت كمدا عند
سماعها نبأ مصرعه ، واشتهرت هذه الأنشودة كثيرا في العصور الوسطى
وعدت بداية الأدب الفرنسي ، رغم خروجها عن الواقع التاريخي واتسامها
بطابع أسطوري إلى حد بعيد (٣) .

وإذا استعرضنا كلتا الروايتين : العربية واللاتينية ، وجدنا أن كلا منهما
ينسب هذا النصر لجانب معين ، فالرواية الإسلامية تقرر أن المسلمين دبروا
هذا الهجوم على مؤخرة جيش شارلمان ، وأنهم هم الذين استنقذوا الرهائن ،

(1) ' La Chanson de Roland ' The French text, together with
a fine translation by René Hague, is printed - in ' The Song
of Roland ' (London 1934)

وانظر أيضا :

R. H. C. Davis ; op. cit. p. 143

(2) Hollister : Med. Europe, p. 88 (N. Y. 1974)

Oman : op. cit. p. 353

(3) Mahrenholtz : op. cit. pp. 3483 — 4

وقازوا بكثير من المغانم والأسلاب (١) ، والرؤاية اللاتينية تقرر أن البشكنس هم وحدهم الذين فاجأوا الجيش الفرنجي وأنزلوا بمؤخرته تلك الهزيمة المنكرة. في ممر رونسفال ، ربما اعتمادا على معرفة البشكنس التامة بهذه الدروب والشعاب ، وحذقهم الهجوم في هذه المناطق الوعرة لسابق خبرتهم وتمرسهم (٢) وينسبوا — كما ذهب بعض المؤرخين المحدثين — أن كلا من المسلمين والبشكنس قد اشتركا وتعاونوا معا في إلحاق هذه الهزيمة بجيش شارلمان (٣) فقد كان شارلمان عدوا مشتركا لكليهما ، وإذا كان إبننا سليمان قد جدا في محاولة إنقاذ والدها وأرهائين والإنتقام لما جرى لوالدهما ، فإن حقيق البشكنس على شارلمان وجيشه كان أكبر ، بعد أن أحدث الخراب والدمار ببلادهم ، وخرب عاصمتهم ببلونة ، وأنزل بهم أشد أنواع التنكيل ، بل أنهم كانوا أكثر حماسة لهزيمة شارلمان وتلقينه درسا قاسيا حتى لا يعاود الكرة عليهم من جديد (٤) . التقى الطرفان إذن عند الرغبة الجامحة في الانتقام من شارلمان وجيشه ، ولهذا فقد تعاونوا معا للقضاء على مؤخرة جيشه . وتؤكد الأحداث أن كل طرف كان بحاجة إلى الطرف الآخر ، فقد احتاج المسلمون إلى معرفة البشكنس الدقيقة بتلك الشعاب والمعرات الوعرة لسابق خبرتهم بها ، وكان

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٦ من ٦٤ ، ابن خلدون : العبرج ٤ من ١٢٤

(٢) راجع رؤاية ابنه سارت :

Einhard ; op. cit. p. 143

(3) Dozy : op cit: 1, p. 380

Scott : op, cit, l, p. 407

El - Hajji : op. cit. p. 154

وانظر العبادي : المرجع السابق ص ١٠٨ ، هناك : المرجع السابق ج ٢ ص ١٧٨

(4) Oman : op. cit. p. 353

البشكنس بحاجة إلى مقدرة المسلمين في التنظيم العسكري ، ودقتهم في رسم الخطط والهجوم ، ولهذا التقيا معا وتعاونوا في إنزال تلك الهزيمة الساحقة بجيش شارلمان وإحداث تلك « الفاجعة » على حد قول الحوليات الملكية المعاصرة في دولة الفرنجة (١) .

ولعل أحسن وصف لما حدث في ممر رونسفال ، أن الكمين الذي أعده المسلمون والبشكنس معا ، قد حدث في الأماكن الصاعدة بين الطريق الرومانى المعبد ، وأن مؤخرة جيش شارلمان كانت تتكون على الأرجح من ألف فارس من خيرة فرسان الفرنجة ، فضلا عن المشاة ، ومعهم الدواب والأثقال والعتاد ، فقد فوجيء الفرنجة بهذا الكمين الذي لم يكن متوقعا فلم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم (٢) ، في تلك الشعاب الضيقة المنحدرة ، ولم يحسبوا التصرف في تلك المناطق الوعرة ، ولا سمحت لهم أثقالهم وعتادهم بخفة الحركة والمناورة (٣) ، وسرطان ما فضلت المؤخرة عن بقية جيش شارلمان وجرى تمزيقها والفتك بفرسانها ، والاستيلاء على الرهائن ، والأسلاب والمغانم ، وفي مقدمتها الخزانة الملكية بكل ما فيها من نقائس (٤) . ويبدو أن المفاجأة قد شلت تفكير الفرنجة ومنعهم من القيام بأي عمل للنجاة من هذه المأساة ، فقتل عدد كبير من سادة الجيش الفرنجى ، وأبرز فرسانه ، وتمت الهزيمة على جيش شارلمان (٥) ، وكان ذلك على الأرجح في النصف الثانى من

(1) Deanesly : op. cit. p. 352

(٢) موس : ميلاد المصور الوسطى ص ٣٥٥ (ترجمة جاويد ومراجعة العربى)

(3) Lane-Poole : op. cit. p. 34

(4) Oman : op. cit. p. 353

(5) Jackson : op. cit. p. 16

شهر أغسطس سنة ٧٧٨ م (ذي القعدة سنة ١٦١ هـ) ، وأحدثت هذه النكبة
صدي واسعا في مختلف الأوساط الأوربية والمسيحية (١) .

وباستقراء رواية اينهارت المؤرخ الفرنسى ذائع الصيت ، وكاتب سيرة
شارلمان وزوج ابنته ، ومرافقه في حملاته العسكرية ، نجد وصفا يكاد يكون
دقيقا وناظقا ، ومعبرا عن هذه النكبة على الرغم من أنه جعل البشكنس (أو
الغسقوينين) هم المسؤولين وحدهم عن هذا الهجوم . إذ يصف اينهارت هذا
الهجوم بقوله (٢) :

« وفي طريق عودته (شارلمان) على رأس جيشه سالما غانما ،
و حينما كان يعبر أضيق مكان في ممر جبال البرنيه Pyrenean mountains
عائدا ، تعرض لغدر الغسقوينين Gascons ومكيدتهم ، فقد كان الجيش
يجتاز الممر في طابور متحرك ، يمتد إلى مسافة طويلة بقدر ما سمح
الممر الضيق بذلك ، وإذا بالغسقوينين — الذين كانوا قد وضعوا
كائن على الحواف الشاهقة للجبال ، ووضعوا قطعا كثيرة من الخشب
الغليظ عبر الممر ليجعلوا المكان أكثر ملائمة لتدبير هذا السكين — إذا
بهم يندفعون هابطين من مكانهم المناسبة إلى أرض الوادى إلى أسفل ،
حيث ألقوا بأنفسهم في عناد على مؤخرة الجيش بما فيها من متاع وعتاد ،
وعلى من يقوم بحراسة هذا المتاع ، وهاجم الغسقوينيون فرسان الفرنجة
رجلا رجلا ويدا يدا ، حتى قتلوهم عن آخرهم إلى آخر رجل ،
واستراوا على المتاع والعتاد بعد أن دمروا جانبا منه ، ولادوا بالفرار

(1) EL - Hajji : op. cit. p 146

Mahrenholtz : op. cit. p. 3484

(2) Emhard : op. cit. p 143

في كل الاتجاهات مستترين بالظلام الذي ما لبث أن حل بعد قليل من هذه المذبحة (١) . ولقد تفوق الغسقونيون في هذا العمل البطولي بخفة أسلحتهم وطبيعة الأرض والمكان ، الذي جرى فيه الهجوم ، بينما كان الفرنجة ينوءون تحت ثقل أسلحتهم ، وعدم ملائمة المكان نفسه الذي لم يعطهم أية ميزة ، وقتل في هذا الهجوم : إيجهارد أحد كبار خدم شارلمان وأنسلم ورولان كونت بريتانى وكثير غيرهم . ولم يكن بوسع شارلمان أن ينتقم لهذه الهزيمة في ذلك الوقت لأن العدو سرعان ما تشتت في كل مكان غير تارك أثرا يمكن أن يدل عليه أو يمكن أن يتبع من خلاله . » (٢)

هذه هي رواية اينهارت بكل ما فيها من روعة التصوير ودقة الوصف ، وواضح أن الكمين الذي أعده المسلمون والبشكنس قد اختير له أنسب مكان في ذلك الممر لإحداث المفاجأة والاندفاع تجاه مؤخرة الجيش الفرنجى ، كما كان وضعهم للأخشاب الغليظة بعرض الممر يهدف إلى فصل المؤخرة عن بقية الجيش وحصرها في مكان ضيق لا تستطيع الفرار منه ، ومنع أى مساعدة يمكن أن تقدم لرجالها ، ثم كانت الميزة الكبيرة التي ركزت عليها هذه الرواية وهي خفة حركة المهاجمين بالنسبة لثقل الفرنجة وثقل عتادهم ، وعدم إمكانية الإستدارة أو إجراء المناورة وعدم سماح المكان بالدفاع عن أنفسهم فتعرضت المؤخرة كلها للفناء ، هذا ولم تذكر هذه الرواية أن المهاجمين قد تكبدوا أية خسائر ، بل كانت واضحة في القول بأن فرسان الفرنجة جميعا في المؤخرة قد

(١) انظر نص الرواية لـ :

Einhard : op. cit. p. 143 (chapter 9) — in Med. world, by Cantor

(2) Einhard : op. cit. p, 143

أبيدوا عن آخرهم دين أن يستطيع شارلمان عمل شيء أو الانتقام لهذه الكارثة .

ويبدو أن شارلمان لم يكن راغبا في إضاعة الوقت لمحاولة الانتقام لهذه الكارثة لعدم جدوى المحاولة من ناحية ، ولرغبته في العودة سريعا إلى بلاده من ناحية أخرى ، بعد ما بلغه من أنباء سيئه من قبل السكسون واندلاع ثورتهم من جديد (١) ، لهذا تابع سيره على الرغم مما كان يشعر به في غصبة من جراء هذه النكبة التي حلت بجيشه ، واصدقت به وأسبلت سحابة قاتمة على أمجاد العسكارية ردحا من الزمن (٢) . وبعد أن نجح المسلمون في استنقاذ سليمان والرهائن ، لم يبق عنده سوى ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن الذي ظل أسيرا لديه فترة حتى جرت مفاوضات بشأنه مع المسلمين ، وأطلق سراحه بعد دفع فدية كبيرة ، وتقاصت حملة شارلمان على أسبانيا إلى عمل من أعمال سبرغور هذه البلاد ، وعيجم عود أميرها عبد الرحمن (٣) ، كما أنها بددت حلم شارلمان في إزالة السيادة الإسلامية عن أسبانيا وتكوين إمبراطورية على النمط الروماني ، تعيد ذكرى تلك الإمبراطورية العتيقة (٤) ، ولابد أن شارلمان اقنع بأنه كان عودا متينا ، وأن أغواره كانت عميقة ومذاقه مرا ، ولهذا لم يحاول إعادة الكرة وإن ظلت السياسة الفرنجية بعد ذلك تسير في نفس الاتجاه وتتيح الفرصة لمعاودة التدخل في شؤون أسبانيا المسلمة (٥) .

(١) Oman : op cit p. 353

Davis : op. cit. p 144

(2) Heyck : op. cit. p: 3480

(٣) المقرئ : فتح الطب ج ١ ص ٢١٠

(٤) تاريخ : المسلمون في أوروبا ص ١٧٩ — ١٨٠

(5) El - Hajji : op, cit. p. 146

وبعد عودة شارلمان من حملته الفاشلة أبحر عبد الرحمن الداخل إلى سرقسطة فاستولى عليها سنة ١٦٤ هـ ، وحاول إنهاء الفتنة في الشمال ، حتى يفسد على الفرنجة فرصة الدخول ، فان ضبط الامور واستتب الأمن فيها ، إنما يقلل من فرص الفرنجة في محاولة العودة إلى أسبانيا (١) . وتوقف شارلمان في طريق عودته أيضا في أكويتين (٢) ، وسعى إلى تنظيمها خوفا من أن تسبب أخبار الكارثة التي لحقت به ، في إحداث ثورات وحركات عصيان هناك ، فعين كونتات فرنجة في هذه الولاية ، وجعل لكل منهم الإشراف على كونتية أو اثنتين أو ثلاثة وحرص على وضع رجال يثق بهم في الأسقفيات الشاغرة (٣) إلا أن ذلك كله لم يكن كافيا لقمع روح الثورة في هذا الجانب من إمبراطورية شارلمان ، ولهذا جعل شارلمان ابنه لويس ملكا على أكويتين بعد ذلك بسنوات (٤) ، فأرضى في أهل هذه المقاطعة جبهم للحكم الذاتي من ناحية وجذب نفسه التعرض لثوراتهم من ناحية أخرى في وقت كان يمكن أن يتخذ فيه فشله في أسبانيا أداة لتشجيع روح الثورة والعصيان في تلك المناطق القريبة من الحدود الأسبانية (٥) .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد ترتب على الكارثة التي نزلت بجيش شارلمان أن ارتفعت روح المسلمين المعنوية وانشطت قوتهم ، فقاموا بغارة سريعة على أكويتين بعد ذلك بسنوات قليلة ولم تجد كثيرا التنظيمات التي حرص شارلمان

(1) Lane - Poole : op. cit. p. 33

(2) O nan ; op. cit. p. 353

(3) Hoyt and chodorow ; op. cit. p. 152

(4) Dozy : op. cit. p. I, pp: 380 — 1

Deanesly : op. cit. p. 352

(5) Lévi - Provençal : op. cit. I, pp. 127 — 8

على القيام بها في هذه المفاطعة واهتم عبد الرحمن بإحلال السكينة في سرقسطة محل الفرقة والخلاف ، بعد مقتل سليمان بن الأعرابي على يد غريمه الحسين بن يحيى الإنصاري ، إذ بادر الحسين بإعلان خضوعه لعبد الرحمن ، وإن عاد فخرج عليه وطرح طاعته بعد ذلك ، فأنتهى الأمر بمقتله (٢٠) .

وعلى الرغم من أن شارلمان قد اقتنع بعدم جدوى الحرب في أسبانيا ، وأنه ليس بوسعه أن يحقق نصرا فيها فضلا عن أن العلاقات بينه وبين عبد الرحمن تحسنت كثيرا أثر فشل شارلمان في حملته الأسبانية ، حتى أن بعض الروايات ذهبت إلى حلول مودة بين الرجلين وعروض مصاهرة (٢١) ، — كما سوف تفصل — إلا أن السياسة الفرنجية ظلت كما هي لم تتغير في الفترة الباقية عهد عبد الرحمن الداخل ، وعلى عهد ابنه هشام وحفيده الحكم ، وهي محاولة شارلمان التدخل في شؤون أسبانيا المسلمة ، وتشجيع نصارى الشمال من البشكنس والجلالة على مواصلة التحرش بحكومة قرطبة ، وشجع الفرنجة على الاستمرار في هذه السياسة ما كان جاريا من منازعات داخلية في أسبانيا وثوارت مشتعلة لاسيما في المناطق الشمالية المتاخمة للحدود الفرنجية (٢٢) ، فيذكر أنه في السنوات الأخيرة من عهد عبد الرحمن قام الفرنجة بالاستيلاء على جيرونا سنة ٧٨٥ م من يد مطروح بن سليمان ، حرصا منهم على مراقبة الأوضاع في أسبانيا تحفزا للتدخل في شؤونها ، وكان حکام هذه الجهات في الشمال الشرقي لأسبانيا قد

(١) ابن عذاري : البيان ج ٢ ص ٥٦ ،

Dazy : op. cit. I, p. 381

(٢) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٣١٠

(٣) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٣٨٨

طرحوا الطاعة لحكومة قرطبه (١)، منذ غزو شارلمان لأسبانيا، واستسلموا
بما في أيديهم من المدن وجنحوا إلى محالفة الفرنج جيرانهم الشماليين، والتسوا
حمايتهم وبعث أحدهم وهو حاكم مدينة وشقة رساله إلى أكويتين يطلب حمايـة
ملكها لويس بن شارلمان، وذلك سنة ٧٩٠ م (١٧٤ هـ) (٢).

وتوفي عبد الرحمن سنة ٧٨٨ م (١٧٢ هـ)، وخلفه ابنه هشام الرضا،
فانتهز الفرصة نشوب الحرب بين هشام وإخوته، فقاموا بالإستيلاء
على المنطقة الساحلية في جنوب سبتمانيا وعلى أرجل Urgel، سنة ٧٨٩ (١٢٠)
إلا أن هشاماً أثبت همة ونشاطاً في محاربة الفرنجة وعدم السماح لهم بالتدخل
في شئون إمارته، فسير جيشاً كثيفاً إلى الشمال في سنة ٧٩٢ م (١٧٦ هـ)
بقيادة عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لمحاربة الفرنجة واسترجاع ما استولوا
عليه منتهزاً فرصة انشغال شارلمان حينئذ بمحاربة الآفار، وعدم استطاعته
إرسال نجدات إلى الحدود الأسبانية (٤)، ولقد سارع عبد الملك بن مغيث بعبور
البرنيه فاسترد جيرونة (جيرندة) الحصينة، واستولى كذلك على عدد آخر
من المعاقل والحصون، ثم نفذ إلى سبتمانيا وزحف إلى أربونة فأعصده الثغر
الإسلامي القديم، وتذهب الرواية الإسلامية إلى أن عبد الملك قد افتتحها في
هذه الغزوة (٥)، لكن يبدو أن عبد الملك اكتفى بإحراق ضواحيها ثم ذهب

(١) ابن مغازي : البيان : ج ٢ ص ٦٢

(2) Lévi - Provençal : op cit. 1, p. 192

Deanesly : op. cit. p. 353

(3) Jackson : op. cit p. 18

(4) Oman : op cit. p. 356

(٥) ابن مغازي : البيان : ج ٢ ص ٦٤ ، ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٤٠

المقرئ : نفع الطبيب ج ١ ص ٢١٦ — ٢١٧

إلى قرقشونة ، وإذ كان شارلمان مشغولا حينئذ بمحاربة أعدائه السكسون والآفار ، فقد نهض ابنه لويس ملك أكوئين بصدد المسلمين وأرسل جيشا لمحاربتهم تحت قيادة وليام كونت تولوز (١) ، فالتقى الفريقان على ضفاف نهر أربيو Orbieu بين أربونة وقرقشونة ، وجرت معركة كبيرة انتصر فيها المسلمون رمى الفرنجة فيها بخسائر فادحة ، وأبدى وليام دوق تولوز شجاعة فائقة (٢) ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة ، وعددا وافرا من السبي ، ولا شك أن كفة المسلمين كانت الأرجح في هذه الاشتباكات ، لأن عبد الملك أرغم أسره من الفرنج على جر أحمال من الأحجار ومواد البناء من سور أربونة حتى قرطبة ، ويمكن ذلك الأمير هشام من بناء عدة مساجد على شاطئ الوادي الكبير وتوسيع نطاق مسجد قرطبة ، الذي أسسه والده عبد الرحمن ، فبنى فيه جناحا جديدا ، تخليدا لذكرى هذا الانتصار ، وأضاف إلى المسجد المئذنة والميضأة وبعض السقائف (٣) . ويبدو أن جيش هشام اكتفى بذلك وعاد إلى قرطبة دون أن يحتفظ بالمواقع التي تم فتحها ، لأن الفرنجة عادوا في عام ٧٩٥ م (١٧٩ هـ) واحتلوا كاردونا وفيشى وكاستر على التخوم في البرنيه ، وكرروا الهجوم في السنوات التالية ، أى في أواخر عهد هشام ، دون ظفر حاسم أو

(1) Lévi - provençal ; op, cit. 1, p. 145

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٤٨ ، ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٦٤
المقرئ : نهج الطيب ج ١ ص ٣١٧ ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس
ص ١٦٥

Scott : op. cit, 1, p. 429

(٣) المقرئ : نهج الطيب ج ٢ ص ٣١٧ ، ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٠٩
ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٥ ،

Deanesly ; op cit. p. 353

الخصو، على نصر كامل فى هذه الجهات (١)، وأخيرا توفى هشام الرضا فى إبريل سنة ٧٩٦ م (صفر ١٨٠ هـ) وخلفه ابنه الحكم .

ولقد دلت الحوادث بعد ذلك أن شارلمان كان ما يزال يحلم بالتدخل فى شئون أسبانيا المسلمة تحقيقا لحلمه القديم فى إقامة إمبراطورية واسعة تعيد ذكرى الإمبراطورية الرومانية القديمة (٢)، لأنه بعد وفاة هشام وولاية الحكم سنة ٧٩٦ ، استغل فرصة اندلاع الثورة ضد الحكم من قبل أعمامه سليمان وعبد الله ، ونشوب الفتنة فى مدن الثغر الأعلى لاسيما فى سرقسطة ووشقة فسار عبد الله إلى الثغر الأعلى وراح يذكى نار الفتنة هناك ، ويجمع الأنصار والأعران لمحاربة ابن أخيه الحكم ، ثم ما لبث أن اقتنع أنه بحاجة إلى عون خارجى ، فقرر عبور جبال البرنية إلى الفرنجة للاستعانة بهم ، وذهب إلى شارلمان فى إكس لاشابل لالتماس عونه (٣) ، فاستقبله هذا بحفاوة بالغة ، على الرغم من أن شارلمان لم يكن يثق كثيرا فى وعود الناقين على الحكم الأموى فى أسبانيا ، خاصة وقد كثرت عروضهم ، فقد أعلن حاكم وشقة وضع مدينته تحت حماية شارلمان وزاد عدد الناقين على الحكم (٤) ، ولكن شارلمان مع ذلك استجاب لدعوة عبد الله وسير معه جيشا عبر به البرنية إلى أسبانيا ، حيث استولى بمعاونة الفرنجة على جيرونة (جيرونة) ثم تقدم نحو مدن الثغر الأعلى ، وفى نفس الوقت تقدم الفرنجة تحت قيادة شارل ولويس

(1) Deanesly . op. cit. p. 353

(2) Scott : op. cit. p. 405

Lévi - Provençal : op. cit. I, pp. 118 — 20

(3) Deanesly ; op. cit. p. 353

(4) Ibid, p. 353

إبنا شارلمان ، فاستولوا على البلاد الواقعة في شمال البرنية (١) ، وأحدثوا بهبة الخراب والدمار والتتل على حين استمر عبد الله في تقدمه في مدن الثغر الأعلى وفي هذه الظروف العصيبة أظهر الحكم نشادا وحزما ، فقد سارع بالمسير نحو الشمال لرد هذا الخطر ، وليس من الواضح بعد ذلك هل جرت اشتباكات بين الفريقين أم لا ، وإنما من الثابت أن الفرنجة أرغموا على الارتداد نحو الشمال ، بعد أن فشلوا في اقتحام مدينة وشقة بعد حصارها فترة ٧٩٧ م (١٨١ هـ) (٢) ، ويبدو أنهم فضلوا الارتداد خشية تكرار ما حدث في المساة السابقة في ممر رونسفال ، ونكت حلفاءهم العهد وتحول مواقفهم في هذا الجزء المضطرب من شمال أسبانيا ، ولما ألقى الشوار في الشمال أنفسهم دون حماية ، واقترب منهم جيش الحكم آثروا العودة إلى حدود الطاعة فاسترد الحكم بذلك سلطانه في سرقسطة ووشقة ولاردة وغيرها من المدن الشائرة في الشمال (٣) ، ثم تحول إلى أعمامه سليمان وعبد الله ، حيث هزمهما وقبض على سليمان قرب قرطبة ، وأمر بإعدامه ، بينما استسلم في النهاية عمه الآخر عبد الله فعفى عنه الحكم كما سبقت الإشارة (٤) .

ومع مطلع القرن التاسع الميلادي ، بدأت مرحلة جديدة من العلاقات بين الفرنجة ومسلمي أسبانيا على عهد الحكم وزاد العداء من جديد ، وتطلع

(1) El-Hajji : op. cit. p. 149

(٢) شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٦٩

(3) El-Hajji : op. cit. pp. 149 — 50

وشكيب أرسلان : نس المرجع ص ١١٩ .

(٤) انظر ما سبق

شارلمان إلى تحقيق حلمه في أسبانيا واستمرار تدخله في شئونها (١)، ودخلت في العلاقات بين الجانبين عناصر هامة جديدة سوف نشير إليها بالتفصيل ولكن يبدو أن عبور المسلمين جبال البرنيه على عهد هشام الرضا ، وغزو سبتانيا قد جدد مخاوف الفرنجة وشارلمان من أن يعاود المسلمون الكرة لغزو فرنسا ، وبدأ الشك والقلق يتتابه بالنسبة لحدودهم الجنوبية في ظل تحفز إمارة قرطبة ورغبتها في استئناف الجهاد في تلك البلاد (٢).

وأهم العناصر الجديدة التي ساعدت على اشتداد الصراع في المرحلة الجديدة بين الفرنجة والمسلمين في أسبانيا ما حدث من استئناف السفارات والرسائل وتبادل الهدايا بين الخلافة العباسية على عهد الرشيد وبين عاهل الفرنجة شارلمان (٣). وكان بين القصير قد أقام علاقات ودية مع الخلافة العباسية ، وتبادل معها السفارات والرسائل ، وقدمت بعثة فرنجية من قبل بين القصير إلى بغداد عام ٧٩٥ م / ١٤٨ هـ ، حيث بقي أعضاؤها نحو ثلاث سنين ، عادوا محملين بالهدايا ، ومعهم رسل الخليفة العباسي المنصور ، وعادت البعثة عن طريق مرسيليا إلى متر بالدورين فبالغ بين في الحفاوة باستقراء المسلمين ، وأنزلهم بقصر سل Sels ، على ضفاف اللوار ، ثم عادوا بعد ذلك عن طريق مرسيليا

(1) Lévi - Provençal : op. cit. I, p. 173 — 80

Deanesly : op. cit. p. 354

Lane - poole : op. cit. p. 74

(٢) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٦٥ ، ص ١٨٢

(3) Deanesly : op. cit. p. 352

Pirenne : Moh. and Charlemagne, pp. 160 — 7

طرخان : المرجع السابق ص ١٩٢ — ١٩٥ ، أرسلان : نفسه ص ١٧١

أيضا (١) ، واستأنف شارلمان السفارات والرسائل مع الخلافة العباسية استمرارا لهذه العلاقات الدبلوماسية ، وأرسل هارون الرشيد لشارلمان هدايا ثمينة من بينها فيل أصبح مدلا في البلاط الفرنجي (٢) .

حقيقة صممت المصادر الاسلامية عن ذكر شيء من هذه السفارات ، وعن تبادل المبعوثين والرسائل والهدايا ، إلا أن رواية اينهارت مؤرخ شارلمان وكاتب سيرته والأثير لديه ، لم تترك لنا فرصة استبعاد قيام هذه الصلات ، ذلك أن اينهارت صرح في غير موارد بقيام هذه الصلات اذ قال :

« وتعاظمت شهرة مملكته (شارلمان) بمعاهدات الصداقة التي عقدها مع مختلف الملوك والأمم ... فكان هارون ، ملك الفارسيين (يقصد الشرق) يحكم كل بلاد الشرق تقريبا باستثناء الهند ، قد ربطته بالملك (شارلمان) مثل هذه الصداقة القلبية (٣) . بحيث أنه وضع منزلة شارل فوق كل منارل الملوك والأمراء في العالم ، وأيقن أنه فقط الذي يستحق أن يبجل وأن يكون خليقا باحترامه وإكرامه ، وحين أتى الضباط الذين أرسلهم الملك (شارلمان) يحملون عروضاً تخص القبر المقدس العظيم ، ومكان البعث لسيدنا الأعظم ومنقذنا السيد المسيح (كنيسة القيامة) إلى هارون ، وأعلنوا رغبة سيدهم ، فإنه لم يعطهم فقط تصريحاً ليفعلوا ما يريدون ، ولكنه وافق على أن تعتبر تلك البقعة المقدسة المبجلة ، كما لو كانت من أملاك الملك شارل ، وحين رحل

(1) Deanesly ; op. cit. I, p. 294 , Pirenne : op. cit. p. 160

ديفز : شارلمان ص ٢٩٥ (ترجمة العريضي) ، طرخان : نفسه ص ١٧١

(2) Davis : A Hist. of Med. Europe, p. 178 (n. 1)

(3) See : Einhard : op. cit. p. 144

السفراء عائدین أرسل معهم مبعوثیه الخصوصیین ، الذین نقلوا إلى الملك هدايا غریبة ومثيرة مع أثواب وتوابل (١) ، وغيرها من منتجات الشرق الثمينة ، مثلما كان قد أرسل إليه قبل ذلك بسنوات قليلة ، وحسب طلبه الفیل الوحيد الذي كان يملكه ... » (٢) .

وإذا علمنا أن اینهارت هو زوج ابنة شارلمان والأثير لديه ، وكانت سيرته ، تأكدنا أن هذه العلاقات بين الرشيد وشارلمان كانت حقيقية وصحيحة ويؤيد ذلك ما درج عليه العباسيون منذ عهد المنصور من محاولة إقامة علاقات ود وصداقة مع الفرنجة ، لمناوأة إمارة قرطبة الأموية ، التي ساء العباسيون قيامها في هذا الجزء من العالم الاسلامی ، ونجاحها في الحفاظ على استقلالها وسيادتها ، ودحر كل محاولة عباسية أرسلت للقضاء عليها (٣) ، والتقت رغبة الرشيد مع رغبات شارلمان الذي كان يحاول إضعاف الإسلام في أسبانيا ، والقضاء على سيادة إمارة قرطبة ، وحماية حدوده الجنوبية ، وضم الأجزاء الشمالية من أسبانيا إن أمكن إلى دولته إحياء لمشروعاته القديمة ، ولابد وأن تبادل الرسائل والمبعوثين والسفراء في هذا الوقت بالذات أي في السنوات الأولى للقرن التاسع الميلادی (بين سنتی ١٨١ هـ و ١٨٥ هـ) ، له علاقة

(١) انظر نص رواية اینهارت :

Chapter 16, p 144

(2) Einhard : op. cit. p. 145

(3) Deanesly : op. cit, p. 294

Pirenne : op. cit. p. 160

دينز : شارلمان من ١٩٥ (ترجمة العربي)

(4) Lane - Poole : op. cit. p. 33

باستئناف العداء الشديد بين الفرنجة والأمويين في أسبانيا ، ومحاولة شارلمان التدخل من جديد في أسبانيا في هذه الحقبة ، إرضاء لحليفه الجديد الخليفة العباسي من ناحية وتحقيقا لمطامعه في أسبانيا من ناحية أخرى (١) .

هذا هو أحد العناصر الجديدة في الأحداث وفي الصراع بين الفرنجة والمسلمين في أسبانيا ، وهناك عنصر آخر لابد وأن له علاقة أيضا باشتداد الصراع في هذه المرحلة ، وأعني به التقارب بين شارلمان والبشكنس لاسيما أن أمير جيليتية ألفونسو الثاني الذي ولى في السنوات الأخيرة من القرن الثامن ، والذي عمل شارلمان على التحالف معه ضمانا لمعاونة البشكنس في المشروعات الجديدة من ناحية ، وعدم التعرض لمكائد البشكنس أثناء هذه المشروعات الحربية من ناحية أخرى (٢) ، وتشير الدلائل إلى أن ألفونسو والبشكنس لم يكن يمنعهم شيء من التحالف مع الفرنجة في هذه المرحلة خاصة بعد أن مرحت جيوش المسلمين في بلادهم على عهد عبد الرحمن ، وابنه هشام وحفيده الحكم ، وبعد أن فشلوا أكثر من مرة في مناوأة المسلمين وتعرضوا لأشد أنواع التنكيل من قبل حكام قرطبة المسلمين (٣) . ولعل ذلك كله كان من الأسباب التي شجعت شارلمان على المضي في إعداد جيوشه ، والتمهيد لمشروعاته في أسبانيا في هذه المرحلة الجديدة .

وإذ كانت دولة الفرنجة مهمة كثيرا بحماية جنوب فرنسا وتأمينها من

(١) دفر : شارلمان ص ٣٠١ — ٣٠٤ ، أرسلان : تاريخ غزوات العرب

ص ١٣٢ — ١٣٣ ،

Pirenne : op. cit. p. 160 — 7

(2) Deanesly : op. cit. . 354

(٣) المقرئ : نفع الطب ج ١ ص ٣١٢ ، ابن هذاري : البيان ج ٢ ص ٧٧

خطر الغزو الإسلامي ، فقد جددت — قبل ذلك — في إنشاء ولاية فرنجة تكون حاجزا بين المسلمين ومملكة الفرنجة ، وضمت هذه الولاية أو النغر مدن: جيرونة (جيرندة) ، وأوزونة وسولسونة وما حولها مما استطاع الفرنجة اقتطاعه من أراضي أسبانيا الإسلامية (١) ، غير أنه في المرحلة الجديدة من الصراع ، طمع شارلمان في الاستيلاء على نغر برشلونة الحصين ليحمي أملاك الفرنجة جنوبى البرنيه ، ويكون حلقة اتصال بحرى بين هذه الولاية من جهة ومملكة الفرنجة من جهة أخرى ، ولقد أمدت الثورات المندلعة في شمال أسبانيا وما ماجت به المنطقة من فتن وثورات شارلمان بفرصة جديدة لد نفوذه وتوسيع نطاق أملاكه في الشمال الشرقى لأسبانيا ، كما قرن ذلك بمحاولة التعاون والتحالف مع البشكنس ، وأميرهم ألفونسو الثانى ، رغبة في كفالة كافة الضمانات لنجاح مشروعه الجديد في أسبانيا (٢) .

وفي مطلع القرن التاسع الميلادى أى سنة ٨٠١ (١٨٥ هـ) ، بدأ شارلمان مشروعه الكبير في أسبانيا بأن بعث بجيش كبير للاستيلاء على برشلونة تحت قيادة ابنه لويس أمير أكويتين ، وانقسم هذا الجيش إلى قسمين : قسم تحت قيادة حاكم جيرونة (٣) وكانت مهمته أن يتقدم لمحاورة برشلونة ذاتها ، والقسم الثانى تحت قيادة جيووم كونت تولوز ، وكانت مهمته أن يربط بجنوب غرب برشلونة بين لاردة وطركونة لمنع وصول أى مدد إلى برشلونة أثناء حصارها (٤) ، ولقد شدد الفرنجة الحصار على برشلونة وجدوا في إسقاطها (٥) ،

(١) أرسلان : تاريخ غرباء العرب ص ١٧٨ ،

Jackson : op cit. p. 18

(٢) Deanesly : op. cit. p. 354

(٣) Lévi - Provençal ; op. cit. I p. 179

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ١٦٩

(٥) Lyon, Rowen, Hamerow op, cit, pp. 114 — 15

ووجد واليها - سعدون الرعيني - نفسه في مأزق كبير لا يستطيع أن يؤمل في
تجدة أو مدد من ولاية الثغور المجاورة وأكثرهم خارج على حكومة قرطبة أو
يضمم الخروج عليها ، ولا من الإمارة ذاتها نظرا لانشغال الحاكم نفسه في قمع
الثورات ، لاسيما ثورة عمه عبد الله من ناحية ، ولمرابطة جيش فرنجي في
الطريق إلى برشلونة لمنع أي مدد عنها من ناحية أخرى (١) . وعلى الرغم من
هذه الظروف الحرجة فقد صمد والي برشلونة وصمم على الدفاع عن مدينته
وصد هجمات الفرنجة ، وعانت المدينة كثيرا من نقص الأقوات وقلة الزاد ،
وزاد في سوء أحوالها وصول جيش فرنجي جديد تحت قيادة الملك لويس بن
شارلمان ليشدد الحصار على المدينة ويفتح كل المنافذ إليها ، ويجد في فتح
الثغرات في سورها (٢) ، ولم يجد والي المدينة بدا من الخروج بنفسه لمحاولة
الوصول إلى قرطبة والتماس عون أميرها الحكم ، وشاء سوء حظ هذا الوالي
أن يقع في أيدي الفرنجة ، ويجري أسره بمعسكرهم (٣) ، وكانت هذه الحادثة
بداية النهاية في صمود المدينة ، فقد هلك آلاف من أهلها من الجوع والحرب
وساءت أحوالها كثيرا ، ولم تعد قادرة على الصمود ، ونجح الفرنجة في فتح
ثغرات عديدة في أسوارها ، فاضطرت المدينة الباسلة إلى التسليم بعد حصار
امتد نحو سبعة أشهر (٤) ، ودخلها الفرنجة وغنموا منها غنائم كثيرة ، لاسيما
من الأسلحة من الدروع والخيول المسرجة بأفخر السروج والخيود ، وأرسل

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٦٨

(٢) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٧٠ - ١٧١

(٣) Lévi - Provençal : op. cit. ١, pp. 180 - 1

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٦٩

لويس جزءا من هذه الغنائم إلى والده شارلمان^(١)، ودخلت برشلونة في حوزة الفرنجة بعد أن بقيت في أيدي المسلمين نحو تسعين سنة^(٢)، وعدد ذلك أمرا خطيرا لأن السيادة الفرنجية امتدت كثيرا إلى جنوبي البرنيه ، ولأن الفرنجة بادروا بجعل هذه المدينة قاعدة لشغرم الجديد لتتخذ مكان جبرندة وتلعب دورها في المنطقة الشمالية الشرقية لأسبانيا المسماة^(٣) . ولجأ الفرنجة إلى تثبيت أقدامهم في هذه الجهات ، وجعلوا أساقفة هذا الإقليم تابعين لرئاسة أسقفية نابون ، وربطوا النظام الديري في ذلك الإقليم بالتنظيمات الديرية الفرنسية^(٤) ، لكنهم رأوا ضمنا لاستمرار تواجدهم أن يختاروا الحاكم على برشلونة من أصل قوطي أو فرنجي ، فشعر حكام هذا الإقليم بنوع من الاستقلال ، وقدر من الحرية في ولايتهم ، وحينما واتتهم الفرصة أعلنوا استقلالهم التام^(٥) . عن سلطة الفرنجة ، اعتمادا على بعد الشقة وعلى ما كان يجري في فرنسا من أحداث ، وتحول الشغرم الفرنجي بمرور الوقت إلى إمارة نضرائية عرفت فيما بعد بإمارة قطالونيا ، والتي اندمجت بعد ذلك في مملكة أراجون القوية^(٦) ، ولكن ترتب على فقد المسلمين لشغرم برشلونة ، أن تقهقرت حدودهم إلى مدن الشغرم الأعلى .

(1) Lévi — Provençal : op. cit, I, pp. 178 — 80

Lane - Poole : op. cit. p. 74

Deanesly : op. cit. p. 354

(٢) المقرئ : لفتح الطب ج ١ ص ٣١٧

ان الاثر : الكامل ج ٦ ص ١٦٩

(3) Jackson : op. cit, p. 18

(4) Ibid, p. 18

(٥) ارسلان : الحلل السندسية ج ١ ص ٢١٦ — ٢١٧

(6) Lévi — Provençal : op. cit, I, p. 181

Deanesly : op. cit, p. 354

وفقدوا أهم نقط ارتكازهم في هذه الجهات ، وقواعد انطلاقهم إلى ما وراء البرنيه .

ويبدو أن نجاح شارلمان في الاستيلاء على برشلونة قد شجعه على محاولة التوغل جنوبا ومد نفوذه إلى أبعد منها لاسيما على الساحل لتدعيم الإقليم الفرنجي الجديد في شمال شرق أسبانيا وتوسيع رقعته^(١)، لأنه عاد بعد سنوات أي في سنة ٨٠٨ م (١٩٢ هـ) ، فأرسل جيشا بقيادة ابنه لويس مهاجمة الثغر الأعلى في أسبانيا ، ومحاصرة مدينة طرطوشة على الساحل جنوبى برشلونة ، غير أن الحكم — أمير قرطبة — جد في هذه المرة في الدفاع عن البلاد ، وأرسل جيشا كثيفا إلى الشمال بقيادة ولده عبد الرحمن، نجح في إرغام الفرنج على الارتداد إلى أراضيهم والتخلي عن مشروعاتهم في الاستيلاء على طرطوشة في ذلك العام^(٢) ، وان لم يمنع ذلك الفرنجة من محاولة إعادة الكرة في العام التالى (٨٠٩ م) ، إذ عادوا إلى محاصرة طرطوشة بقيادة لويس أيضا لكن الحكم بعث بابنه عبد الرحمن في هذه المرة أيضا لقتالهم فأنحاز إلى عبد الرحمن عمال الثغور الشمالية، لاسيما الثغر الأوسط والثغر الأعلى في قواتهما ونشبت بين المسلمين والفرنجة عدة معارك ، انتهت بهزيمة الفرنجة هزيمة ساحقة وفك الحصار عن طرطوشة سنة ١٩٣ هـ^(٣) ، وعاد الأمير الحكم بعد نحو عامين يحاول في

(١) Jackson : op. cit p. 18

(١) ان حيان : المقتبس في تاريخ رسال الأندلس لوحة ٩

هنا : المراجع السابق ج ٢ ص ٢٢٢ ، أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٧٨

El - Hajji : op cit. p. 150

(٣) ان عذارى : المراجع ج ٢ ص ٧٢ — ٧٣ ، ان حيان : المقتبس لوحة ٩٠

أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٧٨

الشمال ضد الفرنجة ، فبعث جيشا بقيادة عمه عبد الله ، فغزا قطالونيا ، وهاجم مدينة برشلونة قاعدة الثغر الفرنجى ، وأنزل بالفرنجة بعض الهزائم ، لكنه فيما يبدو لم يحرز فتوحا ثابتة أو يستولى على قواعد فى هذه الجهات ^(١) ، وأحس الجانيان بعقم هذه الحروب وكرها آثارها المدمرة ، فبالا إلى المهادنة والصلح ، ولعل الأمير الحكم آثر ذلك بسبب مشاغله العديدة وقيامه بإخضاع الثورات المتأججة فى كل مكان ، واستفحال أمر إدريس بن إدريس فى المغرب ، وتوجس الحكم من عواقب هذه الحركة بالنسبة لحكمه فى الأندلس ^(٢) ، ولهذا عجلت هذه الأحداث بعقد صلح ومهادنة بين الأمير الحكم أمير قرطبة وبين شارلمان عاهل الفرنجة ، واستمر هذا الصلح ساريا فى السنوات التالية حتى وفاة شارلمان فى سنة ٨١٤ م (١٩٩ هـ) ^(٣) .

وعلى عهد لويس التقي (٨١٤ — ٨٤٠ م) ، الذى عاصر عهده شطرا كبيرا من عهد الأمير عبد الرحمن الثانى أو الأوسط (٨٢٢ — ٨٥٢ م) ، تابع الفرنجة سياستهم العدائية ضد الإمارة الأموية بالأندلس ، وحاولوا التدخل فى شئونها أيضا امتدادا لسياسة شارلمان من قبل ، وعول لويس فى ذلك على إخضاع البشكنس أولا ليؤمن طرق العبور إلى شمال أسبانيا تماما ، ثم التحول لمهاجمة المسلمين هناك ^(٤) ، فقد أرسل لويس التقي فى سنة ٨٢٤ م (٢٠٩ هـ) جيشا تحت قيادة اثنين من الكونتات هما أزنار وإبلو لمهاجمة البشكنس

(١) ابن مغازى : البيان ج ٢ ص ٧٢ ،

El-Hajji : op. cit, p 129

(٢) البلاوى : الامتعة لاخبار دول المغرب لأهى ج ١ ص ٧١ — ٧٢

(3) Lévi - Provençl : op. cit 1, p. 184

(4) D:anesly : op, cit, p, 354

وإخضاعهم ، إلا أن هؤلاء ما لبثوا أن استغاثوا بحيرانهم المسلمين لدفع الخطر المشترك ، ويدعو أن الذين نهضوا لمساعدتهم من المسلمين هم بنو موسى أو بنو قسي أصحاب تطيلة بموافقة حكومة قرطبة وبتأييدها ، وتعاون البشكنس والمسلمون في قتال الفرنجة ، ونجح الحلفاء في إنزال هزيمة ثقيلة بجيش الفرنجة وتبديد شمله (١) ، وجرى أسر قائدى الفرنجة فأطلقوا سراح الأول وأرسل الثانى إلى قرطبة حيث جرى اعتقاله لفترة . وتشير الروايات إلى أن هزيمة الفرنجة فى هذه الموقعة لا تقل أهمية عن هزيمتهم فى باب الشيزروا ، على عهد شارلمان قبل ذلك بنحو ستة وأربعين عاما ، وأن فشل الفرنجة فى إخضاع البشكنس والتحول إلى المسلمين إنما أوقف مشروعات لويس التقي فى شمال أسبانيا ، وأقنعه بضرورة التزام الحذر فى علاقاته مع سكان هذه البلاد (٢) ، بل كان رد الفعل عنيفا فى الثغر الفرنجى فى شمال شرق أسبانيا ، فقد أصر حكام هذا الثغر على الانفصال عن دوقية تولوز ، وأجبيو إلى طلبهم بمقتضى براءة سنة ٨١٧ م ، فانفصلت بذلك الأراضى الواقعة فى جنوب البرنيه وألفت مع سبتمانيا ولاية خاصة أو ثغورا متميزة (٣) ، وإن لم يؤد ذلك إلى توقف هجمات فرنج الثغر القوطى فى أقصى الشمال الشرقى لاسبانيا ، وأميرهم فى ذلك الوقت من الفرنجة ويدعى برنهارت ولدجيووم دوق تولوز ، وكان أميرا على برشلونة قاعدة الثغر الفرنجى أو القوطى ، فقد أغار فرنجة ذلك الثغر على أطراف الثغر الأعلى الأسبانى تحت قيادة صاحب برشلونة بعد تلك الأحداث بنحو ثلاث سنوات ٨٢٨ م (٢١٢ هـ) (٤) ، غير أن الأمير عبد الرحمن الأوسط بعث إلى

(١) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٩٢

(٢) Levi - Provençal : op. cit. I pp. 198 — 9

(٣) أرسلان : الحلال السندسية ج ٢ ص ٢١٦ — ٢١٧

(٤) El - Hajji : op. cit. p 150

الشمال بجيش كبير بقيادة عبيد الله بن عبد الله البلمسي ، فاجتاح ولاية قطالونيا ، وأنزل بالفرنجة هناك عدة هزائم ، وتقدم حتى بلغ جيرونا ، ولكنه فيما يبدو لم يجرز فتوحات ثابتة وإن اكتفى بتلقين فرنجة ذلك الثغر درسا وارند إلى الجنوب ظافرا (١) . وعلى أثر هذه الهزائم بادرت السلطات الفرنجية بعزل هيو دوق تور وطرده من منصبه سنة ٨٢٨ م لأنه تخلى عن نصرته الإمبراطور ، ولم يبادر بالذهاب إلى برشلونة والثغر الفرنجي لمحاربة المسلمين ، وفي نفس العام قام المسلمون بغزو سواحل فرنسا ، فأنحدر إليهم لوثر ابن الإمبراطور لويس لمقاتلتهم لكنهم كانوا قد انسحبوا (٢) . ولقد تابع لويس التقى سياسته في أسبانيا وتحين الفرص لإثارة القلاقل في وجه أمير قرطبة ، فحينما اندلعت ثورة البربر في طليطلة وماردة ، وجد لويس التقى فرصته للدرس والتحريض على حكومة قرطبة ، فبعث إلى قادة الثورة في ماردة يشجعهم ويعددهم المدد والمؤازرة (٣) ، غير أن هذه الثورة انتهت بالفشل وبمقتل زعيمها واستسلام كثير من أعوانه للأمير عبد الرحمن (٤) .

وأظهر لويس التقى عداؤه لمسلمي أسبانيا في ميدان آخر، حين بسط حمايته على الجزر القريبة من سواحل الأندلس ، مثل جزر البليار وسردينيا وقورسيقا ، وقبل حكام هذه الجزر الحماية الفرنجية ، وساروا في ركاب

(١) ابن هذاري : البيان ج ٢ ص ٨٣ ، أرسلان : غزوات العرب ص ١٩٣

(2) Daniel : The Arabs and Med, Europe, p. 60

(3) Scott : Moorish Empire in Europe, I, p. 482

وانظر عنان : المرجع السابق ج ١ ص ٢٥٧ ، أرسلان : نفسه ص ١٩٢ — ١٩٣

(٤) ابن هذاري : البيان ج ٢ ص ٨٤ : ابن الهوطية : تاريخ افتتاح الأندلس

الكارولنجيين (١) . غير أن الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وجد أن هذا الميدان يمكن أن يكون للمسلمين التفوق فيه نظرا لعدم عناية الفرنجة بالبحر والأساطيل منذ عهد شارلمان (٢) ، وضعف قواتهم البحرية بالنسبة لقوات المسلمين ، لأنهم اعتمدوا في حروبهم أساسا على الجيوش البرية . وعلى الرغم من أن القوات البحرية الأندلسية لم تكن قد استكملت تمام قوتها على عهد هذا الأمير ، إلا أنها إذا قورنت بقوات الفرنجة تأتي في مرتبة أقوى منها بكثير ، ولهذا حينما ظهر الأسطول الفرنجي في مياه سردينيا دمره الأسطول الإسلامي في الأندلس ، وحاول لوثر ابن لويس التقى القيام بحملة على قورسيقا ، ولكنه فشل في ذلك لتقرب وتحيز الأسطول الأندلسي بالقرب من سواحل هذه الجزر (٣) . ولقد بادر الأمير عبد الرحمن بحشد قواته البحرية على طول السواحل الأندلسية الشرقية ، خاصة فيما بين طرطوشة وبلنسية ، وأتبع ذلك بشن هجمات مستمرة على الشواطئ الفرنجية في جنوب فرنسا فيما بين سنتي ٨٣٩ م و ٨٥٠ م حتى نجح في القضاء على قواعد المقاومة في تلك المناطق مثل مرسيليا وآرل والمناطق المجاورة (٤) ، واستاق المسلمون جميع الرجال في تلك النواحي وأسروا الرهبان ، ويقال أن الراهبات في دير مرسيليا خشين من الغزاة على أعراضهن فشرهن خلقة أنفسهن بجذع الأنوف حتى يـكن في

(١) Deanesly : op cit. p. 354

وارسلان : نفسه ص ١٨١ — ١٨٢

(٢) Pirenne : op. cit. p. 159

(٣) ابن عذاري : البيان ج ٢ ص ٨٩ ، أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٩١

(٤) Hoyt and chodorow : op, cit: p, 194

حسين مؤنس : المسلمون في حوض البحر المتوسط ص ١٢٩

مأمن من تجاوز الغزاة (١) . وبحول الأسطول الأندلسي إلى الهجوم على الجزر الخاضعة لحماية الفرنجية لاسيا جزر البليار ، التي دأبت في تلك الفترة على مهاجمة السفن الإسلامية المتجهة إلى سواحل الأندلس والخارجة منها ، وحينما زادت وطأة الأسطول الأندلسي على هذه الجزر ، اقتنع حكام هذه الجزر بعدم جدوى الحماية الفرنجية ، فقبلوا سيادة الأمويين وتعهدوا بعدم التعرض للسفن الإسلامية (٢) .

وبعد وفاة لويس التقي انقسمت الإمبراطورية الفرنجية إلى ثلاثة أقسام ، بمقتضى معاهدة فردن سنة ٨٤٣ م ، وحكم الجزء الشرقي منها لويس الجرمانى ، والقسم الأوسط لوثر ، والقسم الغربى شارل الأصلع ، وسارت الأمور في الإمبراطورية الكارولنجية بحيث لا تؤدي إلى خطورة على حكام قرطبة الأمويين نظرا لما اندلع من الفتن في الممالك الثلاث ، ونشوب الحروب الأهلية في دولة الفرنجة ، ومع هذا ظلت العلاقات الفرنجية الأسبانية تتسم بالعداء (٣) ، وأتيح لحكام قرطبة أحيانا التدخل في شئون الفرنجة وتشجيع الثورات ضد أبناء لويس التقي ، ولقد طاهر أبناء لويس التقي السنوات العشر الأخيرة من حكم الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وتشير بعض النصوص إلى أنه في سنة ٨٤٧ م (٢٣٣ هـ) اندلعت ثورة ضد الفرنجة في الثغر الفرنجي في شمال شرق أسبانيا

(1) Hoyt and chodorow . op cit, p. 192

أرسلان : نفس المرجع ص ١٧٥

(٢) ابن حيان : القسم الخامس بعد الرحمن الأوسط (نشر محمود مكى) ، والعبادى : المرجع

الساق ص ١٤٧

ابن هذارى : البيان ج ٢ ص ٨٩

(3) El - Hajji : op. cit. pp. 151 — 2

أرسلان : نفسه ص ١٩٥

يقودها ثائر يدعى جان دي تولوز ، الذى طرح طاعة شارل الأصلى ملك الفرنجة ، وأعلن الخروج عليه وكان قد وفد فى العام السابق على بلاط قرطبة يلتبس من الأمير عبد الرحمن العون والتأييد (١) ، ووجد الأمير عبد الرحمن الفرصة مواتية لمضايقة الفرنجة والانتقام منهم ، فاستقبل هذا الثائر بترحاب كبير وأمدده بالمساعدة ، وبعث به إلى الثغر الأعلى وأوصى والى طرطوشة ووالى سرقسطة بإمداده وتأييده ضد ملك القسرج ، فأخذ هذا الثائر يعيث الفساد فى الثغر الفرنجى ، وحاصر برشلونة وضرب حصونها (٢) . غير أن هذه الثورة لم تؤد إلى نتائج حاسمة فى العلاقات بين الجانبين ، لأن شارل الأصلى ما لبث أن دخل فى مفاوضات مع أمير قرطبة عبد الرحمن ، وعقد معه صلحا ، ليحل السلام بينهما بدلا من الحرب والقتال ، ولكنه كان بمثابة هدنة بين الطرفين لم يمنع من استمرار الروح العدائية بين الجانبين (٣) .

ولقد دخلت الإمبراطورية الكارولنجية فى فترة اضطرابات وانقسامات داخلية وران عليها ضعف واضمحلال ، بعد وفاة أبناء لويس التلى الثلاثة ، واقتسم أحفاد لويس التلى أركان الإمبراطورية ، وتكاثرت المحن عليها ، واندلعت الحروب الأهلية بين ربوعها وزاد تجزأ الإمبراطورية وانقسامها (٤) ، وانتقل التاج فى فرنسا من شارل البسيط إلى أودو كونت باريس ، وعند وفاته عاد شارل البسيط إلى عرش فرنسا من جديد سنة ٨٩٨ م وظل يحكم هذا

(١) Reinaud : Mus. col. pp. 119 — 20

(2) Lévi - Provençal : op. cit. 1. pp. 211 — 12

(٣) أرسلان : الحلال السديية ج ٢ ص ١٢٣

Reinaud : Mus. Col p. 120

El - Hajji : op. cit. p. 150

(4) Camb. Med Hist. V. III, p. 34

الجزء من الإمبراطورية الكارولنجية حتى وفاة سنة ٩٢٩ م ، ولقد منح شارل البسيط خلال هذه الفترة دوقية نورمانديا لرعيم النورمان رولو سنة ٩١٢ م ، فبدأت مرحلة جديدة في تاريخ فرنسا وتاريخ النورمان بغرب أوروبا (١)

وهذه الفترة الطويلة تعاصر في أسبانيا عهد كل من الأمير محمد بن عبد الرحمن ٨٥٢-٨٨٦ م وابنه المنذر وابنه الثاني عبد الله ٨٨٦-٩١٢ م ، وتمثل هذه الفترة الثلثين الأخيرين من القرن الثالث الهجري تقريبا (٢٣٨ — ٣٠٠ هـ) ، وباستثناء بعض الاشتباكات القليلة بين الفرنجة ومسلمي أسبانيا في هذه الفترة لا نجد مشروعات حرية هامة بين الجانبين (٢) ، بل إن معظم ما جرى من اشتباكات بينها في هذه الفترة جاء على غير المستوى الرسمي ، فحين لجأ مناهضو شارل الأصلع إلى المسلمين لطلب المعونة سنة ٨٧٧ م أهدم المسلمون بالجند وقدموا لهم المساعدة التي أجبرت شارل الأصلع على طلب الصلح ، على حين لم يكف المسلمون عن قرع أبواب فرنسا ، فنزلوا في بروفانس سنة ٨٦٩ م (٢٨٣ هـ) ، وحاولوا الاستقرار في هذا الإقليم (٣) . وساعدت أحوال الإمبراطورية الكارولنجية على استقرار المسلمين في جنوب فرنسا ، فقد استقل يوزر Boïso دوق بروفانس بأكويتين ، وأعلن نفسه ملكاً بمساعدة رجال الدين والنبلاء المحليين ، وذلك بعد وفاة شارل الأصلع بسنتين في أكتوبر سنة ٨٧٩ م ،

(١) محمد الشبخ : الممالك الجرمانية في أوروبا في العصور الوسطى ص ٢٨٦ ،

Haskins : op. cit. pp 26 — 7

(2) Lévi — Provençal ; op cit. I, pp. 225 — 239

(٣) مؤنس : المسلمون في حوض البحر الأبيض ص ١٢٩ — ١٣٠ ، طرخان : المسلمون

في أوروبا ص ٢٠١

وضمت مملكة بوزو حوض نهر الرون من آرل حتى ليون (١) ، وتعددت الثورات التي تزعمها مقدموا الأديرة والنبلاء ، وكل ذلك أغرى المسلمين بالاستقرار في الجنوب. ثم ساد السلام بين الجانبين وتبودلت السفارات والرسائل. الدبلوماسية بينهما ، ولهذا لا نستطيع القول أن العداء بين الفرنجة والمسلمين ، قد بلغ في هذه الفترة ما بلغه في السنوات السابقة ، وإن تحول العداء بين الجانبين إلى عداء بين النورمان ومسلمي الأندلس ، على أساس أن نورمانديا أصبحت جزءا من فرنسا اعتبارا من وقت معاهدة سان كلير سنة ٩١٢ م التي أبرمت بين شارل البسيط وروالو زعيم النورمان كما أسلفنا (٢) .

وعلى عهد شارل البسيط في فرنسا والأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن في أسبانيا جرى فتح جزر البليار على أيدي المسلمين ، وتبعيتها لحكومة قرطبة ، وكان الأمير عبد الرحمن الأوسط قد غزا هذه الجزر الشرقية سنة ٨٤٨ م (٢٣٤ هـ) ، ونكل بأهل ميورقة بالذات لتعرضهم لسفن المسلمين القادمة إلى سواحل الأندلس والخارجة منها ، وأجبرهم على دفع الجزية ، وتقديم الولاء لحكومة قرطبة (٣) ، واضطر حكام هذه الجزر إلى قبول الحماية الإسلامية بعد أن تأككوا من عدم جدوى الحماية الفرنجية ، لانشغال دولة الفرنجة بمنازعاتها الداخلية من ناحية ، وضعف أساطيلها البحرية بالمقارنة

(1) Deanesly : op. cit. p. 461

(2) Oaskins : op. cit. p. 45

Hallam : op. cit. p. 16

Hoyt and Ghodorow : op. cit. p. 192

(٣) ابن هزاري : البيان ج ٢ ص ٨٩

(4) Lévi - Provençal : op. cit, I, p. 200 , p. 260

بجاساطيل المسلمين من ناحية أخرى (١). وفي أواخر عهد الأمير عبد الله أي
 في سنة ٩٠٣ هـ (٢٩٠ هـ) ، جرى فتح جزيرة ميورقة حين سير الأمير عبد الله
 القائد عصام الخولاني إليها في قوة بحرية من المجاهدين ، فشدد الحصار على
 الجزيرة ، وتابع ضرباته في جهاتها حتى استسلمت ودخلها المسلمون ، وجاءتهم
 الإمدادات من سواحل الأندلس ، وتولى حكمها الوالي عصام الخولاني ،
 وأقره الأمير علي ولايتها . وهكذا دخلت جزر البليار أو الجزر الشرقية في
 حظيرة الدولة الإسلامية والتبعية لحكومة قرطبة (٢) . ويذكر أن عصام
 الخولاني هذا كان قد جنحت به سفينة من قبل إلى سواحل ميورقة بينما كان
 في طريقه إلى الشرق لأداء فريضة الحج ، فاختر الجزيرة ورأى مبلغ ضعفها
 وبقية الجزر الشرقية وإمكانية فتحها بسهولة فعرض مشروعه على الأمير عبد الله
 الذي وافقه وأرسله على رأس تلك القوة التي تمكنت من فتحها (٣) .

ولعل الأهم من ذلك كله ما جرى في تلك الفترة من غزوات النورمان
 وهجماتهم على أسبانيا بعد أن أصبحت نورمانديا جزءا من فرنسا واعتنق
 النورمان المسيحية ، واندمجوا في الحياة الاجتماعية والمجتمع الفرنسي ، وبدأوا
 بدورهم باعتبارهم أهل دوقية فرنسية ، أقيمت في جزء من فرنسا ، في بدايات
 القرن العاشر الميلادي . وما لبثت هذه الدوقية أن شكلت خطرا كبيرا
 على أسبانيا عن طريق الحملات والاغارات البحرية التي كانت تهاجم السواحل
 الغربية الأندلسية (٤) ، وكذلك عن طريق الحملات البرية التي كانت تعبر جنوب

(١) ابن هزاري : البيان ج ٢ ص ٨٩

(2) Lévi - Provençal : op. cit. I, p. 395

(٣) ابن خلدون : العبرج ٤ ص ١٦٤

(4) Dozy : Les Normands en Espagne, dans Reck, II, p. 250—
 371

Lévi - Provençal : op. cit. I; p. 218

فرنسا ثم تغير على الثغور الأندلسية الشمالية . حقيقة اشتدت الحملات البرية على
على شمال الأندلس التي قام بها النورمان في الفترة التالية ، وبلغت ذروتها في
القرن الخامس الهجري على عهد ملوك الطوائف (القرن الحادي عشر الميلادي)
حينما استولى النورمان على قلعة بربستر Barbestro شمال سرقسطة سنة
١٠٦٤ م (٤٥٦ هـ) ، إلا أن بعض المصادر الإسلامية لاسيما العذري ، أذنت
أن هذه الإغارات النورمانية البرية ، على مناطق الثغر الأعلى وسرقسطة ، ترجع
إلى ما قبل ذلك ، إلى أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر ، بل ربما قبل ذلك على
عهد الأمير عبد الله بن محمد ، وتركزت على عهد الأمير عبد الرحمن الناصر كما
يقدر العذري (١) .

وبعد وفاة شارل البسيط سنة ٩٢٩ م وحتى آخر الفترة الكارولنجية ،
عادت فرنسا إلى عهد الاضطراب والانقسام والتفتت واندلاع الحروب
الأهلية ، وتقلب على عرشها في أجزاء مختلفة أكثر من ملك منهم رؤول
(٩٢٣ — ٩٣٦) ولويس الرابع بن شارل البسيط (٩٣٦ — ٩٥٤ م) الذي
نازعه هيو الكبير على السلطة ، ولكنه ترك العرش لابنه لوثر (٩٥٤ —
٩٨٦ م) الذي نازعه هيو كاييه بن هيو الكبير وانتهى الأمر بقيام أسرة
كاييه في العرش سنة ٩٨٧ م (٢) . وتعاصر هذه المرحلة حكم الخليفة عبد الرحمن
الناصر (٩١٢ م — ٩٦١ م) وابنه الحكم الثاني (٩٦١ — ٩٧٦ م) . وحرص
حكام الإمبراطور الفرنسية في قسمها الشرقي وقسمها الغربي على إقامة علاقات
الود والصداقة مع حكومة قرطبة ، فضلا عن البابوية في روما على عهد البابا

(١) العذري : ترصيع الأخبار ص ٧٢ — ٧٣ ، وانظر العبادي : المرجع السابق .

ماريتوس الثاني (٦٤٢ — ٩٤٦ م = ٣٣١ — ٣٣٥ هـ) والبابا اجايتوس الثاني (٩٤٦ — ٩٥٥ م = ٣٣٥ — ٣٤٤ هـ)^(١) ، وخطب الحكام والملوك ود الخليفة عبد الرحمن الناصر ، نظرا لما احتلته قرطبة من مكانة بين عواصم الدنيا في ذلك الوقت، ووفدت السفارات إلى قصر الخلافة متتابعة^(٢) - كما سيلى - وأرسل الخليفة الناصر سفارة إلى روما طلبا لبعض الأعمدة ومخلفات الآثار ، والأطلال الرومانية ، ليزين بها مدينة الزهراء ، التي حرص على تجميلها ، فأجيب الخليفة إلى طلبه ، بعد أن وفدت سفارة من روما بهذا الخصوص^(٣) .

ومع ذلك لم يخل الأمر أحيانا من اشتباكات عسكرية بين المسلمين في الأندلس والمغامرين النورمان من فرنسا ، فقد تعاظم خطر النورمان بحملاتهم البرية والبحرية على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، وأشارت المصادر المعاصرة إلى قيام النورمان ببعض هذه الحملات على مدن الثغر الأعلى^(٤) من ذلك ما يرويه العذرى : « وسجل أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ليحيى بن عبد الملك على بربشتر والقصر في سنة ٣٣٠ هـ (٩٤٢ م) ، فكان بها إلى أن أسره المجوس (النورمان) الذين خرجوا إلى ثغر لاردة وسرقسطة في يوم السبت لثمان مضين من شوال من العام المؤرخ ٣٣٠ هـ ، ففداه رجل من التجار بألف مثقال .. وقدم يحيى إلى سيده أمير المؤمنين عبد الرحمن ، فأمر للذي فداه بتضعيف ما أداه فيه ، وصرفه إلى بربشتر فدخلها سنة ٣٣١ هـ »^(٥) . وتفاقم خطر

(١) المذرى : تاريخ الطيب ج ٢ ص ٦

Reinand : Mus. Col. p 1٥1

() Lane - Poole : op. cit. p 129

(٢) ابن خلدون : المعراج ٤ ص ١٦٥

El - Hajji : op. cit p. 287

(4) Lévi - Provençal : op. cit. I, pp. 218 — 19

(٥) المذرى : ترصيع الأخبار ص ٧٢ — ٧٣

النورمان أيضا من جهة البحر ، علي عهد الحكم الثاني بن عبد الرحمن الناصر ،
فقد هاجموا سواحل الأندلس الغربية سنة ٩٦٦ م (٥٣٥٥) ، لاسيما منطقة
سهول لشبونة وجنوب البرتغال الحالية ، ودارت معركة هامة أحرز فيها
النورمان بعض الثنوق ، ثم انسحبوا حاملين معهم بعض الأسرى ، إلا أن
الأسطول الأندلسي عاد فقطع عليهم خط الرجعة وفاجأهم ، وحطم كثيرا من
سفنهم وإستخلص الأسرى منهم^(١) ، وهاجم النورمان سواحل الأندلس مرة
أخرى في سنتي ٩٧١ م (٥٣٦٠) ، والسنة التالية لها وصدهم الأسطول
الأندلسي ومنعهم من النزول علي سواحل الأندلس ، وأجبرهم علي الارتداد^(٢)

(١) ابن عذاري : البيان ج ٢ ص ٢٢٩

(٢) ابن عذاري : نفسه ج ٢ ص ٢٤١

الفصل السادس

الاشتباكات بين الجانبين على المستوى الشعبي

كانت تلك هي الاشتباكات العسكرية الرسمية بين الفرنجة ومسلمى الأندلس الأمويين ، لكن هناك جانبا من الاشتباكات والحروب والغزوات غير الرسمية بحريا وبريا ، قام بها المسلمون ضد شواطئ فرنسا الجنوبية وما يجاورها ، شكلت جانبا هاما في العلاقات بين الدولتين ، وصبغت هذه العلاقات بالعداء الشديد (١) . حقيقة ليس هناك ذكر لهذه الإغارات الإسلامية على فرنسا وسهول ليجوريا وهضاب سويسرا الحالية في المصادر الإسلامية ، بل إننا لا نعرف أحداً من قادة هذه الغزوات أو شيئا عن الحكم الإسلامي الذي استمر في جنوب أوروبا فترة تقرب من خمس وثمانين سنة لأننا نعتمد في حقيقة الأمر على المصادر اللاتينية وغيرها من المصادر الأدرية (٢) . وربما يرجع ذلك إلى أن هذه الغزوات كانت تدخل ضمن المشاريع الحربية والمغامرات العسكرية غير الرسمية ، يقوم بها جماعات خاصة من المجاهدين لا يربطهم في كثير من الأحيان بحكومة قرطبة صلات رسمية ، وإن تمتعوا بعطف الإمارة وتأيدها ، نظراً لروح الجهاد البادية في مغامراتهم ضد مسيحي غرب أوروبا في ذلك الوقت (٣) .

(1) Scott : op. cit. I, pp. 35 — 6

Deanesly : op. cit: p. 450

(2) El - Hajji ; op. cit. p. 240

(٣) عنان : المرجع السابق ج ٢ ص ٤٦٦

اتخذت هذه الإغارات شكلا متعاضدا ابتداء من أوائل القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) ، أى على عهد عاهل الفرنجة الكبير شارلمان ، وكان معظمها حملات بحرية يقوم بها جماعات من المجاهدين والزعماء المغاهرين ، وأحيانا بعض الهاربين من الأندلس أو غير الراضين عن الإمارة الأموية هناك ، وجعلت هذه الجماعات سواحل فرنسا الجنوبية والجزر القريبة هدفا لحملاتها وإغاراتها منتهزين فرصة ضعف البحرية الإفريقية ، وعدم اهتمام الفرنجة بالبحر فى ذلك الوقت^(١) .

ففى سنة ٨٠٦ م (١٩٠ هـ) هاجمت إحدى هذه الجماعات البحرية المجاهدة جزيرة قورسيقا ، وأنزلت بالأسطول الفرنجى الذى بعث به يمين بن شارلمان — ملك إيطاليا حينئذ — لقتالهم هزيمة كبيرة ، وعادت بكثير من المغانم والسبي^(٢) ، وتابعت جماعات المجاهدين غزوهم لجزر قورسيقا وسردينيا وهما يومئذ أغنى جزر البحر المتوسط^(٣) ، واتجهت جماعات أخرى من هذه الفرق المجاهدة بحرا إلى سواحل فرنسا الجنوبية ، فأحدثوا بها الخراب والدمار^(٤) ، وانحدر اليهم لوثر ابن الإمبراطور للقائهم لكنهم كانوا قد انسحبوا ، وكان ذلك سنة ٨٢٨ م^(٥) . ووصفت الروايات الفرنجية والكنسية المعاصرة هذه الإغارات والغزوات الإسلامية بأنها كانت غارات خراب ودمار ، وأنها كانت تحدث الرعب بين السكان النصارى ، وتترك المناطق الجنوبية فى فرنسا خرابا ودمارا^(٦) ، وأن أولئك المجاهدين المسلمين كانوا فى غاية الجرأة^(٧) ،

(1) Pirenne : op. cit. p. 159

(٢) أرسلان : تاريخ غزوات العرب من ١٨٢

(3) Lyon; Rowen, Hamerow : op. cit. p. 117

(4) Hoyt and Chodorow : op. cit p. 192

(5) Daniel : The Arabs and Med. Europe, p. 60

(6) Ibid : p. 55

(7) Brooke : A Hist. of Europe, p. 35

بحيث أنهم كانوا يتجولون في مياه المحيط الأطلنطي دون خوف أو رعب ،
وأنهم كثيرا ما هاجموا السواحل الغربية لفرنسا أيضا ، وأنهم تجرأوا أحيانا
ودخلوا إلى قلب البلاد عن طريق مصبات الأنهار ، لاسيما نهر اللوار والأنهار
التي تصب - في سواحل فرنسا الغربية ، أي أنهم توغلوا إلى أبعد من مصبات
هذه الأنهار .

ففي سنة ٨٠٨ م (١٩٢ هـ) ، نزل المسلمون بسردينيا ولما وجدوا مصاعب
في غزوها تحولوا إلى قورسيقا ، غير أن القائد بورشار Burchard أوقع
بهم واستولى على نحو ثلاثة عشر مركبا وهزمهم وأجبرهم على الانسحاب (١).
ولكن جماعات المسلمين عادت في العام التالي ونزلت بسردينيا وقورسيقا ، ولم يتمكن
الفرنسيون من طردهم إلا بشق الأنفس ، وكانت جماعات المسلمين في هذه المرة
قادمة من شمال افريقيا (٢) ، وكرر المسلمون إغاراتهم سنة ٨١٣ م (١٩٧ هـ)
فاجتاحوا قورسيقا وأسروا وغنموا وإن فقدوا في هذه الغارة نحو ثمانية
مراكب بما فيها من أسرى ، ورد المسلمون على ذلك باجتياح سواحل نيس
وبروفانس وضواحي روما (٣) . وفي سنة ٨٢٠ م وصلت سفن المسلمين إلى
سردينيا وتصدى لهم أسطول مسيحي ، إلا أن المسلمين تغلبوا عليه وحطموه
ثمانى سفن وأحرقوا عدد آخر منها (٤) .

(١) أرسلان : نفسه ص ١٨٢ — ١٨٣ ،

Daniel : op. cit. p. 60

(2) Lyon, Rowe, Hamerow; op cit. p 117

(٣) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٨٣ ،

Bradford : Mediterranean Portrait of a Sea; p. 330

(٤) أرسلان : نفس المرجع ص ١٩٠ — ١٩١ ،

Diueel: T he Arabs and Med. Europe, p 51

ولقد اتخذت بعض جماعات المجاهدين من الجزر الشرقية (جزر البليار) قواعد للانطلاق والهجوم على سواحل فرنسا لاسيما إقليم بروفانس الغني ، فلقد سارت سفنهم في سنة ٨٣٨ م (٢٢٤ هـ) على عهد لويس الثاني بن شارلمان من الجزر الشرقية ومن طر كونة وهاجموا ثغر مرسيليا وما جاوره من الأراضي (١) وأمعنوا في الأسر وخمل المغانم والأسلاب ، ولم يستطع لويس الثاني الذي كان يعاني من خروج أبنائه والحروب الأهلية في بلاده ، لم يستطع التصدي لهذه الجماعات من المجاهدين أو مقاتلتهم (٢) ، وأطلقت أيدي هذه الجماعات في سواحل فرنسا الجنوبية تأسر وتقتل "وتسي وتحمّل المغانم والأسلاب ، ثم عاد المجاهدون إلى مهاجمة سواحل إقليم بروفانس مرة أخرى ونفذوا إلى مصب نهر الرون واقتحموا مدينة آرل ، وخرّبوا كنائسها ، وأنزلوا بها الخراب والدمار ، وتتابعت هجماتهم على تلك النواحي في السنوات التالية (٣) .

وعلى عهد شارل الأصم بن لويس الثاني ، وفي أواخر عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم عبر موسى بن موسى وإلى سر قسطة وزعيم الثغر الأعلى سنة ٨٥٠ م (٢٣٦ هـ) جبال البرنيه وغزا سبتمانيا في جنوب فرنسا وانثنى في نواحيها ، واضطر شارل الأصم الذي كان غارقا في الفتن الداخلية والتصدي لمؤامرات إخوته وهجمات النورمان على سواحل بلاده إلى مهادنة

(1) Davis : op. cit. p 168

(٢) أرسلان : نفس المرجع ص ١٩٤ — ١٩٥

(3) Bradford : op cit. p. 300 ,

أرسلان : نفسه ص ١٩٤ — ١٩٥

موسى ، وعقد الصلح معه واسترضائه بالهدايا - التحف الجميلة (١) . ويبدو أن هذه الإغارة لم يكن لها طابع رسمي ولم تشر بها حكومة قرطبة ، وإنما تدخل فى نطاق الجهاد الإسلامى والإغارات غير الرسمية ، لأن بنى قسى تمتنعوا فى ذلك الوقت بنوع من الاستقلال الذاتى فى ظل ولاء شكلى لحكومة قرطبة (٢) . ولقد عادت جماعات المسلمين المجاهدين فى سنة ٨٦٩ م على عهد شارل الأصغر أيضا إلى مهاجمة إقليم بروفانس مرة أخرى بحرا واستولوا على بعض القلاع والحصون على مصب نهر الرون ، وهاجموا المناطق المجاورة وأسروا أسقف مدينة آرل ، ثم عادوا مثقلين بالمغانم والأسلاب ، وبكثير من الأسرى والسبي (٣) .

ولقد وجد المجاهدون المسلمون الفرصة "مواتية" ليس للإغارة والعودة محملين بالمغانم والأسرى فحسب ، وإنما للاستقرار والاحتلال فى جهات مختلفة من جنوب فرنسا ، متمهزين فرصة الاضطراب الذى ساد الإمبراطورية الكارولنجية فى النصف الثانى من القرن التاسع (٤) ، بصفة خاصة ، وقرب آخر ذلك القرن حين اندلع الصراع على السلطة بين أودو كونت باريس وشارل البسيط سليل الأسرة الكارولنجية ، ومتمهزين فرصة قيام نزعات انفصالية فى جنوب فرنسا وثورات خارجة على حكومة باريس (٥) . فقد أعلن ثائر فى الجنوب الخروج على السلطة الفرنجية ، وأعلن استقلاله ويدعى

(١) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٠٢

(٢) هتان : المرجع السابق ج ٢ ص ٤٦٧

(٣) أرسلان : نفس ص ٢٠٥

(4) Dearesly : op. cit. p: 461

(5) Davis : op. cit. p. 168

بيوزو Buso ، الذي غلب على ولايتي دوفينة وبروفانس ، ولقب نفسه بملك آرل ، وتصدى له بعض الطامعين في السلطة في غاليشيا ، واندلعت بينهم حروب أهلية في مستهل العقد الأخير من القرن التاسع الميلادي (٨٩٠ هـ) (١) ، ووجدوا المجاهدون المسلمون فرصة للغزو والاحتلال ، إذ رست سفينة صغيرة تقل عدداً قليلاً من المجاهدين المسلمين على خليج سانب تروبية في تلك الآونة ، ثم لجأوا إلى غابة قريبة تظللها الجبال ، وما لبثوا أن هاجموا الضياع القريبة وأحدثوا بها الخراب والدمار ، ثم عادوا إلى ملجئهم الحصين ، وكرروا إغاراتهم وفي كل مرة كانوا يلوذون بذلك الملجأ الحصين (٢) ، وحين تأكدوا من منعة ذلك المكان وحصانته من جهة البر والبحر أيضاً ، عولوا على الاستقرار فيه وأرسلوا في طلب المجاهدين من كافة الأنحاء والشعور الإسلامية القريبة ، والتمسوا التأييد والعون من حكومة قرطبة ومن المغرب ، فوفد عليهم كثير من المغامرين ومجاهدي الإسلام (٣) ، فلم تمض سوى سنوات قليلة حتى كانت هذه البقعة تضم عدة قلاع وحصون منيعة أمنعها وأحصنها قلعة أو حصن تسمية الرواية الفرنجية فراكتست Fraxinetum (٤) ، أقام هذه القلعة المجاهدون المسلمون ولاذوا بها كلما تعرضوا للخطر ، وفرضوا سلطانهم على الجهات القريبة وعلى أمراء النواحي ، وقاموا بإغارات متعددة جعلت منهم أسياد تلك البقاع والتمس معوتهم بعض الأمراء المتصارعين والمتنافسين ضد بعضهم البعض ، فوجد المجاهدون في ذلك فرصة لفرض نفوذهم وتوسعوا فيما حولهم وروعوا

(١) Deanesly : op. cit. pp. 460 — 1

(٢) Davis : op. cit p. 1٠8

(٣) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٠٨

وانظر كذلك — هناك : الم - ج السابق ج ٢ ص ٤٦٨

(٤) Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 193

المناطق المجاورة ، وبثوا بها الذعر ، وفي كل جنوب بروفانس ، حتى شاع بين الناس هناك أن كل واحد منهم بوسعه أن يهزم ألف رجل من فرط ما أحدثوه في نفوس الناس من الخوف (١) .

ولقد اختلف المؤرخون حول موقع فراكستيم ، فوضعه المؤرخون الفرنسيون في خليج سان تروبيه Saint Tropez ، بين فرنسا وإيطاليا ، ووضعه المؤرخون الإيطاليون في بروفانس بقرب مدينة آرل أو خلف جبال الألب (٢) . وليس المهم هو تحديد الموقع الذي يبدو أنه كان في بروفانس على خليج سان تروبيه فعلا ، وموضعه الحالي هو المكان المعروف باسم لاجارد فريني La - Garde Frainet ، ويقع بين هيرير Hyeres وفريجوس Fréjus (٣) ، وإنما المهم هو ملائمة المكان لمشروعات أولئك المجاهدين ، فقد كان حول الخليج أجمة متشابكة لا يجرؤ أحد على دخولها ، وإلى شمال الخليج كانت سلسلة جبال تشرف على جزء كبير من بروفانس وعلى البحر ، فكان البحر يمثل بابا هاما لتلقي الإمدادات والغاية المتشابكة تصلح لهم معقلا يلجأون إليه عند الضرورة ، ويمثل البر لهم منفذا إلى النواحي التي يرومون الإغارة عليها (٤) ويبدو أن العرب لم يشيدوا حصنا واحدا في هذه الجهات على حد قول المؤرخ بوش صاحب تاريخ بروفانس بل أطلقوا إسم فراكستيم على حصون

(1) Reinaud : op. cit. p 161

(٢) أرسلان : نفس المرجع السابق ص ٢٠٨ — ٢٠٩ (حاشية ١)

(3) Daniel : op. cit. p. 52

Pireane : op. cit. pp. 156 , p. 249

مؤنس : المسلمون في حوض البحر الأبيض ص ١٣٠ — طرخان : المسلمون في أوروبا

ص ٢٠٣

(٤) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٠٨

كثيرة شادوها في دوفيني وسافوى وييمونت (١) .

ولقد أمدت أحوال غاليسيا المضطربة المسلمين بفرصة أخرى مواتية ، وذلك حين خلف ملك آرل المتوفى (بوزو) ابنه لويس الذى زج بنفسه فى حروب فى إيطاليا إلى جانب حلفائه ، فهزم هناك وأسر وترك مملكته فى آرل دون دفاع ، فاضطربت شئونهم وسادت الفوضى كل غاليسيا ، وكانت هذه هى فرصة المسلمين لاستمرار التوسع فى جنوب فرنسا واستعمار المنطقة كلها فى خاتمة القرن التاسع (٢) ، إذ اخترق المجاهدون دوغينة ، وعبروا أهم ممرات الألب الفرنسية واستولوا فى سنة ٩٠٦ م (٢٩٤ هـ) على دير نوفاليس الشهير الواقع فى وادى سيس ، وفر رهبانه إلى مختلف الأنحاء ، ومالبت المسلمون أن أغاروا على القرى والضياع المجاورة ونهبوها وقتلوا عدداً من أهلها (٣) ، وبلغ من شدة بأس هؤلاء المغامرين أن بعضهم قد أسر أثناء هذه الأحداث ، وحملوا إلى تورينو فى إيطاليا حيث سجنوا فى أحد أديرتها ، ولكنهم استطاعوا تحطيم أغلالهم وفروا عائدین إلى زملائهم بعد أن أشعلوا النيران فى الدير ، وفى المدينة بأسرها ، واحتل المجاهدون معظم ممرات جبال الألب فسيطروا على طرق الاتصال بين فرنسا وإيطاليا (٤) ، ولا زالت السرايا

(1) Lévi - Provençal ; op. cit. 11, pp. 154 — 5

وأرسلان : نفسه ص ٢١٤ — ٢٢٠

(2) Davis : op. cit q. 168

(3) Hoyt and Chodorow : op. cit. pp. 192

(4) Pirenne : op. cit, p. 158

Lewis : The Arabs in Hist. p. 117

Davis : op. cit. p 183

Keen : A-Hist. of Med. Europe, p. 23

الإسلامية من المجاهدين تنزل على سواحل فرنسا الجنوبية لاسيما في بروفانس ، حيث مرحت وأغارت ونهبت . ففي عام ٩٠٨ م (٢٩٦ هـ) رست سفن المسلمين على شاطئ بروفانس ، تقل عددا من البحارة المجاهدين على مقربة من « إيج مورت » وقامت بنهب دير بالمودي (التريل) ، الذي كان قد هدم على عهد شارل مارتل ثم أعيد بناؤه (١) ، ويلاحظ أن الأديرة كانت هدفا لتلك الإغارات لما كانت تغص به من الذخائر والأموال والنفائس ، وانساب المسلمون في مختلف النواحي المجاورة ، فاجتاحوا البقاع القريبة وهاجموا مرسيليا ذاتها ، وهدموا كنيساتها وغزو إيكس وكثرت سبائهم وأسيراتهم ، حيث أغراهم ذلك بالزواج منهن ، ليكثر نسلهم ويتعاظم عددهم وتزداد قوتهم (٢)

وبلغ من شدة إغارات المجاهدين المسلمين في هذه الجهات أن قطعت الصلة بين فرنسا وإيطاليا ، واحتل المسلمون جميع ممرات جبال الألب ، ولم يسمحوا لأحد بالمرور إلا بإذن سابق ، وبعد دفع رسم معين (٣) ، وأحدثت غزوات المسلمين في بروفانس ودوفيني وبلاد الألب الخراب والدمار ، وفشلت محاولات المسيحيين في مقاومتهم ولم تنجح مرسيليا في هذه الآونة من هجماتهم ، وإن بلغت الروايات المسيحية لاسيما التي كتبها القسس ورجال الدين وحواليات الأديرة والكنائس في وصف تلك الهجمات وما نجم عنها من تنكيل بالأهالي والسكان (٤) .

(١) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢١٦

(٢) Hoyt and Chedorow : op. cit. p. 192

(٣) أرسلان : نفسه ص ٢١٦ ،

Brooke : A Hist. of Europe, p. 35

(٤) Daniel : op. cit. p. 52, pp. 55 — 6

Davis : op. cit. p. 169

ويمحسّن هنا أن نشير إلى تطور أصاب تواجد المسلمين في جنوب فرنسا ،
وأخرج الحركة عن مسارها بعض الشيء ، ولعل ذلك كان له ضلع فيما جرى
بعد ذلك من أحداث أدت إلى طرد المسلمين من هذه الجهات ، والقضاء على
نفوذهم في تلك البقاع (١) ، ذلك أنهم فيما يبدو تباعدوا إلى حد ما عما خرجوا
من أجله وكرسوا له حروبهم في البداية ، وهو الجهاد في سبيل الله ، والعمل
على الفوز بمروضة الله ، وأخذوا يقتربون إلى حد كبير من الأهداف الدنيوية
والعمل على الفوز بالمغانم والأسلاب ، وجعلها هدفا أساسيا ، بل سمحوا لأنفسهم
بالزواج من أسيراتهم الفرنسيات والإيطاليات (٢) ، وتجاوزوا الحد حين سمحوا
أيضا لبعض النصارى المغامرين من أهل النواحي القسرية بالانضمام إليهم ،
وكذلك بعض الخارجين على القانون وغيرهم ممن أغرتهم الدنيا بالعمل من
أجل المغانم والأسلاب ، ولعل ذلك هو السبب فيما أطلق على المجاهدين في هذه
الحقبة بالذات بقراصنة المسلمين Saracen pirates (٣) ، بعد أن كان الجميع
يعلم تماما مقاصد هذه الجماعات وأهدافها السامية ، إذ كثر استعمال كلمة القرصنة
لإشارة إلى أولئك المغامرين المسلمين ، ودمغهم بهذه الصفة ، ومما يدل على ذلك
أنهم لجأوا إلى إغلاق طرق الألب إلى إيطاليا ، ولم يسمحوا للحجاج الذهبين
لأداء الحج إلى المزارات الإيطالية بالمرور إلا بعد دفع ضرائب فادحة (٤) .
وهكذا تباعد المجاهدون إلى حد كبير عن أهدافهم العليا واقتربوا كثيرًا من
الأهداف الدنيوية ، واستحق الكثير منهم في هذه الآونة بالذات أن يوصف

(١) مؤنس : المسلمون في حوض البحر الأبيض ص ١٣٠

(٢) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٩ ٢

(3) Davis ; op cit. p. 168

(٤) أرسلان : نفسه ص ٢٢٠

ببصفحة القرصنة ، وإن ظل فريق منهم يواصل العمل والجهاد في سبيل الله ، ولم يخرج عن الأهداف السامية التي خرج من أجلها (١) .

وبعد وفاة شارل البسيط ، وتنازع رؤسول ولويس الرابع بن شارل البسيط .. على السلطة في فرنسا ، زاد الضعف والانقسام في البلاد ، وواصلت الجماعات الإسلامية غزوها لجنوب فرنسا والاستقرار هناك ، ففي سنة ٩٣٠ م (٥٣١٨ هـ) غزوا المسلمون فريجوس ، وكانت في ذلك الوقت أكبر وأمنع ثغور فرنسا الجنوبية (٢) . كما غزوا أيضا ثغر طولون وأجبروا السكان على الفرار إلى الجبال ، وعاثوا في الجهات المجاورة ، وأنزلوا الخراب والدمار بالمدن والحصون ، وأضرموا النيران في الأديرة والكنائس ، وحملوا معهم المغنم والأسلاب (٣) ، غير أن هذه الإغارات وما تبعها من تدمير وتخريب أثارت حنق السلطات الفرنسية والإيطالية ، وخاصة هوج البروفانسي - ملك بروفانس - الذي أزمع بتأييد من سادة الجنوب سحق هذا العدوان وإنهاء هجمات المسلمين في تلك الجهات. ويذكر المؤرخ الشهير دوزي Dozy أن هوج البروفانسي ملك إيطاليا قد أقام حلفا مع الخليفة عبد الرحمن الناصر في الأندلس في تلك الفترة أي حوالي سنة ٩٣٥ م (٣٢٣ هـ) أو بعدها بقليل (٤) ، دون أن يقدم أية

(1) Deanesly : op. cit. p. 450

Scott : op. cit. p. 35

مؤس : المسلمون في حوض البحر الأبيض ١١٢ - ١١٩

(2) Daniel : op. cit. p. 52

Pirenne : op. cit. p. 156, p. 249

(٣) أرلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٢٣

(4) Dozy : Spanish Islam, (Eng. trans. from, Hist. des. Mus. d'Espagne, by Stokes - London 1913 , p. 434

تفصيلات أو يذكر اسم المصدر الذي استقى منه هذه المعلومات . ولهذا فقلت .
رجح أحد المؤرخين المحدثين أنه إذا صح قيام هذا التحالف ، فلا بد وأنه أقيم .
أصلاً لمناهضة الخلافة الفاطمية في شمال أفريقيا والتصدى لمطامعها^(١) ، وخاصة .
بعد أن هاجم الناطميون مدينة جنوة الإيطالية سنة ٩٣٤ — ٩٣٥ (٣٢٢ —
٣٢٣ هـ) ، فلا بد وأن هذا التقارب بين هوج البروفانسي وحكومة قرطبة وجه
أصلاً ضد الناطميين^(٢) . وليس من المعقول أن يقيم الخليفة الأموي في قرطبة
حلفاً مع ملك إيطاليا ضد المجاهدين المسلمين هناك ، فإذا صح قيام هذا التقارب
وهذا الحلف ، فإن المقصود به عدو مشترك لكلا الطرفين ، وليس ضد
المجاهدين في إيطاليا . من المسلمين ، بل تشكك البعض في قيام هذا
الحلف أصلاً .

قرر الملك هوج البروفانسي إذن مهاجمة حصن فراكستيم الحصين ، الذي
يلوذ به المغامرون المسلمون ، ويتخذون منه قاعدة لتأمين مواصلاتهم مع
الأندلس من ناحية ، ومع إفريقيا من ناحية أخرى ، ومركزاً للهجوم على
الجهات الداخلية^(٣) ، لكن الملك اقتنع بأن الاستيلاء على ذلك الحصن يتطلب
جهداً كبيراً واستعداداً خاصاً ، ولهذا فقد عول على مساعدة بيزنطة في هذا
المشروع وبعث يطلب من رومانوس ليكابينوس مساعدة بحرية وأسطولا من
قاذفات النار الإغريقية ، حتى يمكن مهاجمة المسلمين براً وبحراً وتصفية فراكستيم ،
فوافقت بيزنطة على تقديم هذه المعونة وعلى المشاركة بمحاربيها لطرده المسلمين .

(١) El - Hajji : op. cit. p. 284

(٢) ابن عدي : البيان ج ١ ص ٢٠٩ ،

Camb. Med. Hist. V. III, p 155

(٣) ابن عدي : البيان ج ١ ص ٢٠٩ ،

من تلك الجهات ، وذلك سنة ٩٤١ (١) . وما لبث الأسطول البيزنطى أن رسا فى سائ تروبيه ، وتقادم هوج البروفانسى فى نفس الوقت بجيشه نحو إفراكستيم (سنة ٩٤٢ م) ، وجرى مهاجمة المسلمين برأ وبحراً وإصرار شديد وجرى إحراق سفنهم وإلحاق خسائر جسيمة فى قوتهم ، وفى النهاية وبعد قتال مرير نفذ هوج البروفانسى إلى الحصن ، واضطر المسلمون إلى الفرار إلى الجهات الجبلية المجاورة ، والاعتصام بالآكام والربى ، وغدا استقرارهم فى هذه الجهات موضع شك كبير وفى كف القدر (٢) .

غير أن الظروف ما لبثت أن تبدلت فى صالح المجاهدين المسلمين ، لأن هوج البروفانسى سرعان ما أوقف مشروعاته فى تلك الجهات ، على أثر ما أتاه من أنباء ثورة داخلية فى بلاده وبروز أحد المنافسين له والطامعين فى إقصائه وحيازة العرش ، ولهذا فقد اضطر إلى صرف الأسطول البيزنطى وإيقاف مشروعاته ضد المسلمين بل وعقد معهم صلحاً ، اشترط فيه عليهم البقاء فى الألب وعند ممراتها ، وإغلاق الطريق إلى إيطاليا فى وجه خصمه (٣) . فلا بد وأن هوج قد اقنع أنه من الأوفق محالفة هؤلاء المسلمين واتخاذهم سنداً له ضد غريمه الثائر ، خاصة وقد خبر المسلمون جبال الألب وتمرسوا على الحرب بها ومرتوا التحكم فى دروبها وممراتها ، وغدى بوسعهم إغلاق هذه الممرات

(1) Rambaud ; Histoire de L'Empire Grec p. 408

Daniel : op. cit. p. 53

(٢) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٢٤ ،

Daniel : op. cit. p. 53

Rambaud : op. cit p. 408

(٣) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٢٤ ،

Daniel : op. cit. p. 53

في وجه أعداء الملك الإيطالي (١) . وهكذا أقام هوج البروفانسي حلفاً مع المجاهدين المسلمين سنة ٩٤٢ م (٣٣١ هـ) ، وليس مع حكومة قرطبة كما فهم دوزي ومن تابعه في ذلك ، فالواقع أنه ليس ثمة ما ينبيء بقيام أحلاف بين هذا العاهل الإيطالي والخليفة عبد الرحمن الناصر في أي من المصادر المعاصرة . ولهذا فقد رجح البعض أن يكون التقارب قد حدث بين هذا العاهل الإيطالي والمجاهدين المسلمين ضد أعداء الملك الإيطالي ، وثمنا لانصراف هوج عن مواصلة الحرب معهم (٢) .

ولقد جاء هذا التطور في صالح المسلمين دون شك ، فسرعان ما استعادوا قلاعهم وحصونهم وسيادتهم في جنوب بروفانس ، وواصلوا خططهم في تلك الجهات واحتلوا ممرات الألب وتحكموا فيها (٣) ، وفرضوا المكوس والضرائب على المسافرين ، وبثوا الذعر بين سكان الأنحاء المجاورة ، وسيطروا على ممر سان برنار الكبير الواصل بين سويسره وإيطاليا وعلى غيره من الممرات الجبلية . ونزلت جموع منهم للاستقرار في السهول والضياع القريبة وزرعوا الأرض ، ومارسوا حياة الاستقرار ، وقنع أمراء النواحي بتحصيل بعض الضرائب الزهيدة منهم اتقاء لشرهم (٤) ودرءاً لمخاطرهم ، وانساب المسلمون بعد ذلك إلى نيس ، ثم تقدموا إلى قلب ولاية دوفينة وساحوا في المناطق التي تجرى فيها

(١) أرسلان : نفسه ص ٢١٦ ،

Brooke : op. cit. p. 35

(٢) انظر ابن خلدون : المبرج • ص ٣١٠ ،

El - Hajji : op cit. p 285

«(3) Hoyt and Chodorow : op. cit pp. 192 — 3

(٤) أرسلان : نفسه ص ٢٢٤

رواند نهر الرون، بعد أن احتلوا جرينوبل لفترة وواديها الخصيب، وشكوا
عنصرها هاما في الأحداث في تلك الجهات، رغدت لهم سطوة بين سكان هذا
الإقليم، وتحكوا في المرور بين فرنسا وإيطاليا وبين سويسره وإيطاليا (١).

فقد اندفع المسلمون أيضا في حدود إيطاليا، ونزلوا إلى ضواحي روما
ذاتها (٢)، وصعدوا في نهر التيبر فنهبوا كنائس القديس بطرس والقديس
يولس، وعطلوا سدود نهرها، وذلك سنة ٨٤٦ م (٢٣١ هـ)، وأجبروا
الأهالي والرهبان والقسس على حمل السلاح (٣). وفي سنة ٨٧٠ م (٢٥٦ هـ)
غزا المسلمون من أسبانيا وإفريقيا مدينة روما أيضا فوصلوا إلى ضواحيها،
ولم يمنعهم من التقدم أبعد سوى جغرافية إيطاليا وعدم ملائمة الأرض
لتقدمهم (٤). واستصرخ البابا الإمبراطور شارل الأصلع، إلا أن هذا لم ينهض
لنجدة البابا الذي اضطر للدخول في مفاوضات مع المسلمين قبل فيها بدفع مبلغ
كبير من المال مقابل جلاء المسلمين (٥)، وتكررت غزوات المسلمين في جهات
إيطاليا خاصة كما تنافس الأمراء المحليون وتنازعوا فيما بينهم، فتعرضت
جهات كثيرة في إيطاليا للغزو الاسلامي، مثل نابلي وسالرنو وكابوا ومونت
كاسينو في النصف الثاني للقرن التاسع الميلادي (٦)، كما استولى المسلمون على

(١) Reinaud : *Invasions des Sarrazins en France*, pp. 150 — ١

(٢) Bradford : *op. cit.* p. 329

(٣) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٩٧ ،

Hollister : *Med. Europe*, p. 106

(٤) Davis : *op. cit.* p. 168

(٥) Deane-ly : *op. cit.* p. 456 , Scott : *op. cit.* II, p. 83

وأرشيبالد لويس : النوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ص ٢١٩ (ترجمة
أحمد عيسى)

(٦) Scott : *op. cit.* II, p. 35 , Deane-ly : *op. cit.* p. 450

ريو Reggio سنة ٩٠١ م وتابع المسلمون هجراتهم في تلك الجهات (١)، حتى وصلوا إلى حدود لييجوريا على شاطئ خليج جنوة، وتروى الحوليات المعاصرة أن العرب غزوا مدينة « آكي » سنة ٩٠٦ م على مقربة من مدينة تورينو الإيطالية، ثم أعادوا غزوهم لمدينة آكي سنة ٩٣٥ م، وإن ارتدوا عنها هذه المرة بعد هزيمتهم؛ فقد روى المؤرخ الألماني الشهير ليتوبراند Liubbrand الذى عاش في القرن العاشر أن المسلمين هاجموا مدينة آكي، إحدى مدن مونفيرات الشهيرة بحملاتها المعدنية، لكنهم انهزموا في هذه الواقعة، وأنهم دخلوا مدينة جنوة وقتلوا ونهبوا وسبوا كثيرا من النساء والأطفال، وروعوا المنطقة بأسرها (٢)، ثم نزلوا إلى مدينة أنكونا فأشعلوا فيها النيران وحملوا معهم كثيرا من الأسرى، وقتلوا أعدادا لا تحصى من المزارعين (٣)، ولم تنج نابلي وبنسنتو وكابوا من نفس المصير. وتوغل المسلمون أبعد إلى سويسرا إذ غزوا في سنة ٩٣٩ م منطقة فالية في جنوب سويسرا، واتخذوا منها قاعدة للإغارة على الأراضي المجاورة في سويسرا وإيطاليا ثم نفذوا إلى أواسط سويسرا ثم إلى شرقها وأعملوا القتل والنهب في الأديرة والكنائس وتذكر بعض الروايات أن المسلمين وصلوا في غزواتهم إلى بحيرة جنيف (٤).

وانبسط المسلمون في المناطق الفسيحة بين بحيرة كونستانس Constance

(١) مؤنس : المسلمون في حوض البحر الأبيض ص ١١٣

2) Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 192

وأرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٢٠ — ٢٢١

(3) Daniel : op. cit. pp. 56 — 7

(٤) أرسلان : نفسه ص ٢٢٧، طرخان : المسلمون في أوروبا ص ٢٢٧

حنان : دولة الاسلام في الأندلس ج ٢ ص ٤٦٩

في الشمال الشرقي من سويسرا وبين مدينة كور (جورا) Chur في شرقي سويسرا ، وزادت وطأة المسلمين على سويسرا ، وأمعنوا في قتل الحجاج العائدين من روما (١) ، ولم تسلم الكنائس والأديرة من هجماتهم حتى أن الإمبراطور أوتو الكبير اضطر لتعويض مقدم دير كور عن الخسائر التي لحقت بالدير وأملأه نتيجة لغارات المسلمين ، وأوغل المسلمون في منطقة وفات وقاعدتها لوزان على الشاطئ الشرقي لبحيرة جنيف، وكل المناطق الواقعة في أعلى نهر الراين ١٢ . واستقر المسلمون بهذه الأقاليم وتزوجوا من الرطنيات وراحوا يزرعون الأرض ويستغلونها ، ولم يسع الحكام المحليون إلا أن يسلموا بالوضع الجديد ، واكتفوا بحماية إتاوة منهم بل استعانوا بالمسلمين أنفسهم في منافساتهم الداخلية ، ولم يتحقق بعد ، كم بقي المسلمون في أنحاء سويسرا ، وإن كان استقرارهم في تلك الجهات أمر لا خلاف عليه لوجود آثار مادية تدل على ذلك (٢) .

وإذا ألقينا نظرة على المسرح الذي انساب فوقه المسلمون في جنوب أوروبا وأجزاء من ديارها ، نرى المستعمرات الإسلامية والمعقل والحصون الإسلامية قد انتشرت خلال القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) ، في بروفانس وسافواي وسويسرا ، وتحكم المسلمون في ممرات جبال الألب (٣) ، وعلى

(١) أرسلان : نفسه ص ٢٢٧

(٢) مؤنس : المسلمون في حوض البعير الأبيض ص ١٣٠ — ١٣١ ، طرخان : نفسه

ص ٢٢٧ — ٢٢٨

(٣) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٢٧

طرخان : المسلمون في أوروبا ص ٢٢٨

(4) Previté : The Shorter Camb. Med. Hist. V I, p. 371

(Camb. 1953)

الحدود بين غاليسيا ولبارديا في شمال إيطاليا ، وبينها وبين سويسرا ، واحتلوا في سويسرا ولاية فاليه وبعض جهات جورا ، واحتلوا في إيطاليا ولاية ليجوريا بعد أن تقدموا إلى بيمون ومونتفرات القريبة من تورينو ، وأقاموا لهم مراكز وقواعد وحصون لتكون نقط انطلاق لهم في شمال إيطاليا وسويسرا مثلما فعلوا في بروفانس وجنوب فرنسا من قبل (١) ، ومثلما حدث في جنوب فرنسا وبروفانس انضم إلى أولئك المغامرين نفر من النصاري جريا وراء المغانم والأسلاب وحبا في المغامرة والحرب وشكلت هذه الجماعات عنصرا خطيرا في أوروبا في ذلك الوقت وروعت جهات كثيرة فيها (٢) . ويبدو أن المسلمين خرجوا من سويسرا خلال النصف الأخير من القرن العاشر الميلادي ، نظرا لقلّة أعدادهم واتسام إغاراتهم بالصفة القمعية أو الجماعية المحدودة ، فضلا عما أثاره رجال الدين والأديرة من حماسة في نفوس المسيحيين لمطاردتهم وإخراجهم من تلك البقاع .

تعرض المسلمون في هذه الجهات الجديدة في شمال إيطاليا وسويسرا لمثل ما تعرضوا له من قبل في بروفانس وجنوب فرنسا ، إذ أدت إغاراتهم على المناطق المجاورة إلى تأليب سادة هذه الجهات لحربهم ومحاولة طردهم من مستعمراتهم الجديدة (٣) ، فقد جمع كونت بروفانس العليا ، وبعض سادة المناطق المجاورة ، قوات كبيرة واتفقوا على محاربة المسلمين وطردهم من تلك الجهات ، فهوجم المسلمون من كل حذب وصوب بغرض إجلائهم عن هذه المناطق ، وأخذ المسلمون على غرة في بيمون وما حولها قرب تورينو ،

(١) Hoyt and Chodorow : op. cit. p 192

(٢) أرسلان : نفسه ص ٢٢١ — ٢٢٢

(٣) Davis : op. cit, p. 168

ونزلت بهم كارثة هناك ، فاضطروا إلى الجلاء عن كثير من قلاعهم وحصونهم :
في تلك الجهات فاستولى عليها النصارى ، الذين استمروا في ملاحقة فلول
المغامرين المسلمين ومطاردتهم للقضاء عليهم ، ووضعوا بذلك حدا لإغارات
المجاهدين المسلمين في لبارديا وشمال إيطاليا وعلى حدود الليجوريا ، وحدث نفس
الشيء في جورا في سويسرا وبالقرب من حدود المجر . وتذكر الروايات
الكنسية المعاصرة أن ملك هذه النواحي كان يدعى كونراد ، وكانت سلطته
تمتد على جهات شتى ما بين سويسرا وبلاد المجر ، وأنه عانى كثيرا من إغارات
المسلمين في أملاكه في جورا من ناحية والمجريين الذين هددوا حدود بلاده
من ناحية أخرى (١) . غير أن هذا الملك فكر في التخلص من أعدائه جميعا
بإعمال الحيلة والدهاء ، فبعث إلى المسلمين في سنة ٩٥٢ م (٣٤١ هـ) يتودد
إليهم ويستحثهم على محاربة المجريين وانتزاع ما بأيديهم من أراضي وضياع
خصبة ، وفي نفس الوقت بعث إلى المجريين يحرضهم على حرب المسلمين ،
ومحاولة إجلائهم عن قلاعهم وحصونهم في جورا ، واقترح على كل فريق
اسم مكان يصالح للقاء والمعركة ، ومن ثم أعد قواته وأخذ يترقب ما تسفر
عنه الأحداث ، وحينما جرى الاشتباك بين المسلمين والمجريين وهلك من الفريقين
جمع كبير ، انقض كونراد بمن معه من قوات فبدد شمل الباقي من الفريقين ،
وقضى عليهم جميعا ، وبذلك تخلص من أعدائه جميعا قرب منتصف القرن .
العاشر الميلادي (٢) . وأغلب الظن أن هذه الواقعة قد حدثت في سافواي ،
لأنها نقطة متوسطة بين أملاك المسلمين في بروفانس ومناطق نفوذ المجر في .

(١) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٢٦

(٢) Reinaud : Mus. Col. p. 128

الألزاس وهي المكان الذي اقترحة كونراد ليكون مسرحا للمعركة (١) .

وعلى الرغم من ذلك فلا زال المسلمون يحتلون كثيرا من مواقع سافواي ويوغلون في أنحاء سويسرا طلبا للغنيمة والسبي ، وساعدهم في ذلك شدة مراسهم وقوة بأسهم وتمرسهم على حروب العصابات ، وحذقهم القتال في الجبال والآكام ، حتى بلغوا مدينة سان جالن على مقربة من بحيرة كونستانس في سويسرا ، وأقاموا لهم قلاعا وأبراجا كثيرة في بعض جهاتها ، وظلوا يجوبون تلك المناطق ردحا طويلا من الزمن (٢) ، حتى أنزل بهم نصاري سان جال هزيمة خفت وطأتهم على أثرها ، واضطروا للجلاء عن كثير من حصونهم وقلاعهم والارتداد إلى قواعدهم الأخرى القريبة من الساحل ، فقد أورد هذه الأخبار مؤرخ سان جال Saint - Gall ، وذكر أن مقدم دير سانت جال ويسمى « فالتون » ، هو الذي جمع عددا من الرجال الأشداء وسلحهم بالحراب والفؤوس وهاجم بهم المسلمين بغتة فقتل أكثرهم وقبض على من نجا منهم ، وساقهم إلى الدير فأبى هؤلاء أن يأكلوا أو يشربوا حتى ماتوا جوعا (٣) . وعلى الرغم من هذه الكارثة التي حلت بالمسلمين في هذه الجهات فقد ارتد كثير من المجاهدين إلى قواعدهم ، وظلت الإمدادات ترد إليهم من الأندلس ، ويفد عليهم المطوعة من الأندلس ومن المغرب لمدهم بدماء جديدة . ورفع روحهم المعنوية لمزيد من الإغارات والهجمات ، لاسيما أن قواعدهم في

(١) أرسلان : نفسه ص ٢٢٦

(٢) Hoyt and Chodorow : op cit. pp 192 — 3

أرسلان : نفسه ص ٢٢٧

(٣) أرسلان : نفسه غزوات العرب ص ٢٢٦

بروفانس ودوفينة وبعض جهات الألب ، ظلت أمنع القلاع وأقواها وسمت .
فوق التصدع ، واستمرت تمد المجاهدين بأسباب الجرأة والقوة ^(١) . ولعل في .
ذلك يكن سبب نهوض البابوية بالكتابة إلى الأباطرة وقادة الغرب المسيحي
لحثهم على وضع حد لهذه الإغارات والقضاء على الجماعات الإسلامية الغامرة .
فاستجاب إمبراطور ألمانيا أوتو الكبير سنة ٩٥٦ م (٣٤٤ هـ) وهو أكبر
عاهل غربي مسيحي في ذلك الوقت ، لأنه ربما خشى أن يغري نجاح المسلمين
في اختراق جنوب أوروبا وبعض جهات إيطاليا وسويسرا أولئك الغامرين
بتهديد ألمانيا ، وخاصة أن إغاراتهم أصابت جهات قريبة جدا من أملاكه
الواسعة .

وعلى الرغم من اقتناع هذا العاهل الألماني بخطر الجماعات الإسلامية ، وما
يمكن أن تحدثه في أملاكه في أوروبا من أضرار ^(٢) ، إلا أنه لم ينهض لقتالهم ،
لأنه فيما يبدو أيقن أن هؤلاء المحاربين الأشداء الذين حذقوا حروب الجبال
والمرتفعات وحروب العصابات لن يتأتى قتالهم بالقوات النظامية ، وأن ذلك .
ربما كلفه الكثير ^(٣) ، ولهذا عول على الطرق الودية لردعهم ، وعلى المفاوضات
الدبلوماسية مع خليفة قرطبة الأموي . فقد بعث بسفارة إلى قرطبة يطلب من
عبد الرحمن الناصر التدخل لقمع عدوان هذه المستعمرات الإسلامية على النصارى ،
واستعمال نفوذه للحد من هذا الخطر ^(٤) ، وعلى الرغم من أن عبد الرحمن الناصر

«1 Pireane : op. cit. p. 249

(٢) أرسلان : ٢٢٨ ص ٤٠

(٣) هناك : دولة لا سلام في الأندلس ج ٢ ص ٤٧٢

(٤) أرسلان : نفسه ص ٢٢٨

استقبل رسل الإمبراطور الألماني بحفاوة ، وتلقى رسالته بشيء من المودة والتكريم إلا أنه اعتذر لرسل الإمبراطور عن عدم استطاعته عمل شيء ؛ لأن هذه المستعمرات والجماعات المغامرة لا تدخل في نطاق سلطته ، وليس له عليها تفوذ (١) ، وأنها تعمل في استقلال تام بعيدة عن سلطة الحكومة الأموية بالأندلس . ويبدو أن الإمبراطور لم يقتنع بذلك ، إذ تؤكد الروايات الكنسية المعاصرة أن الخليفة الأموي كان يحمي هذه المستعمرات ، ويمدها بالعون والتشجيع (٢) .

وبعد ذلك بسنوات أجبر المسلمون علي الخروج من معاقلم في ممر سان برنارد حوالي سنة ٩٦١ م ، ففقدوا بذلك موقعا هاما طالما جنوا بفضلهم كثيرا من المكوس والضرائب ، وتحكموا في المرور بين سويسرا وإيطاليا ، وقطعوا الصلة بين إيطاليا وما وراء الألب من بلاد أوروبا (٣) . وع الرغم من أنه ليس لدينا تفاصيل عن ذلك إلا أنه من الواضح أن المسيحيين قد تكتلوا في تلك البقاع للقضاء عليهم ، ويبدو أن القديس برنار الذي بنى ملجأ في أعلي ذلك الجبل والذي نسبت إلى اسمه سلسلة تلك الجبال كلها ، كان أحد قادة المعارك التي انهزم فيها المسلمون وطردوا من هذه الجهات (٤) . وقبل ذلك بسنوات قليلة

(1) Daniel : op cit pp. 65 — 9

Reinaud : Mus Col. : 155 — 6

Lévi - Prevençal : L'Espagne musulmane au Xe siècle , p. 49

أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٢٧ — ٢٢٢

El - Hajji : op. cit. pp. 207 — 27

(2) Reinaud : op. cit. p. 193

(3) Pirene : op. cit. p. 158. Davis : op cit p. 183

(٤) أرسلان : نفس المرجع ص ٢٣٤

(٩٥٦ م) طرد المسلمون أيضا من مدينة جرينوبل ، ومن واديها الخصب . فتذكر الروايات أن أساقفة هذه المدينة وهم الذين نهضوا بهذا العبء قد تجمعوا لقتال المسلمين ، وتواعدوا إن هم ظفروا بالنصر أن يتقاسموا الأراضي الخصب ، كل بحسب بسالته في القتال وإقدامه في الحرب ، فلما تحقق لهم النصر تقاسم المقاتلون تلك البقاع الخصيبة (١) . وترتب على ذلك أن ساءت أحوال المسلمين كثيرا في تلك الجهات ، وإن ظلت لهم بعض المواقف في دوفينة وبروفانس (٢) ، وأدلوها بدلوهم في الأحداث السياسية ، فحينما غزا الإمبراطور أوتو لمبارديا وطردها منها ملكها بيرانجيه ، إلتجأ ولده أدلبرت إلى عرب فرا كسنتم ليساعدوه في استرجاع ملكه ، فقوى هذا التحالف من وجود المسلمين في تلك الجهات (٣) . ولعل في ذلك يكن السبب في أن الإمبراطور أوتو أعلن أنه سيتولى طرد المسلمين من كل الأراضي المسيحية في الغرب ، لولا أنه توفي بعد قليل من هذه الأحداث .

على أن أحوال المسلمين في هذه البلاد أخذت تسوء ابتداء من الثالث الأخير للقرن العاشر ، وبدأوا يمرون بمرحلة حرجة ، وأخذ الخنفاق يضيق عليهم شيئا فشيئا ، وخسروا كثيرا من مواقعهم وحصونهم في تلك الجهات ، ولا بد وأن انصرف أولئك المعاصرين عن الأهداف السامية التي خرجوا من أجلها كان له ضلوع فيما جرى عليهم في تلك المرحلة من كوارث ، كما أن مغالاتهم في فرض الضرائب المكوس والإتاوات ، وأسر الناس من أجل الحصول على

(١) إرسال : نفسه ص ٢٣٧ — ٢٣٨

(٢) إرسال : تاريخ غزوات العرب ص ٢٣٥

(٣) نفس المرجع ص ٢٣٧

الفدية ، قد جلب عليهم كثيراً من المحن حينئذ ، لاسيما رأب ممرات الألب .
وأكامها ، كانت تتحكم في الطرق الموصلة إلى المزارات في إيطاليا وأماكن
الحج المسيحية (١) ، التي يقصدها نفر من الرهبان ورجال الكنيسة ، وكثير من
الرعايا المسيحيين . ففي سنة ٩٧٢ م قام مقدم دير كلوني الشهير في برجنديا
ويدعى مايول Mayeul بالحج إلى روما وزيارة الأماكن المقدسة في إيطاليا ،
ثم قفل راجعاً إلى بلاده متخذاً طريق درفينة ، إلا أنه وقع في أسر المسلمين
القاطنين في المناطق الجبلية هناك ، هو ومجموعة كبيرة من الحجاج ورفض
المسلمون فك أسرهم إلا بعد دفع فدية كبيرة (٢) ، وبعد مشقة وعناء تمكن
الأسرى من دفع الفدية الكبيرة وجرى إطلاق سراحهم ، فعادوا إلى بلادهم
وكلهم خنق وكراهية على المسلمين ، وذاعت قصة أسرهم وهم في طريق العودة
من الحج ، فأثارت موجة من الضيق في الغرب الأوربي ، وبعثت الحماسة في
نفوس كثير من المحاربين للخلاص من أولئك المغامرين المسلمين ، الذين
روعوا تلك المناطق (٣) ، ونهض أحد سادة تلك المناطق ويدعى بوبون
(بينون) I. bon وجمع حوله كثيراً من المقاتلين الأشداء وداهموا الحصون
الإسلامية ، قضاها على من فيها قتلاً وأسرّاً وخرّبوها ، ووضعوا حدا لهذه
الإغارات المدمرة عبر طريق الحج إلى إيطاليا ، وألهمت هذه الانتصارات
حماسة النصاري في الجهات الأخرى لاسيما في دوفينة ذاتها ، فالتف المحاربون
حول قائد يدعى جيوم ، وهاجموا المسلمين في مراكزهم في دوفينة وقلاعهم

(١) Brooke : op. cit p. 116 .

(٢) أرسلان : نفسه ص ٢٣٨ — ٢٣٩

(٣) Brooke : op. cit. p. 335 .

(٤) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٤٠

الحصينة ، ونجحوا في تشتيت شملهم وتمزيقهم كل ممزق ، فانهارت السيادة الإسلامية في دوفينة ، ولم يبق للمسلمين سوى مراكز بروفانس (١) .

ولعل أهم ما يجري بعد ذلك هو سقوط حصن فرا اكسنتم ذائع الصيت سنة ٩٧٥ م (٣٤٩ هـ) وتصفية السيادة الإسلامية في بروفانس (٢) ، فقد تشجع جيوم هذا بعد إحرازه النصر على المسلمين في دوفينة ، وما لبث أن وثب إلى السلطة في بروفانس ذاتها ، وتلقب بالأمير ، وعزم على تصفية الوجود الإسلامي في بروفانس نهائيا ، وإسقاط حصنهم الحصين في فرا اكسنتم (٣) ، وانحاز إليه سادة النواحي القريبة ومنهم كونت نيس ، وحشدت قوات المسيحيين على مقربة من مواقع المسلمين في بروفانس . ويبدو أن هؤلاء أحسوا أنها معركة فاصلة يتوقف عليها بقاؤهم أو فناؤهم في هذه البلاد ، فلم يدخروا وسعا في الاستعداد لها (٤) ، وجربوا هذه المرة أن يحتشدوا جوعا في السهول المجاورة ، عل المعركة تكون لهم ، لكنهم بذلك فقدوا أهم ميزة تميزوا بها خلال تاريخهم في هذه البلاد ، وهي حرب العصابات والآكام وحرب الكر والفر والهجمات الخاطفة المؤثرة ، إذ حينما اندلعت معركة « تور تور » Tourtour سنة ٩٧٥ م دارت الدائرة فيها على المسلمين (٥) ، وارتدوا إلى قلاعهم لاجتئاء بها ، ولاندوا بحصن فرا اكسنتم حصانته ، غير أن المسيحيين ضيقوا عليهم الخناق واشتدوا في حصارهم ومطاردتهم ، فلم يجد المسلمون بدا من محارلة الفرار نجاة بأنفسهم

(١) نيس المرجع ص ٢٤١

(2) Reinaud : Mus . Col p 157

(٣) طرخان : المسلمون في أوروبا ص ٢٦٠

(4) Reinaud : op cit, p. 157

(٥) طرخان : نفسه ص ٢٦٠

تحت جناح الظلام الإحتباء بالغابات المجاورة، غير أن أعداءهم لحقوا بهم هناك، وأمعنوا فيهم قتلا وأسرا، واستسلم بعضهم ممن احترف الزراعة في الضياع المجاورة. ويذكر المؤرخ رينو عن روايات فرنسية قديمة أن بعض المسلمين فروا إلى البحر وذهبوا إلى الأندلس أو إلى صقلية أو سواحل إفريقيا^(١). وأجبر البعض الباقي على التنصر، وانهارت بسقوط حصن فرا كستيم سيادة المسلمين في بروفانس وجنوب فرنسا، وما بين إيطاليا وفرنسا، بعد أن مرح المسلمون في هذه الجهات أكثر من ثمانين سنة، واقتسم سادة النصارى أراضى العرب ومغانمهم وانتهت بذلك السيادة الإسلامية في تلك الجهات^(٢). وتشير النصوص إلى أن جيوم قد حاز نفائس كثيرة من حصن فرا كستيم، فقد كان هذا الحصن مركزا لجميع المسلمين المجاهدين في فرنسا وثمان إيطاليا وسويسرا^(٣)، ولابد وأنه كان غاصا بالأموال والنفائس، لأن الكونت جيوم بادر بتوزيع الأموال على أصحابه الذين أبلوا بلاء حسنا، فحازت كثير من الأسر ثروات طائلة كانت سببا في شهرتها في العصور اللاحقة^(٤)، واستولت الكنيسة أيضا على كثير من الأراضى التي كانت بأيدي المسلمين ربما لأن رجال الدين ورجال الأديرة كانوا أكثر من غيرهم تضررا من هجمات المسلمين وغزواتهم، فكان رجال الدين على رأس الطلائع التي انتهت التواجد الإسلامى في تلك الجهات من ناحية ومن أوائل النمازين بما كان يمتلكه المسلمون من أراضى شاسعة من ناحية أخرى، ولم يخل جيوم على أولئك بشيء حتى

(١) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٤٢

(٢) نفس المرجع ص ٢٤٥

(3) Reinaud : op cit p. 157

(٤) أرسلان نفسه ص ٢٤٥

-حاز شهرة كبيرة في تلك المناطق (١).

ولم يمض وقت طويل على ذلك ، حتى قضى المسيحيون على معظم المستعمرات الإسلامية في جهات الألب وممراتها ، وطورد المسلمون هناك أشد مطاردة في حروب كانت أشبه بالحروب الصليبية (٢) ، ولعل صدى انتصارات بيزنطة على عهد كل من الإمبراطور نقفور فوقاس ويوحنا زمسكيس وباسيل الثاني ضد المسلمين في الشرق قد ألهم حماسه مسيحي الغرب الأوربي فطاردوا المسلمين في كل البقاع هناك ومنقوهم — الأسف الشديد — كل ممزق ، وأجبر البعض على التنصر ، ولم يقترب القرن العاشر الميلادي من نهايته حتى كانت سيادة المسلمين قد ولت من غاليسيا وسويسرا مثلما ولت من بروفانس وغيرها من الجهات (٣). ولم تستطع أسبانيا الإسلامية أن تمد يد العون لأولئك المغامرين البواسل ، لأن الظروف والأحداث الداخلية كانت أقوى . وهكذا كثبت نهاية المستعمرات الإسلامية في غرب أوربا قرب أواخر القرن العاشر الميلادي ، على الرغم من أن كثيرا من أولئك المغامرين ، ظلوا باقين هناك واختلطوا بالسكان ، وتزاوجوا معهم ، ويمكن تتبع آثارهم التي لا تزال باقية مبعثرة في مناطق كثيرة (٤) .

(١) نفس المرجع ص ٢٤٥

(٢) طرخان : المسلمون في أوربا ص ٢٢٤

() Reinaud : op. cit, p 157

(٤) الإصطخرى : المسالك والممالك ص ٥١

يانوت الحموي : معجم ج ١ ص ٢٦٣

Reinaud : Mus. Col, p, 130 — 3

البَابُ الرَّابِعُ

العلاقات الدبلوماسية والصلات الحضارية بين الجانبين

الفصل السابع : العلاقات الدبلوماسية والصلات الحضارية بين الجانبين .

الفصل الثاني

العلاقات الدبلوماسية والصلات الحضارية بين الجانبين

رأينا في الصفحات السابقة كيف اتسمت العلاقات بين الفرنجة ومسلمي أسبانيا الأمويين بالعداء الشديد ، وكيف اندلعت الحروب بين الدولتين ضارية في كثير من المراحل على المستوى الرسمي^(١) ، وعلى المستوى الشعبي غير الرسمي أيضا^(٢) . ويلاحظ أن الفترة المبكرة من الحكم الأموي في أسبانيا اتصفت بالعداء الشديد تجاه الفرنجة ، ولونتها الحروب المريرة وغصت بالهجمات المتبادلة بين الدولتين ، بدأتها دولة الفرنجة على عهد شارلمان وعبد الرحمن الداخل^(٣) ، وتعرض شارلمان خلال حملته على أسبانيا لكارثة كبيرة راح ضحيتها زهرة شباب جيشه ، وكل فرسان المؤخرة في ذلك الجيش الكبير . ولا بد أن شارلمان قد اقتنع بعد ذلك أنه من الأوفق تغيير تلك السياسة وإحلال الوئام والسلام محل الحرب والتصارع^(٤) . فقد تحقق الفرنجة من قوة الأمويين في أسبانيا ، وأنه من المستحيل زحزحتهم قد أنملة عن إمارتهم.

(1) Einhard : op. cit, p. 143

ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٦٢ ، العذري : ترميع الأخبار ص ٢٥

(2) Daniel ; op. cit. pp. 51 — 60

Brooke : op. cit, pp 35 — 6

Hoyt and Chodorow : op. cit pp 192 — 3

(3) El - Hajji : And. Dip. Rel with western Europe during the Umayyad Period p. 151

(٤) القري : انفع الطيب ج ١ ص ٣١٠

التي قاسوا الأمرين في تأسيسها وكفالة الأمن فيها ، وأنه ليس من السهل قهر عبد الرحمن نفسه لما يتمتع به من عزم وتصميم وقوة بأس ، ولهذا فقد مال الفرنجة إلى المصالحة وعقد الهدنة مع الأمويين تجنباً للحرب والصراع ، وإن لم يصرفهم ذلك عن مراقبة الأوضاع في أسبانيا بحذر تحسباً لأي فرصة تمكنهم من التدخل في شؤون أسبانيا وإخضاعها إن رأت الظروف وسنحت الفرصة (١) .

ويبدو أن الأمويين قد أقاموا سياستهم في عمرها على أساس الاستجابة لأي نداء للمصالحة والصدقة من جانب دولة الفرنجة ، طالما تأكدوا أن هذا النداء أملت به رغبة حقيقية في السلام وجاء استجابة لإقتناع صادق بأهمية السلام والصالح معهم . والواقع أن ذلك لم يكن يتعارض مع خط سياستهم العليا في شيء ، إذ لم يحدث مطلقاً أن شرع عبد الرحمن الداخل (٧٥٥-٧٨٨م) في تعكير صفو السلام مع الفرنجة أو القيام بأي عمل بهجومى ضد دولتهم (٢) ، لأنه اتزم خلال فترة حكمه التي نيفت على الثلاثين عاماً بسياسة الدفاع تجاههم ، وغلبت هذه السياسة الدفاعية على علاقاته حتى مع غيرهم من النصارى لاسيما في شمال أسبانيا . ولم يحاول قط إثارة المتاعب مع أولئك الأعداء ، وإنما كان يحاول فقط التصدي لهجماتهم ويعمل على امتصاصها والتغلب عليها ، ربما بتحسين الأحوال الداخلية في بلاده من جراء الفتن والثورات (٣) ، والهجمات

(١) Lévi - Provençal. Histoire de l'Espagne Musulmane, I, p. 179

(٢) El - Hajji : Díp. Rel. between Anadalu'a and the Franks during the Umayyad period. ' The Islamic Quarterly V. XIII, N. 2, April - June 1961), p. 115

(٣) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ١٠١ - ١٠٣

ابن الأبار : الحلة البراء ، القسم المطبوع ، مئاة درزى ص ٣٣ ، ص ٠٠

من قبل العباسيين وغيرهم من الطامعين في السلطة . ويبدو ذلك منطقيا في ظل ما منيت به الأندلس في ذلك الوقت من محن ، إذ اندلعت الفتن والثورات في كل مكان فيها وتطلع أكثر من شخص للوصول إلى مقاليد السلطة فيها ، ولم يكن بوسع عبد الرحمن الذي حمل عبئا ينوء تحته أعتى الرجال أن يفتح جبهات أخرى في العداء مع جيرانه النمرنجة ، وإنما مال خلال حكمه الطويل إلى سياسة الدفاع تجاههم ، ولم يحاول إثارتهم في أى وقت من الأوقات ، وعول في سياسته على الدبلوماسية بقدر ما يستطيع (١) .

وتذكر المصادر المعاصرة أن حكاه قرطبة الأمويين ، قد أحاطوا أنفسهم ابتداء من عهد عبد الرحمن - بمجموعة من المستشارين والوزراء ، بلغت أحيانا نحو اثني عشر رجلا متخصصين في مختلف الشؤون والقضايا ، لا سيما في النواحي المالية والإقتصادية والتجارية والقضاء والدبلوماسية والحرب (٢) . ومعنى ذلك أنهم عولوا في كثير من الأحيان على اتباع أسلوب السياسة الدبلوماسية قبل اللجوء للحرب مع أعدائهم .

وحينما قام شارلمان بحماته المشار إليها على شمال أسبانيا ، وحاصر سرقسطة تحرك عبد الرحمن إلى الشمال لمحاولة إرغامه على التراجع والارتداد عن المدينة إلا أنه وصل بعد أن كان شارلمان قد ارتد فعلا عنها دون أن يحقق هدفه (٣) ، ودل عبد الرحمن على أنه لم يكن راغبا في ذلك الوقت بالذات في توسيع الهوة مع النمرنجة وزيادة روح العداء معهم ، فلم ينتبع عبد الرحمن الداخل شارلمان

(1) Lane - poole : op. cit. p. 63

(2) Jackson : op. cit, p, 25

(٣) السيد محمد المزبوز - سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٢٠٤ (بيروت

وجيشه المتراجع أو يحارل الانقضاض عليه ، وإن كان شارلمان قد منى بهزيمة ساحقة في ممر رونسفال وفقد مؤخرة جيشه هناك^(١). ويؤكد المؤرخون أن شارلمان هو الذى مال بعد هذه الكارثة إلى تبديل سياسته تجاه الأندلس ، وإحلال السلام والوئام معها محل الحرب والنزال^(٢) ، ولهذا فقد تبودلت السفارات بين الجانبين ، وحلت العلاقات السلمية محل العلاقات العدائية حتى في الفترات التي تخالفت اندلاع اشتباكات محدودة بينها أو حملات صغيرة بينها^(٣).

فقد جرت سفارات ورسائل بين عبد الرحمن وبين شارلمان ، في الأيام الأخيرة لحكم عبد الرحمن ، وحلت فتره وئام وسلام بين العاهلين ، لأن المؤرخ المقرئ يشير في غير موارد إلى ذلك ، على الرغم من أنه لا يذكر لنا أى الرجلين كان البادئ بالكتابة إلى الآخر إذ يقول المقرئ : « وخاطب عبد الرحمن قارله (كارل أو شارلمان) ملك الإفرنج ، وكان من طغاة الإفرنج ، بعد أن تمرس به مدة ، فأصابه صلب المكسر ، تام الرجولية ، فمال معه إلى المداراة ودعاه إلى المصاهرة والسلم ، فأجابه إلى السلم ولم تتم المصاهرة .. »^(٤). ولقد أثار هذا النص كثيرا من الخلاف ووجهات النظر ،

(1) Einhard : op. cit, p. 143

(2) المقرئ : نفخ الطيب ج ١ ص ٣١٠

(3) Reinaud : Mus. Col. p 4

(4) المقرئ : نفخ الطيب ج ١ ص ٣١٠

Pascual de Gayangos : The Hist. of the Mohammedan dynasty in Spain, II, pp. 85 — 6 (London 1843)

El - Hajji : op cit. p 116

بل تشكك فيه البعض واعتبره ضربا من المحال أو أسطورة من الأساطير ، ربما لأن إحلال السلام بين العاهلين ، ونبذ الحرب والنزاع والشجار لا يستلزم المصاهرة ، وعرض المصاهرة مع المعرفة التامة بميول كل من الرجلين . فكلاهما كان متمسكا بأهداب دينه حريصا على قيمه ومبادئه ، وعلى عدم إيذاء مشاعر قومه ، شارلمان الذى أفنى عمره فى الإخلاص لعقيدته المسيحية وحارب السكسون والآفار وغيرهم بهدف نشر المسيحية وابتغاء مرضاة الله (١) ، وأقام حلفا مع الكنيسة الغربية والبابوية ، وحظى بتأييدها ورضائها ، لم يكن يتوقع منه أن يعرض مصاهرة مع أمير المسلمين فى الأندلس فى ظل أقوال كثيرة بتعرض المسيحيين فى أسبانيا للاضطهاد والمضايقة ، وفى ظل العداء المستحكم — فى ذلك الوقت — بين الإسلام والمسيحية . وعبد الرحمن الذى قضى شبابه وكهولته فى تأسيس الإمارة الأموية فى أسبانيا والتصدي لفتن المولدين ونصارى أسبانيا (٢) ، ومحاولة إرضاء كافة الأهواء والمشارب فى بلاده لم يكن ليعرض المصاهرة على عاهل المسيحيين فى الغرب أو محاولة نسيان كل التجارب السابقة مع الفرنجة . لهذه الأسباب استبعد البعض قيام عروض بهذا الشكل بل تشككوا فى نص المقرئ نفسه ولم يقبلوه من أساسه (٣) .

بل حاول بعض الكتاب المحدثين مناقشة القضية ذاتها ، فتسائل مورفى Muiphy أى الرجلين هو الذى بادر بعرض اقتراحه بالسلم والمصاهرة ، وأيهما كان حريصا على قيام هذا السلام وحاول المصاهرة ، وخلص من ذلك

(1) Einhard : op. cit. pp. 141 — 2

(٢) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٥٦

المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢٩

(3) El-Hajji : op. cit. p. 116

بأن عبد الرحمن هو الذي عرض ذلك الاقتراح^(١)، وأيده مؤرخ محدث. في الشرق بالقول بأن عبد الرحمن، فيما يبدو هو الذي طلب الاقتراح بإحدى بنات شارلمان، والمرجح أنها « هروتروود » كبرى بنات شارلمان، وكانت وحدها التي تصلح للزواج في ذلك الحين^(٢). وعارض البعض هذا الاتجاه وذهبوا إلى القول بأن شارلمان هو الذي بدأ هذا الحوار وعرض المصاهرة، ولكن عبد الرحمن هو الذي رفض الاقتراح^(٣).

ويذكر المؤرخ الشهير رينو Reynaud^(٤)، أن المقرئ إنما يقصد عبد الرحمن الثاني أو الأوسط حفيد الداخل، لأن علاقاته بملك الفرنجة شارل الأصغر كانت على ما يرام، ولكن هذا القول تنقصه الدعامة والتأييد، إذ لم يقل به أحد آخر، ويؤكد الباحثون المحدثون أن المقرئ إنما يقصد عبد الرحمن الداخل. والواقع أن نص المقرئ — على حد قول مؤرخ محدث — يشير قضايا هامة تحتاج إلى مناقشة للوصول إلى الحقيقة^(٥) ومن تلك القضايا: من من الرجلين هو الذي عجم عود الآخر وتمرس به في القتال على حد قول المقرئ؟ ومن منهما هو الذي بادر بطلب السلام من الآخر؟ ومن الذي عرض أولا المحالفة والمصاهرة؟ ينبغي علينا أن نجد حلا لهذه المسائل وإجابات لهذه الأسئلة^(٦). وعلى الرغم من أن تعبير المقرئ في هذا النص ليس واضحا تماما. ولا

(1) Murphy : Hist of the Mohometan Empire in Spair, p. 84

(٢) عنان : دولة الاسلام في الأندلس ج ١ ص ١٨٨ حاشية ٢

(3) Scott : op. cit. I, p. 409

(4) Reinaud : Mus, Col. p 91

(5) El - Hajji : op. cit, p. 116

(6) Ibid, p, 116

يمكن الجزم أو القطع بما كان يقصده في تلك العبارات ، وعلى الرغم أيضا من أن العبارات السابقة لهذا النص أو اللاحقة على حد سواء لا تقدم لنا معاونة يمكن أن تقربنا إلى انهم وإلى الحقيقة (١) ، وذلك لأنه يحتمل أن يكون عبد الرحمن الداخل هو الذي طلب المحالفة والمصاهرة من شارلمان ، كما يحتمل أيضا أن يكون شارلمان هو الذي طلب ذلك ، فكلتا الاحتمالين قائم وجائز ، أقول على الرغم من كل ذلك فإننا سنحاول أن نحل هذه المسألة ، ونصل إلى الحقيقة في ضوء الأحداث التاريخية المتصلة بهذه القضية ، ونحاول أن نستعرض الأحداث الداخلية المعاصرة في القطرين والدولتين ، عانا نوفق في تقديم تحليل مرض لهذه المشكلة .

والواقع أن أحداث هذه الفترة دونها المؤرخ الثقة ابن حيان تدوينادقيقا ، وليس من شك في أن المقرئ قد استقى هذا النص من ذلك المؤرخ الثقة ، ويؤكد ذلك أنه اقتبس أيضا من ابن حيان الفقرات السابقة واللاحقة لهذا النص ، ويؤكد المؤرخ ذائع الصيت ليفي بروفنسال (٢) ، أن المقرئ نقل هذا النص وهذه الحادثة من ابن حيان ، وأنه من المحتمل أن يكون قد قلب الأوضاع أثناء هذا النقل ، ولم يحسن التعبير عما استقاه من مادة تاريخية من ذلك المؤرخ الثقة ، ولهذا فإننا نستبعد تماما أن تكون أصالتها أو صدقها موضع شك على الإطلاق ، لأن الأحداث التاريخية السابقة واللاحقة تؤكدها تماما وتزيل من نفوسنا كل شك يتعلق بأصالتها وصدقها (٣) . إذ من الثابت أن

(١) المقرئ : تفح الطيب ج ١ ص ٣٠٩ — ٢١٠

(2) Lévi - Provençal : op. cit. 1, p. 127

(3) El - Hajji : op cit p. 116

شارلمان لم يقم بأية حملات عسكرية على الأندلس بعد حملته الفاشلة سنة ٧٧٨ م (١٦١ هـ) حتى نهاية حكم عبد الرحمن الداخل سنة ٧٨٨ ، بل حتى مطلع القرن التاسع الميلادي ، حين بعث بجيوشه للاستيلاء على برشلونة سنة ٨٠١ م (١٨٥ هـ) ^(١) . حقيقة وقعت اشتباكات بين الدولتين فيما بين وفاة الداخل سنة ٧٨٨ م والاستيلاء على برشلونة سنة ٨٠١ م ، ولكنها لم تكن اشتباكات هامة ، ولم تؤد إلى نتائج خطيرة في تلك المنطقة ، وإنما كانت ردود فعل سريعة لحالة العداء المستحكم بين الجانبين ^(٢) . أي أن شارلمان لم يقم بحملات بعد حملته الفاشلة طوال الفترة الباقية من عهد عبد الرحمن الداخل وهي فترة تربو على عشر سنوات . وهذا يؤكد أن عروض السلم والمواعدة يمكن أن تقدم في ظل ذلك الهدوء بين الدولتين وتوقف الحروب بينهما .

وثمة دليل آخر على حلول السلام والمواعدة في تلك الفترة ، فقد أشار المؤرخون المعاصرون إلى أن شارلمان قد اقتنع بعد المأساة التي تعرض لها في ممر رونسفال بعث أية محاولة ترمي إلى الاستيلاء على أسبانيا ^(٣) ، بعد أن اتضح له قوتها ، ومقدرة حاكمها الأموي وإحكام قبضته عليها ، وبعد أن صمدت مدينة سرقسطة في مواجهة جيش قوى جمع من كل أنحاء الإمبراطورية

(1) Lévi - Provençal : op. cit. I, p. 179

ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٦٦

(٢) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٢ ، ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٦٦

Scott : op cit, I, p. 429 , Oman : op. cit p 356

Deanesly : op cit, p. 353

(٣) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٠

الزنجية ودافعت المدينة عن نفسها دفاعا مجيدا (١) ، وخاصة أن شارلمان كان قد افترض أن مسألة احتلال الأندلس ، وتحطيم حكومتها يعتبر أمرا سهلا ميسورا ، فكانت المفاجأة شديدة ، والصدمة عظيمة ، حين تراجع دون أن أن يحقق هدفه ، فلا بد وأنه قد غير سياسته و حاول إحلال السلام محل الحرب والنزال .

أما الدليل الثالث على حلول السلام والمواذعة بين شارلمان وحكومة قرطبة في السنوات الباقية من عمر عبد الرحمن الداخل ، يكمن في الأحداث الداخلية في الإمبراطورية السكارولنجية ذاتها ، فقد استنفذ السكسون جهدا عظيما من شارلمان ، وصرفوا جانبها كبيرا من جهورده ، ولم يستطع إخضاعهم إلا بشق الأنفس (٢) ، وفي خلال ذلك كان بحاجة ماسة إلى السلام مع جيرانه في أسبانيا حتى يلتفت إليهم ويكمل إخضاعهم وتحويلهم إلى المسيحية نظرا لما درجت عليه هذه القبائل من عناد ومن الرغبة في الردة عن المسيحية كلما لاحت الفرصة (٣) ، فضلا عن أنهم كثيرا ما استفادوا من طبيعة بلادهم الوعرة المليئة بالغابات والأحراش واستتروا عن أعين الزنجية كلما جاء هؤلاء لتبعضهم ، ثم العود إلى العبث بعد رحيلهم مع صعوبة تتبعهم وسط الأحراش والغابات والآكام (٤) .

ولقد كان السبب الأساسي لرغبة شارلمان في إحلال السلام ، ما أصاب

(١) مؤرخ مجهول : أخبار مجموعة ص ١١٣

(2) Einhard : op. cit. p. 141

(3) Davis : op. cit p. 144

(4) Einhard : op cit. p. 141

Oman : op cit pp. 349 — 50

جيشه وحملته في أسبانيا من كارثة ، وبعد أن دافعت سرقسطة دفاعها المجيد ،
نما نقض المسلمون والبشكنس على مؤخرة الجيش الفرنجي فأبادوها ،
واستنقذوا الرهائن وعادوا بها ، ولابد وأن شارلمان قد علم بأن عبد الرحمن
هو المسئول الأول عما لحق بالجيش الفرنجي هناك من كوارث ، وأن الفرق
الإسلامية التي شاركت في مهاجمة جيش الفرنجة كانت مدعمة بتأييد وعون
عبد الرحمن ، الذي لابد قد أمدّها بالسلاح والعتاد والأموال (١) . وفي ضوء
ذلك يمكن فهم عبارة المقرئ : « بعد أن تمرس به مدة ، فأصابه صليب المسكر
تام الرجولية » (٢) . ومن ثم فشارلمان — في رأى مؤرخ محدث — هو الذى
عجم عود عبد الرحمن واختبره ، فألقى فيه تلك المميزات ووجده صليبا يعز
على الانكسار ، وليس الداخل هو الذى عجم عود شارلمان واختبره (٣) ،
لأن عبد الرحمن لم يهاجم شارلمان في بلاده ويعجم عوده ويختبر قوته ،
ليقرر ما إذا كان في الإمكان الاستمرار في ذلك الهجوم أم لا ، وإنما
العكس هو الصحيح ، بأن الذى عجم عود الآخر إنما هو شارلمان الذى لابد
اقتنع بأن عرده كان صليبا ليس هينا ولا لينا يغرى بالاستمرار في الحرب ،
فأوقف كل مشروعاته العسكرية طوال عهد الأمير أو ما بقى من عهد هذا
الأمير (٤) .

ويؤكد هذا أيضا أن عبد الرحمن لم يسع إلى هذه الحرب ولم يكن
سببا فيها حتى يقال أنه أراد أن يختبر قوة شارلمان ويعجم عوده ، وإنما

(١) المقرئ : تاريخ الأندلس ص ٢٢٥ ، ان الأمير : الكامل ج ٦ ص ٦٢

(٢) المقرئ : نفع الطيب ج ٣ ص ٣١٠

(٣) El - Hajj : And, Dip. Rel. p 128, pp 1-6 — 7

(٤) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٣١٠

فرضت عليه الحرب ولم يسع هو إليها ، ولم يكن سببا لاندلاعها ، وإنما أدى تطور الأحداث إليها وما ماجت به الأندلس حينئذ من فتن وثورات وما جرى من استنجد بعض الثوار بشارلمان والتماس معونته وتأييده (١) . إذن نخلص من ذلك كله بأن شارلمان هو الذى « تمرس بعبد الرحمن مدة » وهو الذى عجم عوده « فأصابه صلب المكسر قام الرجولية » ، وليس عبد الرحمن هو الذى فعل ذلك . وهناك دليل يدعم هذا رأى أن المقرئ عاد فى الصفحة التالية لهذا النص يصف رجولة عبد الرحمن وشدة بأسه ومضاء عزيمته حين خرج بعد عودة شارلمان إلى ثوار الشمال فنكل بهم وأنزل بهم صارم العقاب ، واشتد جدا فى التشكيل بأولئك الذين التمسوا المساعدة من شارلمان (٢) ، فأثبت للفرنجة بذلك أنه عزيز المرام صلب العود قوى البأس فاقننح شارلمان بضرورة إحلام السلام معه (٣) .

ويضيف المؤرخ المحدث جاكسون Jackson إلى الأسباب التى أقنعت شارلمان بضرورة إحلال السلام مع أسبانيا الإسلامية ، سببا آخر على جانب كبير من الأهمية ، وهو يتعلق بالنواحى الإقتصادية والمالية لدولة الفرنجة ، فيذكر أنه بنجاح عبد الرحمن فى بناء اقتصاد مستقل عن المشرق ، واتجاهه إلى الأخذ بنظم الموازين والمقاييس الرومانية التى كانت سائدة ومتمشية مع النظام التجارى فى أسبانيا ٤ ، وسكه عملة خاصة قوامها الدنانير الذهبية ، فإنه يمكن

(١) El - Hajji : And. Dip. Rel. p. 141

(٢) مؤرخ مجهول : أخبار مجموعة ص ١١٤

(٣) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٠

(4) Jackson : The Making of Mod Spain, p. 14

أن تؤكد أن إمارة قرطبة قد لعبت دوراً هاماً وبارزاً في العلاقات التجارية مع أوروبا ، فضلاً عن أن النظام المالي الكارولنجي قد أعيد تنظيمه اعتباراً من سنة ٧٨٠ م على أساس عملة تزن نصف دينار قرطبة تماماً (١) ، بما يعنيه ذلك من أهمية اقتصادية وتجارية لأسبانيا في ذلك الوقت ، وضرورة إحلال السلام والوثام معها لإنعاش التجارة والاقتصاد في غرب أوروبا ، كل ذلك لابد قد اقنع شارلمان بإحلال السلام محل الحرب .

ويضيف مؤرخ محدث آخر هو دايفز R. H. C Davis إلى ذلك أن العملة الفضية الكارولنجية كان لها صلة بالقيمة الاعتبارية للفضة والذهب في الدولة الإسلامية ، وتوقف على نشاط سوق الذهب والفضة في الدولة الإسلامية ثبات أو ارتفاع أو انخفاض العملة في الإمبراطورية الفرنجية (٢) ، فضلاً عن أن العلاقات التجارية ارتبطت حتماً بالأحوال السياسية والعسكرية بين الجانبين فقد تقلصت في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين بالنسبة لما كان قبل ذلك ، وما حدث بعد ذلك في القرن العاشر وما تبعه (٣) ، ويؤكد المؤرخون المحدثون أيضاً أن ثروة أسبانيا في تلك الفترة وما بعدها كانت عظيمة جداً في كافة الجوانب الصناعية والمعدنية وفي الزراعة والتجارة ، وأثرت أسبانيا من الذهب والفضة والمعادن الثمينة ، ومن محاصيلها الزراعية كثيراً ، الأمر الذي انعكس

(1) Ibid, p. 14

(2) Davis : A Hist. of Med. Europe, pp, 183 — 4

(3) Davis : op. cit p 184

Ganshof : “ Notes sur les ports de Provence du VIIIe au Xe siècles ” — Revue Hist, V. 183 (1938) pp. 28 — 37

على ازدهارها وكثرة المنشآت المعمارية فيها^(١) . كل ذلك لا بد قد اقنع شارلمان .
بضرورة إحلال السلام والوئام مع حكومة قرطبة إذا كان يريد الاستقرار
المالى والاقتصادى لبلاده .

وفي نفس الوقت كان عبد الرحمن الداخل يرحب بالسلام وحلول المواجهة
مع جيرانه الفرنجة بدلا من الحرب ، لما كان يعانيه في الأندلس من ثورات
داخلية ، وفتن كثيرة احتاج معها إلى سياسة خارجية هادئة خاصة مع جيرانه
الفرنجة تمكنه من التفرغ الكامل لمواجهة متاعبه الداخلية من ناحية ولما سمعه
من قيام نوع من التفاهم وعلاقات المودة بين شارلمان والعباسيين وتبادل السفارات
بينها من ناحية أخرى^(٢) ، إذ خشى عبد الرحمن أن يؤدي هذا التقارب بين
أعدائه إلى قيام حلف ضد دولته في الأندلس ، فقال إلى السلام مع الفرنجة
ورحب بالفكرة التي عرضها شارلمان ، وربما عبر عن هذه الرغبة بطريقة أو
بأخرى^(٣) ، فازداد ترحيب شارلمان بذلك .

وعلى هذا يمكن القول بأن شارلمان اقترح عقد معاهدة صلح وصداقة مع
عبد الرحمن الذي كان يرحب أيضاً بهذه الاتفاقية لإحلال السلام ، فالتقيتا
في نصف الطريق وعقدت المعاهدة ، على الرغم من أنه ليس من المعروف تماماً
متى عقدت ، وإن كان من المحتمل أنها عقدت في سنة ٧٨٠ م في أغلب

(١) Bernhard and whishaw ; op. cit. p. 160

(٢) ديفز : شارلمان ص ٢٩٥ (ترجمة العريني)

Enhard : op. cit. p. 144 , Deaneely : op cit. p. 284

Pirenne : op, cit. p. 160

(٣) El - Hajji : Dip. Rel. between And. and the Franks, p 117

الظن (١) ، وهذا يقوى الاتجاه إلى أهمية الاقتصاد والتجارة والمال في إجبار شارلمان على تغيير سياسته ، لأنه في نفس العام أعيد تنظيم الشؤون المالية والاقتصادية في دولة الفرنجة على أساس عملة تزن نصف دينار قرطبة كما ذكرنا من قبل (٢) . ويبدو أن شارلمان قرن هذه العروض الطيبة بالرغبة في مصاهرة عبد الرحمن ، فعرض زواج ابنته من عبد الرحمن ، إلا أن هذا اعتذر في لباقة عن هذه المصاهرة متذرعاً باعتلال صحته وتقدمه في العمر . ويشير بعض المؤرخين المحدثين إلى أن هذه الذريعة تجاوزت العرف ، وخرجت عن حدود اللياقة ، لأنها تخفى وراءها رفض إتمام هذه المصاهرة السياسية ، وتأكيد حلول الوئام والسلام بين الجارين العتيدين بطريقة حاسمة ، وكان يمكن أن يزوجه لابنه وولي عهده ، إذا كان فعلاً راغباً في هذه المصاهرة (٣) .

ولا يجب أن نستبعد قيام شارلمان بعرض هذه المصاهرة السياسية على عبد الرحمن ، فالدلائل كلها تشير إلى أن دولة الفرنجة أصبحت منذ ذلك الوقت معنية بحلال السلام والوئام مع حكمة قرطبة ، ولقد أشار المؤرخ المحدث — سالف الذكر — جاكسون إلى أهمية العامل الاقتصادي والمالي في العلاقات بين الطرفين ، وذلك في دراسة حديثة ممتازة أضاف بها الكثير إلى أفكارنا في هذا الجانب (٤) ، وتناول هذا الدارس الجانب الصناعي والتجاري في

(1) Ibid. p 118

(2) Jackson : op cit. p 14

Davis : op. cit. pp 183 — 4

(3) Scott : op. cit. I p 409

(4) Jackson : op. cit pp 21 — 22

أسبانيا الإسلامية فى تلك الفترة بشىء من التحليل ، أثبت من خلاله أهمية الدور الذى لعبته حكومة قرطبة فى هذا الميدان ، وفى إجبار دولة الفرنجة على الحد من غلوائها ، ومحاولة الالتفات لصوت العقل أحيانا ضمانا لاستمرار تبادل المنافع بين الجانبين (١) .

فقد أشار إلى أن ثمة نموا هائلا فى الصناعة قد ظهر إبان القرنين التاسع ، والعاشر الميلاديين ، وربما قبل ذلك لاسيما فى صناعة الخزف والأرانى ونقش ، وتزيين تلك الأوانى وتطعيمها بمختلف المعادن والسلع الجلدية ، والصناعات العاجية ، وصناعات الأثاث والعطور ، كل هذه الصناعات أنتجها آلاف الفنانين والعما ، فرادى أو فى جماعات فى مدن أسبانيا الإسلامية (٢) ، فضلا عن المؤسسات الصناعية الأكبر التى انهمكت فى صناعات الغزا والنسيج والأنسجة المزدانة بالرسوم والألوان ، وصناعات الأسلحة وصناعات الأصبغة وغيرها ، وكان الزجاج الصوانى أحد اختراعات قرطبة فى القرن التاسع ، وكذلك ظهر الاهتمام بحفر المناجم وكشفها على يد الأفراد وإنتاج الحديد والزئبق والملح . ومن ثم فقد انتعشت التجارة ، وتباد السلع وقليل ما عوقفتها الحروب الأهلية فى أسبانيا أو الحروب التى اندلعت بينها وبين المسيحيين من جيرانهم (٣) ، أى أن هذه المنتجات والصناعات قد وجدت طريقها إلى دولة الفرنجة التى كانت فى حاجة إلى مثل هذه الصناعات المتقدمة التى لا تستطيع إنتاجها أو الحصول عليها من أماكن أخرى .

(1) Ibid p. 21

(2) Ibid. pp. 21 — 22

(3) Jackson : op, cit p. 22

هذا فضلا عن أن أسبانيا قد لعبت دورا هاما في التجارة العالمية وتجارة الإمبراطورية الكارولنجية بصفة خاصة ، لاسيما في تجارة رقيق شرق أوروبا ، وأسري وسبايا الجيوش الفرنجية ، الذين عرفوا طريقهم عبر أراضي أسبانيا الإسلامية إلى برشلونة وبنبلونة (١) . ويؤكد المؤرخ المحدث دايفز أن العلاقات التجارية بين الجانبين في القرنين الثامن والتاسع قد تقلصت كثيرا عما كانت عليه قبل ذلك ، وعما أصبحت عليه بعد ذلك أي في القرن العاشر وما بعده (٢) ولا بد وأن الحروب وسوء العلاقات السياسية والعسكرية كان لها ضلوع في ذلك . وهذا يؤكد أن الجانبين قد أدركا حتما مغبة الحرب ورغبا في إحلال السلام وإعادة الهدوء في المنطقة ، للسماح للتجارة وتبادل السلع بالنمو والازدهار .

وعلى هذا يمكن القول أنه في ضوء أحداث العصر ، والظروف الداخلية في كل من الدولتين ، قد توصلنا إلى حلول للقضايا التي أثارها نص المقتضى ، وقدمنا إجابات للتساؤلات التي أوردتها (٣) . ففضلا عن ثبوت صحة هذا النص وأصالته وسموه عن التلفيق أو الخطأ ، فقد ثبت أن شارلمان هو الذى عجم عود عبد الرحمن واختبره فى القتال ، فوجده صلبا ، وأنه هو الذى بادر بطالب إحلال السلام والصدقة محل الحرب والنزال (٤) ، كما أنه هو الذى عرض

(١) Ibid. p 24

(٢) Davis : op. cit p. 183 — 4

(٣) El - Hajji : op cit. p. 118

المقتضى : نهج الطيب ج ١ ص ٢١٠

(٤) Scott : op, cit. I, pp. ٧٠٩

المصاهرة السياسية وزواج ابنته من عبد الرحمن ، الذي قبل عروض السلام واعتذر عن اتمام المصاهرة والزواج ، كما جرى إثبات أن روح السلام وسياسة الوئام كانت تلقى ترحيبا لدى عبد الرحمن . وحكومة قرطبة (١) ، بدليل أنه سارع بقبول هذه العروض نظرا للظروف التي كان يمر بها من ناحية ، وخشية أن تنفاقم وتزداد علاقة الفرنجة بالعباسيين ، وتتطور الى قيام مشروعات مشتركة ضد الأندلس من ناحية أخرى (٢) ، فجرى عقد المعاهدة وحل السلام بين الجانبين .

ظلت معاهدة الصلح سارية المفعول طوال السنوات الباقية من عمر الأمير عبد الرحمن والسنوات الأولى من عهد ابنه هشام الرضا ، لكن الفرنجة عادوا إلى سابق سياستهم العدائية ضد المسلمين في أسبانيا عقب وفاة عبد الرحمن في سنة ٧٨٨ م (١٧٢ هـ) ، فأخذوا يتحينون الفرصة للتدخل في شئون أسبانيا ورغبة في النفاذ إليها (٣) ، وراحوا يحرضون نصارى الشمال بصفة مستمرة ضد حكومة قرطبة ، ثم أوردفوا ذلك بإرسال حملات هاجمت شمال أسبانيا — كما سبق أن فصلنا — سنة ٧٩٢ م (١٧٦ هـ) (٤) ، فاضطر هشام بن عبد الرحمن إلى إرسال جيش كبير اجتاز جبال البرتات وهاجم سبتما نيا وأمعن في القتل والأسر ثم عاد ظافراً إلى قرطبة ، وتلى ذلك قيام الفرنجة باحتلال برشلونة

(١) المقرئ : نفسه ج ١ ص ٣١٠

(2) Deanesly : op. cit. p. 24 . Pirene : (p. cit. p. 160

ودينز : شارلمان ص ٢٩٠ (ترجمة العريضي)

(3) Jackson : op. cit. p. 18

(4) Scott : op cit I, p. 429

سنة ٨٠١ م (١٨٥ هـ) على عهد الحكم بن هشام^(١) ، ثم هاجموا الثغر الأعلى بعد ذلك بسنوات في ٨٠٨ — ٨٠٩ م (١٩٢ هـ) تحت قيادة لويس بن شارلمان ، وحاصروا طرطوشة ، إلا أنهم أجبروا على الارتداد تحت وطأة جيش الحكم الذي قاده ابنه عبد الرحمن لمهاجمة الفرنجة وإجلالهم إلى بلادهم^(٢) ، ثم حدثت مجرعة اشتباكات حربية أيضا في البحر^(٣) ، أقنعت الفريقين بعقم هذه الحروب وعيشها فشلا معا إلى عقد الصلح ، وإحلال السلام ، وأظهر كل من شارلمان والأمير الحكم بن هشام رغبةهما في عقد الصلح^(٤) .

وتشير الدلائل إلى أن شارلمان كان يرحب بعقد الصلح أيضا مع الأمير الحكم ، وذلك في السنوات الأخيرة من حكم شارلمان نظراً لاشتداد وطأة الأحوال الداخلية في بلاده ، وعدم إمكانية الالتفات إلى أسبانيا أو توجيه حملات لمحاربة الأمويين فيها ، فالمتبع لأحوال فرنسا في تلك الآونة يستطيع أن يصل ببسر وسهولة إلى فكرة عن اضطراب أحوالها الداخلية^(٥) ، بعد أن

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٦٩ ، ابن خلدون : المبرج ٤ ص ١٢٥

أرسلاز : تاريخ غزوات العرب ص ١٧٠ — ١٧١

Deanesly : op. cit. p. 354

(٢) ابن سعيد المعروف : المغرب في- إلى المغرب ج ١ ص ٤٠ ، المقرئ : فتح العاليم ج ١ ص ٣١٨

ابن هزاري : البيان ج ٢ ص ٧٢ ، ابن خلدون : المبرج ٤ ص ١٢٧ ،

Lévi - Provençal ; op. cit. I, p. 182

(3) Reinaud : Mus. Col. in France, pp 107 — 8

(4) El - Hajji : op cit. p. 118

(5) Cantor. : Med Hist. pp 234 — 5

pirenne : op. cit. pp. 250 — 2 , p. 273

Holt and Ch drow ; op. cit. p. 181 — 2

أن حمل اتساع الإمبراطورية وتضخمها معه بذور ضعفها وتداعيتها ، وأعطى فرصة سانحة للسلطات المحلية والموظفين العموميين لانتزاع حقوق وامتيازات صارت فيما بعد حقوقاً متوارثة وامتيازات مكتسبة ^(١) ، وحاز جباة الضرائب سلطه ونموذاً على حساب السلطة المركزية ، واتسعت سلطة القضاة في الأقاليم وجنح المبعوثون الملكييون إلى التثبيت بحقوقهم وتوريثها ، وساهم النظام الإقطاعي في تحويل الكونتات وحكام الأقاليم من مجرد موظفين عموميين إلى أتباع يرتبطون بالأرض ويحوزون إقطاعات واسعة ، غدت أساساً لاستقرارية طبقية في أنحاء مختلفة من الإمبراطورية ^(٢) . ولقد تنبه شارلمان إلى ذلك الخلل في نظامه السياسي في السنوات الأخيرة لحكمه ، إذ عكست مرسوماته وأوامره صورة قلقه وحققه على كبار الموظفين وإحساسه أن ثمة تداع لنظمه السياسية والاقتصادية ، وتأكل في طبقة الملاك الأحرار — عماد جيشه — وتضخم في الطبقة الإقطاعية وكبار النبلاء ، لما درجت عليه من احتواء أراضي صغار الملاك ، وغلوها في الاستبداد والمصادرات وانحدار القضاة وتزايد المختلسين والاصوص والمرتشين ^(٣) .

ولعل ذلك ما جعل شارلمان يذكر في الفترة الأخيرة من حكمه في الاعتكاف في أحد الأدبرة ليقضي بقية عمره في التمسك والتعب والصلاة لولا أن وافاه الأجل بعد ذلك بقليل ، وهو في السبعين من عمره ، وعلى الناحية الأخرى انهمك الأمير الحكم في إخضاع الثورات المتأججة في كل مكان ما بين حركات

(١) محمد الشيخ : شارلمان باعث النهضة الأوروبية ص ٢٧ (مقالة)

(٢) Cantor : op. cit. pp. 234 — 5

(٣) Pirenne : op. cit. pp 250 — 2 , p. ١73

الفقهاء ، وثورات المولدين ومسلمي الأسبان وثورات أعمامه عبد الله وسليمان وحرركات نصارى الشمال وهجماتهم على أطراف دولته (١) ، وغير ذلك من الثمن التي صرفته عن توجيه جهوده لحرب الفرنجة فمال كثير لعقد الصلح ، ولهذا عقدت بينه وبين شارلمان قبل وفاته بسنوات هدنة وصلح ، حل السلام بينهما وتوقفت الحروب فترة من الزمن ، وكان توقيع هذه الاتفاقية فى سنة ٨١٠ م (١٩٥ هـ) (٢) ، يشير أحد المؤرخين المحدثين إلى عامل هام ساعد على عقد هذه الاتفاقية فى سنة ٨١٠ م ، وهو نشاط الجماعات الإسلامية فى البحر وهجماتهم المدمرة على سواحل فرنسا وجزر البحر المتوسط وما سببه ذلك من إزعاج للسلطات الفرنسية التى رغبت فى إيقاف هذه الهجمات أو الحد منها ، لذلك لم يتردد شارلمان فى قبول الصلح وعقد الهدنة . (٣)

ويبدو أن هذه الاتفاقية الجديدة لم تكن من القوة بحيث تضمن بقاء الهدوء بينهما طويلا ، لأنه سرعان ما تجددت المصادمات الحربية فى العام التالى لتوقيعها ، ربما كان البادئ بها الفرنجة فى منطقة الثغر الفرنجى (قضاونيا) ، لأن الحكم بادر بإرسال جيش فى العام التالى هاجم برشلونة قاعدة الثغر الفرنجى والمناطق المجاورة لها (٤) ، ربما ردأ على انهالك الفرنجة لهذه الاتفاقية ، ولكن

(١) المقرئ : نصح الطبيب ج ١ ص ٣١٦ ، ابن مغازى : البيان : ج ٢ ص ٧٣
ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٦٨ ، عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ج ٢ ص ٢٢٣ ،

Schmitz : Enc. Isl art ' Al - Hakam '

(٢) F J. P. de Urbel ; Hist. de España, VI, p. 4.9

El - Hajji : op, cit. p. 118

(٣) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٨٤

(٤) ابن مغازى : البيان ج ٢ ص ٧٣

El - Hajji : And. Dip. Rel p 129

يبدو أن تلك الأعمال العسكرية لم تسفر عن نتائج حاسمة أو عن تغيير الأوضاع في تلك الجهات ، وغلبت الرغبة في السلام كلا الطرفين ، فعادا إلى الصلح والوثام ، لأن المصادر المعاصرة تشير إلى وصول سفارة أندلسية سنة ٨١٢ م (١٩٧ هـ) إلى عاصمة الفرنجة إكس لاشابل للتفاوض مع شارلمان نفسه (١) لإحلال السلام ، ولا بد أن الأمير الحكم أراد بمفاوضة شارلمان ذاته ضمان سريان الاتفاقية وعدم انتهاكها من جانب الفرنجة ، فالدلائل كلها تشير إلى ذلك وإلى أن الحكم أراد ضمانا أكبر لسريان الاتفاقية بمفاوضة عاهل الفرنجة نفسه ، بعد أن اقتنع أن مفاوضة الأمراء الفرنجة لن يكون لها ذلك الإلزام ولن يكون لها الاحترام الكافي (٢) . وهكذا وصلت السفارة إلى العاصمة الفرنجية والتقى السفير الأندلسي بشارلمان ، ونجح في عقد اتفاقية جديدة أمدها ثلاث سنوات . ويذهب المؤرخ رينو Reynaud إلى أن سفير قرطبة الذي نجح في عقد هذه الاتفاقية يدعى يحيى بن حكم ويقول أن المصادر الإسلامية المعاصرة والمؤرخون العرب المعاصرون وصفوه بأنه كان : «رجلا شجاعاً جريئاً» (٣) على الرغم من أنه ليس هناك ما يؤيد ذلك في المصادر العربية المتاحة ، ولكن من الثابت أن الحكم لم يكن ليختار لهذه السفارة إلا رجلا يتصف بهذه الصفات فضلا عن اللباقة والكياسة والذكاء ، للنجاح في هذه الصلات الدبلوماسية والسفارات السياسية بين دولتين لم يعرفا في تاريخهما الطويل لغة سوى لغة الحرب والقتال ، ويؤكد المؤرخ المحدث جاسكون أن أمراء قرطبة كانوا

(1) El-Hajji : op. cit pp. 129 — 30

(2) Reynaud : op. cit. p. 110

El-Hajji : Dip. Rel. between And. and the Franks, p. '18.

(3) Reynaud : op. cit p. 110

يختارون لسماراتهم المختلفة مع أوروبا وبنزلة شمال إفريقيا نقرأ من المستعربين .
سواء من المسيحيين أو اليهود الذين صقلتهم التجارب وتمرسوا على أرفع .
أسلوب في الدبلوماسية ، وحذقوا توجيه الحوار السياسي والدبلوماسي في
العلاقات الدولية (١) .

وعلى الرغم من كل ما بذل في سبيل إنجاح هذا الحوار الدبلوماسي
والصلات الودية لعقد تلك الاتفاقية ، إلا أنها لم تحترم أيضاً بل انتهكت أكثر
من مرة ، ومن كلا الطرفين ، ولسنا نشك في أن الانتهاك كان يأتي من
جانب الفرنجة في منطقة النهر الفرنسي ، الذين دأبوا على الهجوم على أطراف
النهر الأعلى ومدن الشمال ، كلما لاحت الفرصة غير متقيدتين في أغلب الظن
بمنظم أو اتفاقيات (٢) . ويبدو الأمر مفهوماً في ظل ما كان يطمح فيه أمراء
النهر الفرنسي في برشلونة وما حولها من استقلال ذاتي ، دون ارتباط بعجلة
السياسة الفرنسية وقد سبق أن رأينا كيف كان يختار أمراء ذلك النهر ، إما من
المتحدرين من أصل قوطي أو من الفرنجة ، وكيف جرت الأحداث في هذا
النهر بما يؤكده رغبة حكامه في الاستقلال الذاتي في سياستهم ، ولهذا فقد
عكروا — أكثر من مرة — صفو السلام بين المسلمين والفرنجة ، وانتهكوا
هدنات واتفاقيات سلام ، دون أن يكون في ذلك من جانبهم عملاً غير
مشروع (٣) . كما أنهم فهموا ما حدث من اتفاقيات بين الفرنجة والمسلمين على

(1) Jacks n : op. cit. p 30

(٢) ابن خلدون : المخرج ٤ ص ١٢٧
أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٧٨

(3) Deanesly : op. cit. p. 345

Lévi - Provençal : op. cit. 1, p. 181

أرسلان : الحلال السندسية ج ٢ ص ٢١٦ - ٢١٧ ، تاريخ : المسلمون في أوروبا

ص ١٨٦

أنها اتفاقيات لا تلزمهم بشيء ولا تشملهم ، ولهذا كثيراً ما جاءت الانتهاكات من جانب أولئك الفرنجة الرابضين في الشمال الشرقي لأسبانيا (١) . ويذكر ابن خلدون أن إغاراتهم في هذه المرحلة من عهد الحكم تزايدت على مدن الثغر الأعلى ، وكان الحكم في كل مرة يتحرك لصد خطرهم (٢) ، كما رد المسلمون على هذا الانتهاك بالقيام بعمليات عدائية ضد الفرنجة ، ثم الهجوم على جزيرة قورسيقا ، وذلك سنة ٨١٣ م (١٩٨ هـ) ، وعلى غيرها من أراضي الفرنجة بالقرب من جبال البرانس (٣) ، بقيادة عبد الرحمن بن الأمير الحكم الأول ، وكانت هذه الاشتباكات من القوة بحيث تركت آثاراً مدمرة في جنوب فرنسا وقتل في إحدى المعارك القديس أفانتين Saint Vranthin من أهالي إحدى المدن في مقاطعة الجارون ، وجرى تعظيمه بعد ذلك ، وإحاطته بهالة من القدسية ٤ .

وبعد وفاة شارلمان سنة ٨١٤ م ، وولاية ابنه إريس التقي ، وعلى الرغم مما أحرزه المسلمون من انتصارات في السنوات القليلة السابقة ، كان الأمير الحكم يميل إلى السلام وحسن الجوار مع الفرنجة لرغبته في الإلتفات لشئون بلاده في الداخل من ناحية ولما بلغه من تزايد قوة إدريس بن إدريس في المغرب من ناحية أخرى (٥) ، ولهذا عول على أن يسلك طريق المفاوضات مع الفرنجة .

(١) El - Hajji : An . Dip. Rel. p. 129

Jackson : op. cit. p. 18

(٢) ابن خلدون : البرج ٤ ص ١٢٧ — ١٢٨

(٣) Reinaud : op cit p 110

(٤) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٨٥

(٥) السلاي : الاستقصا في أخبار المغرب الأنصبي ج ١ ص ٧١ — ٧٢

ويعقد اتفاقية معهم ، فأرسل في عام ٨١٦ (٢٠١ هـ) سفراء إلى بلاط لويس
التي في فرنسا لعقد تلك الاتفاقية ، فاستقبلهم لويس التي في إكس لاشابل ،
وتمت المفاوضات بنجاح عقدت على أثرها اتفاقية سلام بين الطرفين ، ضمنت
الهدوء بينهما لفترة ، وإن لم تمتد طويلا (١) . وتذكر الروايات أن رسل
أمير الأندلس هم الذين كانوا جادين في طلب الصلح بحيث تحملوا مشاق
كثيرة قبل أن يلتقوا بالإمبراطور في إكس لاشابل ، فقد كان عليهم البقاء
لفترة في إحدى المدن في جنوب فرنسا ، قبل أن يسمح لهم بالوصول إلى مقر
إقامة الإمبراطور في إكس لاشابل (٢) .

وعلى الرغم من كل مما بذل في سبيل عقد هذه الاتفاقية ، فإن أمدها كان
قصيرا لأن الفرنجة عادوا في سنة ٨٢٤ (٢٠٩ هـ) ، بتوجيه من أريس التي
نفسه إلى غزو شمال أسبانيا ، وإخضاع البشكنس توطئة للهجوم على المسلمين
غير أن البشكنس استعانوا بحيرانهم المسلمين فنقض هؤلاء من مدن الثعرا الأعلى
لمؤازرتهم ، وتمكن الحلفاء من إزال هزيمة ثقيلة بجيش الفرنجة في ممرات
البرتات ، شابهت إلى حد بعيد معركة باب الشيزري ، وممر رونسفال قبلها
بسة وأربعين عاما (٣) .

ولقد كان حنق لويس التي على المسلمين عظيمها بعد هذه الهزائم ، إذ استبد
في الغضب واستبعد مفاوضات السلام ، ونبذ أسلوب الحوار السياسي ، وصمم
على الانتقام . فبعد ذلك بنحو عامين وفي سنة ٨٢٦ م (٢١١ هـ) ، دعا لويس

(1) Lévi - Provençal : op. cit. I p. 103

(٢) أرسلان : نفسه ص ١٨٦ — ١٨٩

(٣) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٩٢

التقى إلى اجتماع غير عادى فى إكس لاشابل ، يعقد تحت رعاية ابنه بين ملك أكويتين ، ويحضره كونتات الأقاليم الملازمة لأسبانيا ، وأعلن بين رغبة والده الإمبراطور فى مهاجمة الأندلس والانتقام لما نزل بالجيش الفرنجى فى ممرات البرتات (١) . ويشير المؤرخ رينو والمؤرخ ليفى بروفنسال إلى أمر هام مؤاده أنه حضر هذا الاجتماع قائد قوطى يدعى آيزون Aizon (عيسون) كان قد طرح طاعة الفرنجة ، وتأهب للاستيلاء على قطالونيا أو ما يعرف بالثغر الفرنجى أو القوطى ، ويؤكد رينو أن هذا القائد كان قد طلب معونة الأمير عبد الرحمن وتأييده ، ورحب الأمير عبد الرحمن بذلك وحثه على السفر إلى إكس لاشابل لحضور ذلك الاجتماع للوقوف على نوايا الفرنجة وخطاتهم القادمة فى الهجوم على المسلمين (٢) ، وعاد هذا القائد الثائر إلى قطالونيا وأراجون Aragon ، وأخذ يحرض هذه المناطق على الثورة ضد الإمبراطور الفرنجى وغدا بوسعه الاستيلاء على مدينة أشونة Ausona ، ثم ذهب بنفسه إلى قرطبة وطلب مساعدة الأمير عبد الرحمن لحماية هذه المدينة ليجعل منها قاعدة لعملياته ولتصمد فى مواجهة الفرنجة إذا تقدموا إليها (٣) ، ثم ما لبث الأمير عبد الرحمن أن بعث بجيش كبير إلى الشمال — كما سبقت الإشارة — نجح فى إلحاق بعض الهزائم بالفرنجة وعاد ظافراً إلى قرطبة (٤) . وتابع لويس التقي

(1) El - Hajji: Dip. Rel. between And and the Franks p 119

(2) Reinaud ; op. cit. p. 114

Lévi - Provençal : op. cit. I, p. 211

(3) Reinaud : op. cit. p. 114

أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٩٢

(٤) ابن عدارى : البيان ج ٢ ص ٨٥

أرسلان : نفسه ص ١٩٢

سياسة والده شارلمان في مصادقة الخلافة العباسية في الشرق نسكية في إمارة قرطبة ، فتبودلت التجارة والساع مع بلاد الشام ومصر ، وتبودلت السفارات بين الفرنجة والعباسيين ، ووصل وفد من ثلاثة رجال اثنان منهما مسلمان والثالث مسيحي وحملوا إلى الإمبراطور لويس التقي الهدايا الفاخرة ، منها المنسوجات الفاخرة والعطور وغيرها (١) .

وتوفي لويس التقي سنة ٨٤٠م ، واقتسم أبنائه الثلاثة أركان الإمبراطورية الفرنجية فحاز شارل الأصلع الجهات الغربية في الإمبراطورية ، بما فيها المناطق المتاخمة للمسلمين في أسبانيا ، وتذكر النصوص أن العلاقات بين هذا الملك الفرنجي والأمير عبد الرحمن الثاني لم يكن يسودها الوئام ، بل لونها العداء ، وغصت بالاشتباكات الحربية وبمحاولة كل طرف التدخل في شئون الطرف الثاني ، وتأيد ما يثور في بلاد الآخر من ثورات والتحريض على القيام بها (٢) ، وتوقف أسلوب الحوار بالسياسة والمفاوضات لفترة طويلة ولم يتجدد سوى في السنوات الأخيرة لحكم كل من هذين العاهلين . إذ يذكر المؤرخ ابن حبان أنه في سنة ٨٤٦ م (٢٣٢ هـ) ، قدم إلى بلاط قرطبة أحد الثوار الفرنجة سماه « غليام بن برباط بن غليام » (٣) كونت تولوز (William, Count Toulouse) grandson of William) في صحبة نفر من رفاقه طالبين مساعدة الأمير عبد الرحمن الثاني ضد ملكهم شارل الأصلع ، ولقد رحب الأمير عبد الرحمن بهذا الثائر ، وأجاب طلبه وقدم له المساعدة بحيث استطاع هذا الثائر أن يحرز

(١) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٩٤

(2) El-Hajji : and. Dip. Rel. p. 150

(٣) ابن حبان : المقتبس ص ١٨٩ ، عنان : دولة الاسلام في الأندلس ج ١ ص ٢١٥

انتصاره على الفرنجة ، وحاصر برشلونة وهاجم جيرونا ، وأصبح له دور هام في أحداث الثغر الفرنجي في ذلك الوقت (١) . ولم ينس هذا الثائر ما قدم له من معونة إسلامية ، فبعث بخطاب شكر وامتنان للأمير عبد الرحمن ، عبر فيه عن شكره لما قدمه له الأمير من مساعدة مكنته من إحراز الانتصارات في الشمال ، وتلقى الأمير عبد الرحمن هذه الرسالة بترحاب شديد ، وكتب على أثرها إلى عبد الله بن يحيى حاكم طرطوشة ، وعبد الله بن كليب حاكم سرقسطة ، يطلب منها مد هذا الثائر بكل ما يحتاج إليه من مساعدة وأن يبالغا في إكرامه (٢) ، وظلت علاقات المودة سارية بين هذا الثائر وبين الأمير عبد الرحمن فترة ، فقد أشارت المصادر المعاصرة إلى قدوم هذا الثائر إلى قرطبة بعد ذلك بنحو عامين أي في ٨٤٨ م (٢٣٤ هـ) (٣) .

ويشير المؤرخ رينو إلى أن وليم هذا كان أحد رجال يمين الصغير ابن أخى شارل الأصلع الذي فجر الثورة في أكويتين ضد عمه شارل الأصلع ، وأنه هو الذي أرسل وليم إلى بلاط قرطبة لطلب المساعدة (٤) . ولا بد وأن الأمير عبد الرحمن قد رحب بتقديم تلك المساعدة نظراً للعداء بين شارل الأصلع وحكومة قرطبة من ناحية ، ولقيام شارل الأصلع بمهاجمة الأراضى الإسلامية من جهة أخرى واستمر العداء فترة ، وحدثت بعض الاشتباكات الحربية بينهما ، ثم ما لبث أن غلبت عليها روح السلام من جديد ، ومالا إلى عقد الهدنة من جديد ، فتم عقد الصلح قبل وفاة الأمير عبد الرحمن الثاني بسنوات قليلة

(1) El - Hajji : Dip. Rel. between And: and the Franks, p. 119

(2) Ibid: p. 119

(٣) ابن حيان : المقتبس ص ١٨٩

(4) Reinaud : op. cit, p. 119 — 120

« و انتهت هذه المرحلة الهامة من الصراع بحلول السلام بين الجانبين (١) . ومن المحتمل أن هذه الاتفاقية هي التي أشار إليها ليفي بروفنسال والتي وضعها في سنة ٨٤٧ م (٢٣٣ هـ) (٢) .

ومن المحتمل أيضاً أن هذه السفارات والمفادضات قام بها أحد رجال الأمير عبد الرحمن الثاني ، وخاصة ممن كان لهم حظوة عنده وكان أثيراً لديه ، لأن المؤرخ ابن القوطية يشير إلى ذلك إشارة فيها نوع من الغموض إلى حد ما إذ قال : « وذلك أن رجلاً يعرف بالقصبي كانت له وجهة ، وكان يوفده عبد الرحمن بن الحكم إلى قارله (شارل) ملك الإفرنجة وإلى ملك الروم » (٣) . وليس من السهل معرفة الاسم الكامل لهذا المبعوث الذي سماه ابن القوطية « القصبي » أو معرفة أى شئ عن سفارته إلى الفرنجة ، ورحلاته الخاصة إلى بلاط شارل الأصلع أو ما يتعلق بهذه الأحداث وتواريخها (٤) . بل إن الروايات الإسلامية المعاصرة لا تستطيع أن تمدنا بما يشفي الغليل في هذه الأمور لأنها قدمت أسماء غريبة للملك الفرنجة ليس من السهل معرفتها ، ولولا ما قدمته من صفات وسميات هذه الشخصيات ، لظلت هذه الأسماء موضع شك كبير ، ولما عرفنا أى أولئك الملوك كانت هذه الروايات تقصد . فالمؤرخ ابن حيان يطلق على شارل الأصلع لقب « قرليبيبا » بن ردين ، ولكن ما يقدمه من وصف لهذا الرجل يجعلنا نتأكد أنه شارل الأصلع فالصفات التي يصفه بها تطابق تماماً ما كان معروفاً عن شارل الأصلع (٥) ، فهو يسميه ملك الفرنجة ويصفه بأنه على

(١) انظر مان : المرجع السابق ج ١ ص ٢٦٥

(٢) Lévi - Provençal ; op. cit. I, p. 213

El - Hajji : op. cit. p. 119

(٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح لاندلس ص ٩٢ (ط بيروت ١٩٥٧)

(٤) El - Hajji : op. cit. pp 119 — 120

(٥) Ibid. p. 120

جانب كبير من التقوي والورع ، وله شخصية قيادية ، ويعطى مدة حكم هذا الرجل تطابق مدة حكم شارل الأصلع تقريباً (٨٤٠ — ٨٧٧ م) (١) ، إذ يقول عنه : « ... وكان أكلفهم بذلك طاغوتهم الأعظم قرليبا بن ردين ، صاحب الإفرنجية الجبار المستبصر في دين الملكانية ، وكان أعظم ملوك الإفرنجية ملكاً ، وأفخمهم أمراً ، وأبجدهم صيتاً ، وكانت ولايته تسعاً وثلاثين سنة وستة أشهر ... » (٢) . ويقدم المؤرخ ابن عذارى نفس هذه الصفات الجامدة عن شارل الأصلع ، بينما يسميه قارلش (قرولش) (٣) ، كما فعل ابن الخطيب أيضاً في أعمال الأعلام (٤) ، وكذلك المسعودي في مروج الذهب (٥) ، ولهذا فتحن لا نستطيع أن نأخذ صورة واضحة عما كان يجري من صلات بين المسلمين في أسبانيا وبين الفرنجة من المصادر الإسلامية وحدها ، وليس أمامنا سوى قبول رواية ابن القوطية عن سفير قرطبة « القصبي » ، الذي نجح في عقد صلح واتفاقية سلام بين الجانبين ، قبل وفاة الأمير عبد الرحمن بن الحكم بسنوات قليلة ، وقرب منتصف القرن التاسع الميلادي (٨٤٧ م) (٦) .

ولقد احتفظ شارل الأصلع هذا بعلاقات الود والوئام مع الأمير محمد بن عبد الرحمن ، بل تبادل معه الهدايا مواصلاً ، بذل الجهد من أجل استمرار

(١) ابن حيان : المقتبس ص ٢٢١

(٢) ابن حيان : نفسه ص ٢٢١ ،

El - Hajji : op. cit. p. 120

(٣) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ١٠٨

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٣

(٥) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٧١

(٦) El - Hajji : op cit. p. 120

السلام : « وكان قرو لش ملك إفرنجية يسترجع عقله فيهاديه ويتحفه » (١) .
ويحدثنا المؤرخ ابن حيان أن شارل الأُصلع حرص على حسن الجوار مع المسلمين، وتمتع الطرفان في ذلك الوقت بعلاقات طيبة وباستمرار السلام بينهما، وتبادل شارل الأُصلع الهدايا مع أمير قرطبة (٢) . ويبدو أن هذه العلاقات والمودة قد أعقبت فترة اشتباكات بين الجانبين اقتنع الطرفان خلالها بضرورة العودة إلى السلام ، وضجرا من استمرار العداء والحروب بينهما ، إذ تذكر النصوص أنه قبل ذلك بأعوام قام حكام الغر الأُعلى بنو موسى بن موسى بن قيسى بالهجوم على سبتمانيا ، وهددوا بلاد الفرنجة (٣) ، في الوقت الذي انشغل فيه شارل الأُصلع بالأحوال الداخلية في بلاده ، وبهجمات النورمان على سواحليها ، ولهذا اضطر شارل الأُصلع إلى الدخول في مفاوضات مع أمير قرطبة محمد بن عبد الرحمن (٤) ، وفي نفس الوقت رحب هذا بالمفاوضات وإحلال السلام ، بل كان يبدي رغبته في السلام وعقد الصلح قبل أن يرسل إليه شارل الأُصلع برسالة لعقد الاتفاقية ، وفي سنة ٨٦٦ م (٢٥٢ هـ) ، استقبل الأمير محمد بن عبد الرحمن سفراء الفرنجة في قرطبة حاملين معهم الهدايا من ملكهم ، وجرت مفاوضات ودية بين الجانبين ، انتهت بعقد معاهدة صلح وسلام (٥) ، ثم عاد السفراء إلى بلادهم محملين بالهدايا والمنح السخية من

(١) ابن عذاري : البيان ج ٢ ص ١٠٨

(٢) ابن حيان : المقنبس ص ٢٢١ ،

EI - Hajji : op. cit. p. 120

(3) Lévi - Provençal : op. cit. I, pp. 224 — 5

(٤) أرسلان : الحلال السندسية ج ٢ ص ١٢٣ ،

Reinaud : Mus. Col. p. 120

(5) Reinaud : op. cit. p. 126

EI - Hajji ; op. cit, P. 120

أمير قرطبة (١). ويبدو أنه جرى الاتفاق في تلك المفاوضات على بقاء قطلونيا بأيدي الفرنجة كما يذهب مؤرخ محدث ، ولم تجد حكومة قرطبة غضاضة في ذلك ، ومن ثم عاد رسل شارل الأصغر بهدايا ثمينة من قرطبة « ومعهم رسل بحوائج مزينة » (٢).

وعلى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (٩١٢ — ٩٦١ م) ، الذي عيى بلاطه بالسفراء من كل الأنحاء والذي أجمعت الآراء على أنه كان دبلوماسياً من الطراز الأول (٣) ، وصل إلى قرطبة مبعوث الملك لويس الرابع للتفاوض ، لعقد معاهدة سلام وصداقة مع المسلمين ، بعد أن تبوأ قرطبة مكانة هامة بين مدن الدنيا في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) ، ويطيب لفريق من المؤرخين أن يتحدثوا بإكبار عن قرطبة في ذلك العصر ، وما حققته من مجد ورفعة وسؤدد ، ويقارنون بين ما كان جارياً بها من مظاهر العظمة والأبهة ، وبين مدن الغرب المتخلفة وشعوبها الضاربة في أطناب الجهل والاضمحلال (٤) ، فبينما زينت قرطبة بالقصور والأواوين والسقائف والحمامات والأبنية والمنزهات والحدائق ، كان السكسون في غرب أوروبا لا يزالون يعيشون في أكواخ خشبية وينحوضون في أوحال وطين ، وبينما كانت اللغات الغريية تمر بمحنة ويقتصر استعمالها كتابة وقراءة على بعض الأديرة ، كانت اللغة

.. (1) Reinaud : op. cit. p. 126 .

ابن حيان : المقتبس ص ٢٢١ ،

(٢) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٠٠

(3) Lane - poole : The Moors in Spain, p. 127

للقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٣

(4) Lane - poole : op. cit. p. 129

العربية والحضارة الإسلامية والعلوم في أوج عظمتها في أسبانيا المسلمة وفي قرطبة على وجه الخصوص . وهكذا حازت قرطبة مكانتها العالية وشهرتها الدائمة ، فأضحت إحدى المدن المعدودة في الدنيا التي يقصدها المبعوثون من كافة الأنحاء ^(١) ، وتذكر النصوص أنه كان بقرطبة في القرن العاشر نحو سبعين مكتبة علمية ونحو سبعمائة محام عمومي ^(٢) .

وحينما بدأت المفاوضات بين مبعوثي الملك لويس الرابع وحكومة قرطبة ، وطلب المبعوثون عقد اتفاقية سلام ، أجيب المبعوثون لطلبهم ، وحل السلام والوثام بين الدولتين ^(٣) ، ولا بد وأن هذه الاتفاقية هي التي أشار إليها المؤرخ ابن خلدون ووضعها ضمن أحداث سنة ٩٥٣ م (٣٤٢ هـ) ، استنادا إلى تواريخ الأحداث السابقة لهذه السفارة ^(٤) ، على الرغم من أن التعبير الذي استعمله ابن خلدون ليس واضحا ، ويشير بعض التساؤلات ، فقد قال ابن خلدون : « ثم جاء رسل ملك ... وآخر من ملك الفرنجة بقاصية الشرق وهو يومئذ كلد » ^(٥) ، ومن المرجح أن كلمة كلد ليست إلا تحريفا لكلمة « قارله » أي « شارل » ، فيكون ابن خلدون قد قصد بقارلة « شارل البسيط » الذي توفي قبل هذه الأحداث بسنوات طويلة في سنة ٩٢٩ م (٣١٧ هـ) ، ويكون معنى ذلك أن هذه السفارة أرسلت على عهد شارل البسيط إلى بلاط قرطبة ، واستقبلها عبد الرحمن الناصر أيضا ^(٦) . ولكن

(1) Lane - poole : op. cit pp. 129 — 139

(2) Davis : op cit. p 178

(3) Murphy: Hist. of the Mohametan Empire in Spain. p. 101

(٤) ابن خلدون : المبرج ٤ ص ٣٠٩ — ٣١٠

(٥) ابن خلدون : نفسه ج ٤ ص ٣١٠

(6) El - Hajji : op. cit. p. 121

فريقا من المؤرخين يميل إلى اعتبار تاريخ هذه السفارة كما وضعه ابن خلدون صحيحا ، وأحداثها صحيحة لأن ما قبلها وما بعدها يؤكّد حدوثها في تلك السنة ، ويعتقدون أن ابن خلدون ربما اعتقد أن شارل البسيط كان لا يزال يحكم دولة الفرنجة ؛ ولم يدرك أنه توفي قبل ذلك بفترة طويلة ، وأن الذي كان يحكم القسم الشرقي من إمبراطورية الفرنجة في ذلك الوقت هو لويس الرابع بن شارل البسيط (١) .

غير أن فريقا آخر من المؤرخين يعتقدون أن السفارة أرسلت فعلا زمن شارل البسيط ، وأن كلمة كلمة ليست إلا تحريفا لكلمة « قارله » أي شارل البسيط ، وأن هذا الملك هو الذي عول على عقد اتفاقية مع المسلمين لظروفه الخاصة في بلاده (٢) ، ويؤكدون أن هذه السفارة أرسلها هذا الملك ، لأن ابن خلدون لا يمكن أن يشير إلى ملك توفي قبل هذه الحادثة بهذه السنوات الطويلة اعتمادا على أن مؤرخا نابها مثل ابن خلدون لا يمكن أن يخطئ في ثلاثين عاما دفعة واحدة ، وإنما حدثت هذه السفارة على عهد شارل البسيط أي قبل وفاته سنة ٩٢٩ م ووضعها ابن خلدون سهوا بعد ذلك بكثير على عهد لويس الرابع بن شارل البسيط (٣) .

(1) Ibid. p. 121

(2) Gayangos : The Hist of the Mohammedan Dynasties in Spain, II, p. 139, p. 464

Imamuddin : A political hist. of Muslim Spain, p 100
(Dacca 1961).

والمراد أيضا :

El - Hajji : op. cit. p 121

(3) Gayangos : op. cit. p 139 p. 464

Imamuddin : op. cit. p. 100

وعلى الرغم من ذلك فالدلائل كلها تشير إلى أن هذه السفارة أرسلها الملك لويس الرابع فعلا ، وليس والده شارل البسيط ، اعتمادا على ما جاء بنص ابن خلدون نفسه من أن مرسل هذه السفارة هو الملك ، الذي يحكم الجزء الشرقي من الإمبراطورية الفرنجية واتساقا مع الأحداث ذاتها ، فشارل البسيط لم يكن سوى ملكا قليل الحصافة والحكمة هشلا لا يقيم لمثل هذه السفارات وزنا كبيرا (١) ، بل ألهته أحداث عصره ومنازعة آل كاييه له للانفراد بالسلطة في البلاد ، بل قطعت تسلسل حكمه أحداث متلاحقة ووقع في النهاية في أسر أمير من أمراء النواحي ، ولم يتمكن من ممارسة سلطته حتى وفاته في سنة ٩٢٩ م ، دون أن تكون له آثار هامة في بلاده (٢) . وعلى عكس ذلك كان ولده لويس الرابع فارسا ممتازا اتصف بالقوة والشهامة والحزم ، وكان ذكيا مثابرا شديد البأس لم يستطع منافسه وغريمه هيو الكبير أن يحوز ما حازه آل كاييه في ظل والده شارل البسيط (٣) ، ولما عول هيو الكبير على محالفة أو تو الأول ملك ألمانيا ، لجأ لويس الرابع إلى محالفة دوق برجنديا ، ولا بد وأنه لجأ لمحالفة أمير قرطبة طمعا في تجنب أي صراع مع المسلمين ، قد يعوقه عن الالتفات لأحزاب المعارضة والمنافسين المطالبين بالسلطة في دولة الفرنجة .

نخلص من ذلك أن لويس الرابع هو الذي أرسل هذه السفارة ، وليس شارل البسيط ، ويؤكد هذا الرأي ما ذكره المؤرخ المسعودي من أن مرسل

(1) Hoyt and Chodorow : op. cit p 196, p. 203

Oman : op. cit. pp. 441 — 2

(2) Hoyt and Chodorow : op. cit. p 196

(3) Mahrenholtz : op. cit. p. 3764

هذه السفارة هو لذريق بن قارله أى لويس بن شارل البسيط (١). ومما يؤكده ذلك أيضا أن ابن خلدون عاد في أحداث نفس السنة ٩٥٣ م (٤٣٤هـ) فذكر ورود سفارة مشابهة من ملك الفرنجة فقال : « ثم جاء رسل ملك ... وآخر من ملك الفرنجة وراء المغرب ، وهو يومئذ أفوه » (٢) إذ قدمت هذه السفارة إلى قرطبة ، وليس من شك في أن ابن خلدون يقصد بأفوه « هيو العظيم » Hugh the Great ، الذى كان يحكم الجزء الغربى من الأملاك الفرنجية (٩٣٦ — ٩٥٦ م) ، أى كانت سلطته نافذة في الجانب الغربى من الإمبراطورية الفرنجية ويقصد ابن خلدون بما وراء المغرب أى الجانب الآخر من جبال البرانس ، وإلى الغرب من شمال أسبانيا (٣).

وفهم من تعبير ابن خلدون أن هذه السفارة جاءت في نفس الوقت الذى جاءت فيه سفارة لويس الرابع أو في وقت قريب جدا من وصولها (٤) ، وهذا يؤكد أن السفارة التى ذكرها قبلا كانت من لويس الرابع ، والراجح أن المتنافسين على السلطة في دولة الفرنجة سعيا للحصول على تأييد قرطبة واعتراف الخليفة عبد الرحمن الناصر به ، فأرسل لويس الرابع سفارته من أجل ذلك وإقامة علاقات ودية وصداقة وحسن جوار (٥) ، وفي نفس الوقت أو قبلها بقليل وصلت سفارة هيو العظيم منافس البيت السكارولنجى الذى جد في

(١) السعوى : مروج الذهب ج ٣ ص ٧٣

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٤٣ ،

El - Hajji : op. cit. p. 121

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٤٣ ،

El - Hajji : op. cit. p. 121

(٤) Imamuddin : op. cit. . 100

(٥) Murphy : op. cit, p. 101

تشكيل أحزاب معارضة لويس الرابع ، وإقامة تحالفات مع غيره بين ملوك الغرب . ويبدو أن سفارة هيو العظيم هي التي وصلت أولا إلى قرطبة تحطّط ود خليفة الناصر ، وتحاول إقامة محور سياسى ، وعلاقات صداقة معه (١) ، استناداً إلى نفوذ هيو العظيم كان ساريا في الجانب الغربى من إمبراطورية الفرنجة أكثر من نفوذ لويس الرابع الذى كان يحكم الجانب الشرقى من الدولة ، وحيث أن الجانب الغربى من دولة الفرنجة هو الذى يتأخم أملاك المسلمين في أسبانيا ، وهو الذى يحتاج إلى إقامة علاقات حسن الجوار مع المسلمين ، فلا بد وأن هيو العظيم هو الذى سعى إلى إقامة هذا التحالف والصداقة مع جيرانه المسلمين ، وطلب تأييد حكومة قرطبة في جهوده والاعتراف به كملك على الفرنجة ، هذا فضلا عن رغبته في الحصول على هذا الاعتراف من خليفة مثل الناصر اشتهر في الخافقين ، وغدا بلاطه قبلة السفراء والبعوثين من كافة أنحاء الدنيا (٢) ، عل هذا يطمئن هيو العظيم الذى لا بد كان يشعر بأنه ليس ملكا شرعيا ، وأن السلالة الكارولنجية التى يمثلها لويس الرابع أحق منحه بالانفراد بالسلطة في دولة الفرنجة ، فكان في حاجة إلى اعتراف من حاكم المسلمين الكبير في أسبانيا كسبا للمؤيدين والمتعاطفين ، ولهذا بادر بإرسال هذه السفارة إلى بلاط الناصر .

ويبدو أن الملك لويس الرابع شعر بأن هذه السفارة ربما حظيت بترحيب خليفة قرطبة وعطفه ، فبادر هو الآخر بإرسال سفارة مضادة تشرح وجهة نظر الملك الشرعى وتحاول كسب عطف الناصر ، ولهذا لا بد وأن وصول سفارة

(١) ابن خلدون : المبرج ٤ ص ١٤٣

(٢) القرئى : نصح الطب ج ١ ص ٣٤٣٢ ،

Lane - poole : op. cit. p. 127

لويس الرابع كان بعد وصول السفارة الأخرى التي أرسلها هيو العظيم ، على الرغم من أن ابن خلدون وضع سفارة لويس الرابع في المقدمة وذكرها قبل الأخرى (١) ، ربما لأنه شعر بأن لويس الرابع هو الملك الشرعى للفرنجة صاحب الجانب الأكبر والأعظم من دولة الفرنجة ، فجاء بسفارته في البداية قبل سفارة منافسه هيو العظيم ، وأعطى سفارته أهمية خاصة لأنها السفارة الرسمية في تصوره وينبغي وضعها في مكانها بين الأحداث (٢) .

هذا ولا بد وأن العلاقات بين دولتي الفرنجة والمسلمين في أسبانيا على عهد الناصر وابنه الحكم الثاني كانت علاقات ودية اقترنت بحسن الجوار وحلول السلام والصدقة ويدل المؤرخون على ذلك بأن تسعة عشر من الأعمدة التي استخدمت في أبنية الزهراء كانت قد جلبت من بلاد الفرنجة (٣) ، أي جاءت على سبيل الهدية التي قدمت لقرطبة تعبيرا عن روح المودة والألفة بين الدولتين ، إذ ليس من المعقول أن تكون قد جلبت بطريق الحرب والاغارة لأن المصادر المعاصرة لا تذكر لنا قيام حروب بين الجانبين في هذه الفترة ، ولا تعين لنا معركة حربية انتصر فيها المسلمون يمكن أن تكون سببا في جلب هذه الأعمدة لبناء الزهراء وتزيينها كما أراد لها بانيها عبد الرحمن الناصر ومزينها الحكم الثاني (٤) . إذن يبقى القول بأن هذه الأعمدة قد قدمت على سبيل الهدية لحكومة قرطبة طلبا لرضاها وتأييدها ، فأحداث هذه المرحلة في عمر دولة

(١) ابن خلدون : البرج ٤ ص ١٤٣

(٢) ابن خلدون : نفسه ج ٤ ص ١٤٣

(٣) El - Hajji : op. cit p. 121

(٤) Lane - poole : op. cit. p. 127

Murphy : op cit p. 101

المقرى : نفع الطيب ج ١ ص ٣٤٣

الفرنجية تنبئ عن تنافس عظيم بين سلالة الأسرة الكارولنجية وآل كاييه الذين نشطوا كثيرا في طلب السلطة وتطلعوا للانفراد بها ، على الرغم من أنهم لم يكوّنوا ملوكا شرعيين (١) .

وتعددت الرسائل بين الملك لويس الرابع والخليفة عبد الرحمن الناصر ، واستمرت العلاقات الدبلوماسية بين الجانبين ، وتبودلت السفارات أو على الأقل أرسلت من قبل لويس الرابع إلى بلاط الخليفة الناصر في قرطبة ، وقام بالسفارة للملك لويس الرابع رجل يسميه المسعودي « عرمار » أحيانا (٢) و « مرمار » أو « فدمار » أحيانا أخرى (٣) ، كما لاحظ ذلك مؤرخ محدث (٤) ، وتشير الدلائل إلى أن هذا الرجل قام بسفارتين من قبل الملك لويس الرابع إلى قرطبة إحداها ثبت أنها كانت في سنة ٩٣٩ م (٣٢٨ هـ) ، والأخرى لا بد وأنها جرت بعد ذلك بسنوات قليلة — وقد استنتج المؤرخون قيام هذا الرجل بالسفارة إلى قرطبة للتفاوض مع الخليفة عبد الرحمن الناصر ، لإقامة علاقات ود وصداقة مع خليفة قرطبة (٥) ، وأجمعت الآراء على أن هذا الرجل كان أسقنا لإحدى المدن الفرنجية وإن اختلف على تسمية هذه المدينة — كما سوف تفصل بعد قليل — لكن كيف ثبت قيام هذا الرجل بالسفارة إلى قرطبة ؟

الواقع أن المؤرخ المسعودي هو الذي بدأ هذه القضية ، حين أشار إلى

(1) Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 203

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٦٩ — ٧٢ (ط دي ميثراد)

(٣) المسعودي : نفسه ج ١ ص ١٩٧ (طبعة القاهرة)

(4) El - Hajji : op. cit. p. 121

(5) El - Hajji : And. Dip. Rel. p. 135

أنه أطلع في سنة ٩٤٧ م (٣٣٦ هـ) مصادفة وهو في مدينة القسطنطينية بمصر على نسخة من كتاب يحوى تاريخا لملوك الفرنجة قدمه « عرمار » — أسقف جربادة — إلى الأمير الحكيم بن الخليفة الناصر ، وكان حينئذ وليا لعهد والده الناصر (١) . والتقط المؤرخ المحدث رينو هذا الخيط وراح يؤكد أن هذا الأسقف أرسل إلى الناصر في مهمة أو سفارة من قبل الفرنجة ، وبينما هو في قرطبة إذ طلب منه الأمير الحكيم بن الناصر — ولي العهد — كتابا يتناول تاريخ ملوك الفرنجة (٢) ، وكانت هذه السفارة هي السفارة الأولى إلى قرطبة التي قام بها هذا الأسقف ، وهي التي حدثت سنة ٩٣٩ م (٣٢٨ هـ) ، ووافق مؤرخ آخر محدث رينو على ما ذهب إليه قائلا ، أنه من المحتمل أن هذا الأسقف قد حمل هذا الكتاب إلى الحكيم في سفارته الثانية إلى قرطبة — بناء على طلب الحكيم — على الرغم من أن هذا المؤرخ المحدث أشار إلى عدم معرفته أية تفصيلات عن السفارة الجديدة التي قدم الكتاب خلالها ، والتي يحتمل أن تكرر في نفس السنة التي سجل المسعودي روايته فيها (٩٤٧ م) (٣)

ونكاد نميل إلى ترجيح هذين الرأيين ، لأنهما يتوافقان مع الحقائق الأخرى ومجريات الأمور ، فلا بد وأن الأسقف الفرنجي قد قام بسفارة أولى إلى قرطبة في العام الذي أشار إليه المسعودي (٩٣٩ م) ، والتقى خلال سفارته هذه بالأمير الحكيم ، وجرى تفاهم بينهما وصداقة طلب الحكيم على أثرها كتابا عن ملوك الفرنجة من هذا السفير ، فحرص هذا على تلبية طلب الأمير وحمل

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٦٤ — ٧٢

(2) Reinaud : op. cit p. 4

(3) El - Hajji : Dip. Rel. between And, and the Franks, pp.

معه الكتاب المطلوب في سفارته الثانية ، التي تمت بعد هذه السفارة بسنوات ربما في السنة التي حددها المسعودي ٩٤٧ م ، وربما قبل ذلك (١) . ويبدو أن هذا الأسقف كان حريصا على إرضاء الأمير الحكيم و كسب وده و صداقته باعتباره وليا للعهد والخليفة المنتظر لقرطبة ، فاهتم بتعريفه بملوك الفرنجة وتقديم ثبت كامل بتاريخ ملوك الفرنجة لرسم صورة طيبة عن أولئك الملوك أمام خليفة قرطبة المنتظر ، ولهذا فقد حمل الكتاب في سفارته الثانية إلى قرطبة وقدمه إلى الأمير الحكيم .

ومعنى ذلك أن الملك لويس الرابع قد أرسل هذا الأسقف إلى قرطبة في سفارتين إحداهما ثبت بما لا يدع مجالا للشك ، أنها تمت في سنة ٩٣٩ م ، والأخرى ربما كانت في سنة ٩٤٧ أو قبلها بقليل ، ولابد وأن هاتين السفارتين كان لهما علاقة بالأحداث في فرنسا ، وما كان جاريا من تنافس بين لويس الرابع وغريمه هيو الكبير (٢) ، ففي ظل معرفتنا الدقيقة بالأحداث في دولة الفرنجة في ذلك الوقت ، نستطيع أن نؤكد صحة حدوث السفارة الأولى في السنة التي حددتها المصادر المعاصرة ، لأنه في تلك السنة اندلعت الحرب ضارية بين لويس الرابع وهيو الكبير ، وأدلى أوتو الأول عاهل ألمانيا بدأوه في تلك الحرب ضد الملك لويس الرابع ، وبدأ أن كفة هيو الكبير تكاد تكون هي الراجحة في ذلك الصراع (٣) ، ولهذا لابد وأن لويس الرابع

(١) كما ذهب المؤرخان T نفا الذكر ، أنظر الصفحة السابقة

(2) Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 203

(3) Oman : op. cit. p. 505

Hoyt and Chodorow : op. cit. pp. 203 — 4



عول علي محالفة قرطبة وإقامة علاقات صداقة معها في تلك الظروف الحرجة التي كان يمر بها كسبا لتأييدها من ناحية وضمانا لعدم إثارة المشاكل معها من ناحية أخرى . ومن ثم أرسل الأسقف المشار إليه في السفارة الودية الأولى ، أعقبها سفارة ثانية قام بها نفس الأسقف ، ولابد وأنها حدثت في سنة ٩٤٧م — كما اقترح بعض المؤرخين ^(١) — لأننا نجد مسرح الأحداث في دولة الفرنجة في تلك الفترة مشابها لما كان عليه في المرة الأولى أثناء السفارة الأولى ، إذ لا زال الصراع والقتال محتدما بين لويس الرابع وغريمه هيو العظيم ، لاسيما بعد أن انضم أوتو الأول إلى صف لويس الرابع ^(٢) ، فلا بد وأن لويس سعى في هذه الفترة إلى تجديد عهد الصداقة والمودة مع حكومة قرطبة والاطمئنان إلى استمرار السلام معها ، فأرسل سفارته الثانية التي اختار لها نفس الرجل الذي سفر له في المرة الأولى ، وهو الأسقف المشار إليه آنفا وفي هذه المرة لم ينس الأسقف أن يحمل معه كتاب تاريخ ملوك الفرنجة ، ليقدّمه هدية للأمير الحكم ، بناء على طلبه في المرة السابقة .

هذا هو الجانب الأول في القضية التي أثارها المسعودي كما رأينا ، أما الجانب الثاني فيتعلق بشخصية الأسقف الذي سفر للملك لويس الرابع إلى قرطبة هاتين السفارتين والمدينة الفرنجية التي كان أسقفا لها . لقد أشرنا من قبل إلى أن المسعودي يورد اسم هذا الأسقف بأكثر من طريقة — كما لاحظ ذلك مؤرخ

(1) El - Hajji : op. cit. pp. 121 — 2

(2) Hollister : op. cit. p. 123 — 4

Mahrenholtz ; " France throughout the Middle Ages " B.H.
VII, p. 3764

محدث - فرة يسميه « عرمار » وأخرى « مرماره » أو « فدمار » طبقا لختلف نسخ كتب المسعودى (١) . ولابد وأن الروايات التي استقى منها المسعودى هذا الخبر قد اختلفت في ذكر اسم هذا الأسقف بما يفسر تعدد كتابة هذا الاسم . على أن المؤرخ رينو يسميه « جودمار » Godmar ، ويقول إنه كان أسقفا لمدينة جيرونا Gironne في قطالونيا (٢) ، التي كانت خاضعة في ذلك الوقت للفرنجة ، بينما يشير المسعودى إلى أنه كان أسقفا لمدينة فرنجية يسميها « زهرة » وهي مدينة أخرى غير جيرونا (٣) ، غير أن فريقا من الكتاب المحدثين (٤) يوافقون رينو على اسم هذا الأسقف « جودمار » أو « غودمار » ، ولكنهم يذهبون إلى القول بأنه أصلا من جيرونا أو ينتسب إلى جيرونا ، ولكنه كان أسقفا لمدينة فرنجية فيما وراء البرانس تسمى « سرت » Ceret في إقليم روسيللون Roussillon ، وليست زهرة التي ذكرها المسعودى إلا تحريفا لسرت Ceret (٥) ، ويؤكد بعضهم أن هذه المدينة كانت فعلا فيما وراء البرانس في أرض الفرنجة ، مادام المسعودى قد أشار إليها على أنها مدينة فرنجية لأن المسعودى إذا ذكر كلمة « الفرنجة » فإنما يعنى الأرض التي حكمها المير وفنيجيون والكارولنجيون ، خاصة الأرض الواقعة فيما وراء البرتات مباشرة

(1) Lewis : Al - Mas udi Milieuary Commmdmoration: p. 8

El - Hajji : op. cit. p. 121

(2) Reinaud : op. cit; p. 4

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ١٩٧ . ويذكر المقرئ : نفع الطب ج ١ ص ٣٢٤

أن مدينة جيرندة (جيرونا) تقع فيما وراء البرانس .

(٤) شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٣٦ ،

El - Hajji : op. cit. p. 122

(٥) أرسلان : نفسه ص ٣٦

كما سبق أن ذكرنا (١) ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لم يسكن الملك الفرنجي لويس الرابع يختار لسفارته إلى قرطبة رجلا من البلاد الخاضعة لحكم الفرنجة في قطلونيا ، وإنما من المؤكد أنه اختار رجلا فرنجيا ينتسب إلى دولة الفرنجة ، إن لم يكن أحد رجاله وخاصته (٢) . وعلى هذا فالمدينة التي كان جودمار أسقفا لها ، لا بد وأنها تقع فيما وراء البرانس ، ولا بد وأنها مدينة سرت Ceret الفرنجية التي حرفت لدى المسعودي إلى «زهرة» ، وإن لم يكن ثابتا ما إذا كان اسم Ceret هو نفس المكان الذي سماه المعاصرون «هيكل الزهرة» أم أنه مكان آخر (٣) .

نخلص من ذلك كله بأن السفير الذي أوفده لويس الرابع في سفارته إلى قرطبة ، كان اسمه جودمار أو غودمار ، وأنه ينتسب أصلا إلى مدينة جيرونا في الشمال الشرقي لأسبانيا ، ولكنه كان أسقفا لمدينة سرت Cere الفرنجية ، وهي مدينة تقع فيما وراء البرتات من إقليم روسيللون على الناحية الأخرى ، وأنه لا بد وأن يكون أحد الرجال الفرنجة الذين يتمتعون بثقة الملك لويس الرابع ، ومن أصحاب الخطوة لديه ، بحيث اختاره لهذه المهمة الخطيرة ، لأنه من غير المعقول أن يختار الملك لهذه السفارة رجلا من الثغر الفرنجي في قطلونيا ،

(١) انظر ما سبق .

(2) El - Hajji : op. cit. p. 122

(٣) انظر الحميري : الروض الممطر ص ٤٢ (نشر إينى بروفنسال ١٩٣٧)

عبد الواحد المراكشي : المعجب في تاريخ المغرب ص ٢٩ (نشر العربيان سنة ١٩٦٣)

يافوت : معجم البلدان ج ١ ص ٣٥٠ (الزهرة ١٩٠٦) ،

El - Hajji : op: cit. p. 122 (N: 2:)

كما ذهب البعض ، أى من بلاد يخضعها الفرنجة بحمد السيف (١) ، لما فى ذلك من تجاوز ، وإنما اختار لهذه المهمة رجلا فرنجيا يتمتع بثقته وتقديره للقيام بالسفارة الهامة إلى حكومة قرطبة ، وأن مدينة سرت التى كان هذا الرجل أسقفا لها ، جرى تحريفها لدى المسعودى « بالزهرة » ، كما جرى تحريف اسم الرجل نفسه إلى « عرمار » و « مرمار » و « فدمار » ، كما سبق أن أشرنا ، وأن هذا الرجل نجح فى سفارتيه إلى قرطبة ، وكسب ود الأمير الحكم ولى العهد والخليفة المنتظر لقرطبة ، الذى طلب منه كتابا عن ملوك الفرنجة لقراءته والإطلاع عليه ، فلبى طلبه وحمل معه فى سفارته الثانية هذا الكتاب ، ولا بد وأن هذا الكتاب الذى رآه المسعودى بنفسه كان مختصراً تاريخياً يتناول تاريخ ملوك الفرنجة ، فحسب لأن المسعودى صمت عن ذكر شيء عن بقية محتويات هذا الكتاب (٢) .

وليس ثمة شك فى أن بلاط الخليفة عبد الرحمن الناصر ، كان قبلة السفراء والمبعوثين وسعى إليه ممثلو كثير من الدول والأمم فى ذلك الوقت يلتمسون توثيق عرى الصداقة مع خليفة المسلمين بأسبانيا ، ويخطبون ود قرطبة ، بعد أن بلغت الأندلس أوج قوتها وتفوقها على عهد هذا الخليفة (٣) ، وبعد أن تمتعت على عهد الناصر بمكانة سامية متفوقة بالنسبة لكثير من الدول والأمم .

(١) Jackson : op. cit. p. 18

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ١٩٧ (ط القاهرة) ،

El - Hajji : op. cit. p. 121

(٣) القرى : نخب الطيبنج ١ ص ٣٤٣

Davis : op. cit p. 178 ، Murphy : op. cit. p. 101

Lane - poole : op. cit. p. 127, pp. 129 - 39

ومن هذه السفارات السفارة التي أرسلها ملك ألمانيا أوتو الكبير إلى قرطبة ، وعلى رأسها السفير جان دي جورز Gorze الذي أخذ كثيرا بعظمة الأندلس وسمو حضارتها على عهد عبد الرحمن الثالث (١) ، وجرت هذه السفارة في سنة ٩٥٦ م — على الأرجح ، رغم أن مؤرخا محدثا (٢) ذهب إلى القول بأنها جرت في سنة ٩٥٣ م ، أي قبل ذلك بنحو ثلاث سنوات ، كما ذهب إلى القول بأن أوتو الكبير كان قد أرسل سفارة إلى قرطبة سنة ٩٥٠ م ورد عليه الناصر بسفارة على رأسها أحد الأساقفة من المستعربين مصحوبا بثنين من الرفقاء ، وبقى سفير قرطبة هذا لدى أوتو الكبير نحو ثلاث سنوات ثم توفي هناك ، فأرسل أوتو سفارته الثانية إلى قرطبة على رأسها جان (يوحنا) راهب جورز في سنة ٩٥٣ م في رأى المؤرخ المذكور (٣) ، وكان السبب الرئيسى لسفارة أوتو الكبير الثانية هو موضوع إغارات المجاهدين المسلمين من فراكسنتم ، أي محاولة حل هذه المشكلة ووضع حد لهذه الإغارات ، إذ تشير الروايات إلى أن المجاهدين المسلمين في فراكسنتم كانوا قد روعوا المناطق المجاورة ، بإغاراتهم في إيطاليا وسويسرا وفرنسا ، وأدركت البابوية أن هذا الخطر لا يمكن أن ينبيه سوى شخصية عظيمة ، فعولت في ذلك على الإمبراطور الألماني أوتو الكبير (٤) .

ولقد أدرك الإمبراطور الألماني بدوره أنه ليس من السهل القضاء على أولئك المجاهدين المسلمين الذين مروا على أساليب الحرب الخاطفة وحرب

(١) ليفي بروفنسال : حضارة العرب في الأندلس ص ٧٦ (ترجمة قرقوط)

(2) El - Hajji : And. Dip. Rel. pp. 211 — 12

(3) El - Hajji : op. cit. 1 p. 211 — 212

(٤) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٢٧ — ٢٢٨

العصابات، وتحصنوا في الجبال والقمم والممرات، ولهذا لجأ إلى محاولة حل هذه المشكلة بالدبلوماسية، وقد فهم أن حكومة قرطبة هي التي تحمي هؤلاء المجاهدين وتقدم لهم العون والتأييد، وعلى الرغم من أن الدبلوماسية كانت قوامها في ذلك العصر بعثات تستغرق سنوات في تبادل الآراء ومناقشتها، ربما دون أن تصل إلى نتائج محددة (١)، إلا أن أوتو الكبير أرسل سفارته الثانية إلى قرطبة سنة ٩٥٦ م آملا أن يوفق في حل هذه المشكلة خاصة وأن السفارات كانت متبادلة بينه وبين عاهل قرطبة قبل ذلك، بل تشير المصادر المعاصرة إلى أن ثمة صداقات كانت قد نشأت بين مبعوث الخليفة عبد الرحمن الناصر - وهو أحد الأساقفة المستعربين - وبين رجال بلاط ألمانيا، وتبادلت الآراء بين الجانبين في جو يتسم بالتفهم والمودة (٢).

ويقوم من ذلك أولا : أن أوتو كان قد أرسل مبكرا سفارة إلى قرطبة، رد عليها عبد الرحمن بسفارة علي رأسها أحد المستعربين، وزوده برسالة إلى أوتو، وبقي هذا السفير فترة لدى أوتو فوافته منيته هناك، فأرسل أوتو سفارته الثانية موضوع حديثنا - كما يفهم ثانيا : أن الهدف الرئيسي لسفارة أوتو الثانية هو محاربة وقف إغارات المجاهدين المسلمين في أوربا.

غير أن كاتب حولية ديرية معاصر (٣)، أشار إلى أن عبد الرحمن كان

(3) Daniel : The Arabs and Med. Europe, p. 64

(4) Ibid. pp 64 — 5

(5) A. Paz Y Melia (tr.) “ La Embajada del Emperador de Alemania Oton I al Califa de Cordoba Abderrahman III ”
X, 258 No. 115

E. Hölke : Andalus, Spain under the Muslims, p. 90 (London 1958)

El - Hajji : op cit, p. 211

هو البادئ بإرسال السفارات إلى ألمانيا ، وليس أوتو الكبير ، كما أشار إلى هدف آخر من أهداف سفارة أوتو إلى قرطبة ، فذكر أن عبد الرحمن كان قد بعث مع سفارته إلى أوتو الأول بهدايا ثمينة تعبيرا عن إعجابه بالعاهل الألماني ، لكنه بعث برسالة حوت عبارات اعتبر الألمان أنها تمس الدين المسيحى ، وفيها غض من النصرانية (١) . ولهذا كان على أوتو أن يرسل إلى قرطبة رجلا مثقفا في الدين المسيحى لمناقشة القضايا والعبارات التى حوتها رسالة عبد الرحمن الناصر ، ومجادلة علماء الدين المسلمين ومحاولة إقناعهم ، وفى نفس الوقت يحاول إيجاد حل لمشكلة إغارات المجاهدين المسلمين فى أوروبا (٢) .

ولقد أثارَت هذه الإشارة اللاتينية جدلا بين الدارسين والمؤرخين المحدثين ، وأكدمؤرخ محدث (٣) أن أوتو كان هو البادئ بإرسال السفارات إلى قرطبة ، وليس عبد الرحمن بسبب ما أحدثته إغارات المجاهدين المسلمين فى أوروبا من خسائر ودمار ، ورغبة أوتو فى حل هذه المشكلة بالطرق الدبلوماسية معولا فى ذلك على حكومة قرطبة . وخلص هذا المؤرخ إلى أن السفارات قد بدأت من أوتو ، ولم تبدأ اطلاقا من عبد الرحمن ، لأن أوتو هو الذى كانت لديه الأسباب القوية لخطب ود قرطبة ، وإرسال السفارات إليها (٤) :

(١) أرسلان : تاريخ فزوات العرب ص ٢٢٨ ،

Daniel ; op. cit. p. 65

(2) A. Paz Y Melia (tr.) — op. cit. X. 258, N. 115

(3) El - Hajji ; op. cit: p. 211

(4) Ibid. pp. 211 — 212

ونميل إلى تأييد هذا المؤرخ المحدث فيما ذهب إليه من أن أوتو كان هو البادى بالاتصال بحكومة قرطبة ، رغبة في حل مشاكله في أوربا من ناحية ، ولما تبوأه خليفة قرطبة من مكانة سامية ، وما كان فيه من عظمة وهيبة من ناحية أخرى ، أجبرت الأباطرة والحكام على خطب وده والتقرب إليه ، ليس من الألمان فحسب ، بل أيضا من البزنطيين والفرنجة والنورمان وغيرهم (١) . ولكننا نصدق أيضا ما جاء في إشارة الكاتب اللاتيني من أنه كان من أهداف السفارة إلى قرطبة إجراء حوار ديني وجدل مع علماء المسلمين وخليفةهم ردا على ما حوته رسالة عبد الرحمن من عبارات فجرت ذلك الجدل الديني ، لأن الأحداث تؤكد صحة ذلك وتؤكد هذا الشق من إشارة الكاتب الديري المعاصر .

فقد اختار أوتو الأول لسفارته إلى قرطبة عالما لاهوتيا متضلعا في فقه الدين المسيحي والجدل الديني للرد على المسلمين وهو راهب دير جورز Gorze بقرب مدينة متر يدعى جان John (حنا) ، وبلغ من تضلعه في علم اللاهوت أن حاول إقناع الخليفة بالتنصر (٢) ، ويصف أحد تلاميذ الراهب المذكور رحلته إلى قرطبة وصفا طريفا فقال : إن جان سافر بصحبة راهب آخر ومعهما هدايا من رجال الدير ، فسارا مشيا على الأقدام إلى نقطة على نهر الرون تسمى فيين Vienne ، ومنها ركبا النهر إلى البحر المتوسط ، ثم ركبا إلى برشلونة التابعة لمملكة الفرنجة ، ثم إلى طرطوشة أول ميناء تابع لقرطبة ، ثم تقدما في الأندلس

(١) Lane - poole : op. cit. pp. 129 — 39

Jackson : op. cit, p. 30

(٢) أرسلان : تاريخ فزوات العرب ص ٢٢٨

Daniel : op. cit. p. 65

« وهم فى ضيافة العرب بالمعهود من كرمهم » (١) ، فوصلا إلى قرطبة لم يتكلما
إتفاق درهم واحد ، وهناك استقبل جان وصاحبه استقبالا طيبا ولقيا ترحيبا
عظيما ، وأنزل الجميع فى محل على مسافة ميلين من قصر الخلافة .

وحينما أحيط الخليفة علما بمهمة الراهب جان ، أظهر رغبة فى تجنب المباحثات
الدينية إلا أن الراهب جان ركب رأسه ، وأصر على إنجاز مهمته ومجادلة الخليفة
دينيا (٢) ، ومحاولة إقناعه ، وعند ذلك أخبره الخليفة أنه كان قد بعث من
لده سفارة إلى أوتو فأ نظره ثلاث سنوات ، ولهذا فهو يريد أن يمسك سفير
أوتو لديه ، لا ثلاث سنوات بل تسع سنوات ، لأنه يرى نفسه أكبر من أوتو
بثلاث مرات (٣) ، غير أن الراهب جان رفض ذلك وتعلل بأن الأوامر التى
صدرت إليه تحتم عليه إنجاز مهمته والعودة فى أسرع وقت ، ولذلك استقر
رأى الخليفة عبد الرحمن على إرسال سفارة أخرى إلى ألمانيا على رأسها رجل
مسيحي يدعى « ارسيموندس » Recomund ، كان يجيد اللغة اللاتينية
وكذلك اللغة العربية ، فى مهمة عاجلة يقترح فيها على أوتو ترك المجادلات
الدينية والتحدث فى المهمة الأساسية للسفارة (٤) .

ومعنى ذلك أن ثمة سفارة فرعية أو مبعوثا على مستوى عال قد جرى
إرساله على عجل إلى ألمانيا بمهمة محددة هو الحصول من أوتو على أوامر
المسفيره فى قرطبة (جان) بترك الجدال الدينى والتحدث فى المهمة الأساسية

(١) انظر نص العبارات فى : أرسلان : نفسه ص ٢٣١

وانظر المسعودى : عروج الذهب ج ١ ص ١٩٧ وما بعدها .

(2) Daniel : op. cit. pp. 66 — 7

(٣) أرسلان نفسه ص ٢٢٨ — ٢٣١

(4) Daniel : op. cit. pp. 66 — 8

للسفارة لإنهاء المفاوضات الجارية في قرطبة . إذ يبدو أن إصرار الراهب جان على الالتزام بتنفيذ الأوامر الصادرة إليه من أوتو بمجادلة المسلمين ومحاولة إقناعهم بآرائه ، ورغبة الخليفة عبد الرحمن في تجنب الجدل الديني للتحديث في مهمة السفارة قد عجل بإرسال المبعوث الخاص إلى ألمانيا للحصول على موافقة أوتو على ذلك لاستئناف المفاوضات في المهمة الأساسية للسفارة في قرطبة .

خرج مبعوث قرطبة رسيمونديس في طريقه إلى ألمانيا ، بعد أن التقى بحاج راهب جورز الذي زوده بخطابات لمقدم دير جورز لتسهيل مهمته، وبعد أن قابل أيضا الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي زوده بدوره بتعليمات في سفارته أو بعثته إلى العاهل الألماني في فرانكفورت (١) ، فسافر رسيمونديس عبر فرنسا قاصدا ألمانيا ، فوصل أولا إلى دير جورز قرب متر ، بعد نحو شهرين ونصف ، وقضى فصل الخريف والشتاء في ضيافة الدير، ريثما تجرى إعدادات مقابلته مع الإمبراطور الألماني ، ثم سار بعد ذلك إلى فرانكفورت ، حيث قدم للإمبراطور أوتو ، فاستقبله هذا بحفاوة وتكريم ، فأطلع رسيمونديس الإمبراطور على أحوال سفارته الألمانية في قرطبة ، وأثنى كثيرا على الراهب جان (يوحنا) (٢) ، وطلب رسيمونديس من الإمبراطور كتابة رسالة إلى سفيره جان في قرطبة يوافق فيها على ترك الجدل الديني والتحدث في مهمة السفارة ، فوافق الإمبراطور على كتابة رسالة إلى الخليفة بدلا من رسالته الأولى أجابه فيها إلى ما اقترحه من ترك المجادلات الدينية والتحدث في مهمة

(1) El - Hajji : op. cit. p. 219

(2) Daniel : op cit. p: 67

El - Hajji : op. cit, pp. 220

السفارة (١) ، كما كتب رسالة أخرى إلى الراهب جان بوصيه فيها بأن .
يبدل قصاري جهده لعقد معاهدة سلام وصداقة مع الخليفة ، يكون من شأنها
إيقاف هجمات وإغارات المغامرين الأندلسيين في فراكسنتم ، وأن يسارع
بالعودة إلى ألمانيا بعد ذلك (٢) .

وعندئذ ترك رسيمو ندس فرانكفورت قاصدا قرطبة ، فوصلها بعد نحو
أربعة عشر شهرا من غيابه عنها ، وسارع رسيمو ندس فور عودته بلقاء جان
راهب جورز وأطلعه على التعليمات الجديدة من الإمبراطور ، ودفع إليه
خطاب أوتو بذلك ، ثم قابل بعد ذلك الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وأطلعه على
ما جرى في لقائه مع الإمبراطور ، ومن ثم وافق الخليفة على لقاء الراهب
جان (٣) . وتمدنا المصادر المعاصرة بأخبار تلقى الضوء على كثير من الشؤون
الدينية في ذلك العصر ، ومدى اهتمام مبعوث الألمان بتقديم مثل طيب في الزهد
والورع والظهور بصورة طيبة كنموذج خاص لرهبان العصور الوسطى ،
فبمجرد أن وافق الخليفة على لقاء جان ، أشار رفاق هذا الراهب عليه بأن
يتزين للقاء الخليفة ، فيحلق شعره ويلبس ملابس تليق بهذا اللقاء ، بينما أرسل
الخليفة من جانبه إلى جان مبلغا من المال ، ليشتري ما يحتاج إليه للتجمل
لهذا اللقاء (٤) ، إلا أن جان رفض كل ذلك ، وأبى إلا أن يظهر في صورة
الراهب الزاهد المتقشف ، فإدر بالتصدق بالمال — الذي بعث به الخليفة —

(١) Daniel : op. cit. pp. 66 — 68

(٤) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٢٢

(٣) El - Hajji : op cit. p. 221

(٤) Daniel : op. cit, p. 68

علي الفقراء ، وأصر على لقاء الخليفة في ثوبه الصوفي الخشن ومظهره المعتاد دون تجمل ، وعندئذ لم يجد الخليفة بدا من الموافقة على لقائه في ذلك الثوب وبمظهره الخشن (١) .

استقبل الخليفة عبد الرحمن الناصر أخيرا وبعد نحو ثلاث سنوات من التأخير ، رسل الإمبراطور الألماني على رأسهم الراهب جان ، فكان يوما مشهودا على حد تعبير المؤرخين (٢) ، فقد اصطف الجند على جانبي الطريق حاملين مختلف الأسلحة ؛ بينما كان الخيالة يعرضون فنونهم أثناء تقدم السفراء نحو مكان لقاء الخليفة ، ولما اقتربوا من المكان ساروا فوق بسط تغطي كل المكان حتى باب القصر ، ثم اجتازوا القصر إلى الجانب الشرقي منه ، وفي الصالة المعدة للقاء السفراء المسماة « المجلس المؤنس » (٣) ، كان الخليفة يجلس متربعا على السرير ، فاقترب منه الراهب جان فأعطاه الخليفة بطن يده فقبلها ، تمييزا له عن سائر الناس (٤) .

ثم جرى الحديث حول مهمة السفارة ، وهي تتعلق — على حد قول مؤرخ محدث — بالدويلة الأندلسية الصغيرة في فراكنتم (٥) ، ومن المحتمل أن يكون الراهب جان قد حاول إقناع الخليفة ، بأهمية تدخل الخليفة لوقف نشاط

(1) Reinaud : Mus. Col. p. 153

(2) Lévi - Provençal : L'Espagne Musulmane au Xe siecle, p. 49-
n. 1

El - Hajji : op. cit. p. 221

(٣) هنان : دولة الاسلام في الأندلس ج ٢ ص ٤٠٢ — ٤٠٣

(4) Daniel : op. cit. p. 69

(5) El - Hajji : op. cit. p. 224

أولئك المغامرين ، ملوفا بقوة الإمبراطور الألماني ، وعظم قدراته العسكرية بالنسبة لأي حاكم على وجه الأرض ، وعلى الرغم مما بدا في ذلك القول من من تجاوز ، فإن الخليفة لم يغضب بل راح يناقش المبعوث الألماني في بعض النظريات السياسية والإدارية (١) ، منتقدا إلى حد ما و برفق سياسة الإمبراطور الألماني . وعلى الرغم من توقف كاتب سيرة جان عند هذا الحد من سرده وعدم ذكره أى شئ ، عما أسفرت عنه المباحثات بين جان والخليفة الناصر ، إلا أنه يبدو أن الخليفة اعتذر عن عدم إمكان ممارسة أى ضغط على أولئك المجاهدين المسلمين في فراكنهم ، وعن عدم إمكان حكومة قرطبة إجابة الإمبراطور إلى طلبه في هذا الشأن ، ولكنه في نفس الوقت وعد ببذل كل ما يستطيع في هذا الصدد (٢) ، ثم عادت السفارة إلى ألمانيا بعد ذلك بقليل بعد أن بقيت في أسبانيا نحو ثلاث سنوات .

ويتفق المؤرخون على أن قرطبة قد بلغت في ذلك العصر شأوا بعيدا من من المهابة والعظمة والمجد ، فقد كانت محط رحال العلماء والطلاب ومركز العلوم والمعارف والصنائع والسياسة ، وكانت أوروبا المسيحية مأخوذة بعظمة قرطبة ، لاسيما على عهد عبد الرحمن الناصر ، فكانت مقصدا لجميع سفراء الملوك والأباطرة وكافة السلطات (٣) ، فكان يرسله البابا وإمبراطور

(1) Reinaud : op. cit. p. 156. , El - Hajji : op. cit. p 225

(2) Daniel : op. cit. pp. 69 — 70

Poupardin : Le Royaume de Bauargogne 888 — 1038, p, 96

(٣) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٢ ،

Davis : op. cit. p 178

Murphy : op. cit. p 101

Lane - prole : op, cit. p. 127, pp. 129 — 39

القسطنطينية وملوك أسبانيا وفرنسا وألمانيا وبلاد الصقالبة ، واعتبر الملوك المسيحيون من دواعى الشرف العظيم أن يبسط الخليفة يده لسفرائهم ليقبلونها وذلك لجلالة قدره وعظم منزلته ، وكان عبد الرحمن عندما يفد عليه سفراء هؤلاء الملوك يببالغ فى الاحتفال بهم وإظهار عظمة الخلافة أمامهم (١) .

ويصور لنا أحد المؤرخين القدامى ، وصفا لإحدى السفارات الفرنجية التى وفدت على بلاط الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وما جرى فى استقبالها ودخولها على الخليفة (٢) ، على الرغم من أنه لم يعين لنا من أى البلاد قدمت ، أهى من دولة الفرنجة ذاتها أو من الثغر الفرنجى فى قطالونيا ، كما أنه لم يعين لنا تاريخا لهذه السفارة ، ومتى جرى استقبالها فى بلاط الخليفة الناصر ، ومع ذلك فلما أن نقرأ هذا الوصف ونعلق عليه ، يقول الكاتب :

« ودخل على هذا الخليفة (عبد الرحمن الناصر) يوما أرسال الإفرنج ، وقد ظهر من عظيم ما يرغبهم ، بسط لهم الحصير من باب فرطبة إلى باب الزهراء قدر فرسخ ، وجعل الرجال عن يمين الطريق ويساره ، بأيديهم السيوف الطوال العراض مجردة — يجمع بين سيف الأيمن وسيف الأيسر حتى صارت كعقد الحنايا ، وأمر بالأرسال أن يمشوا بين تلك وفى ظلالها كأنها سابط (٣) ، فدخلهم الرعب ما لا يعلمه إلا الله تعالى . فلما

(١) أرسال : تاريخ غزوات العرب ص ٢٢٨

(٢) ابن عربى : المسامرات والمحاضرات ج ٢ ص ٣٤٢ ،

El - Hajji : Dip. Rel. p. 122

(٣) أنظر نص العبارات فى المسامرات والمحاضرات ج ٢ ص ٣٤٢ ،

El - Hajji : And. Dip. Rel. p. 136

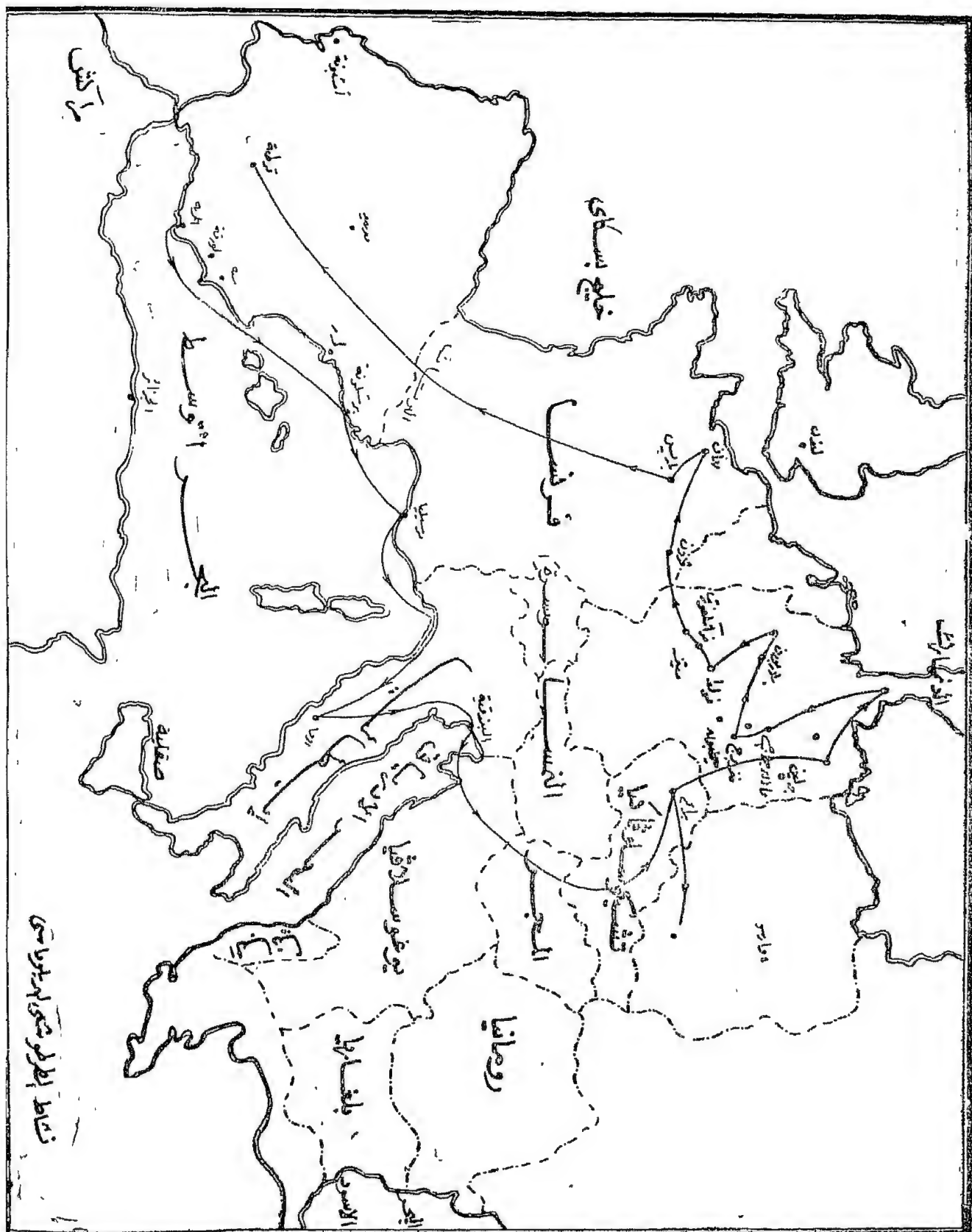
وصلوا إلى باب الزهراء فرش لهم الديباج من باب المدينة إلى مقعده على تلك الحالة من الترهيب ، وأقام في مواضع مخصوصة حجابا كأنهم الملوك قعوداً على كراسي مزخرفة ، عليهم الديباج والحرير فما أبصروا حاجباً إلا سجدوا له يتخيلون أنه الخليفة ، فيقال لهم أرفعوا رؤوسكم هذا عبد من عبيده ، إلى أن وصلوا إلى ساحة مفروشة بالرمل والخليفة في وسطها قاعد عليه ثياب خلق قصار يساوي كل ما عليه أربعة دراهم ، وهو قاعد على الأرض مطرق ، وبين يديه مصحف وسيف ونار ، فقيل للرسول هذا السلطان نسجدوا له ، فرفع رأسه إليهم قبل أن يتكلموا وقال لهم إن الله أمرنا يا هؤلاء أن ندعوكم إلى هذا وأشار إلى المصحف كتاب الله ، فإن أبيتم فبهذا وأشار إلى السيف ، ومصيركم إذا قتلناكم إلى هذا وأشار إلى النار فثلثوا منه رعباً وأمر بخراجهم ، ولم يبدوا كلاماً ، فصالحوه على ما أراد . هكذا يعز دين الله وإلا فلا » (١) .

وكما سبق أن ذكرنا ليس من الواضح في هذا النص ، ما إذا كان السفراء هؤلاء لدولة الفرنجة ذاتها أم للشعر الفرنجي في قطاونيا . ويذهب ليفي برفنسال^(٢) إلى أن هؤلاء السفراء كانوا من الشعر الفرنجي في قطاونيا ،

(١) نفسه ج ٢ ص ٣٤٢ ، وانظر أيضاً :

El - Hajji ; And: Dip. Rel. p. 137

(2) Lévi - Provençal : L'Espagne Mus. anx_Xe siècle, institutions et vie Sociale, p: 489. n. 2. (paris 1972)



وأيدته في ذلك المؤرخ هول Hole^(١) الذي أكد أنهم كانوا من النصارى الفرنجى في شمال شرق أسبانيا . كما ليس واضحاً في هذا النص متى وصلت هذه السفارة ؟ ومن الذى أرسلها ؟ وإن كان هول يذهب إلى أنها وصلت إلى بلاط قرطبة قبل وفاة الناصر بنحو عامين^(٢) ، على الرغم من أننا لا نستطيع أن نجد أية سفارة يمكن أن تتطابق أو تتوافق طريقة استقبالها مع هذا الوصف في الكتب المعاصرة^(٣) .

ومع ذلك فليس ثمة ما يدعـو إلى الشك في حقيقة هذا الموضوع ، أو حقيقة السفارة ذاتها ووصولها إلى قرطبة في عهد الناصر ، لأن بلاط هذه الخليفة كان مقصداً لكثير من السفراء سواء من دولة الفرنجة ذاتها أو من النصارى الفرنجى أو القوطى في شمال شرق أسبانيا — كما فصلنا^(٤) ، هذا فضلاً عن أن سفارات الفرنجة أنفسهم تعددت وتلاحقت ، مرة جاءت من قبل لويس الرابع ، وأخرى من قبل منافسه هيو الكبير^(٥) ، وربما من الإمبراطور أوتو نفسه من ألمانيا ، ولهذا فنحن لا نشك في حقيقة السفارة ووصولها إلى بلاط الناصر ، وإنما المشكوك فيه فعلاً هي طريقة تقديم هذه السفارة إلى الخليفة ، وطريقة استقبال الخليفة لها ، وما جرى عند لقائه بهم ، والشروط التى وضعها مسبقاً قبل أن يتحدث السفراء ، فهذه كلها أمور مستبعدة من الخليفة الناصر

(1) Hole : Andalus, Spain under the Muslims, p. 90

(2) Ibid. p. 90

(3) El - Hajji ; Dip. Rel. between And. and the Franks, p. 123

(4) Murphy : op. cit. p. 101

Lane - poole ; op. cit. p. 127

المقرى : نفع الطيب ج ١ ص ٢٤٣

(٥) ابن خلدون : المبرج ٤ ص ١٤٣

واحتما، وقوعها ضئيل جدا (١) ، وخاصة وأن الناصر اشتهر في الخفافين بأنه كان دبلوماسيا من الطراز الأول ، ومفاوضا متمرسا وسياسيا قديرا ، كان يستقبل السفراء من كافة أنحاء الدنيا ، ويحتفي بهم ويجري استقبال السفراء طبقا لمراسم خاصة تدل على علو كعب في الدبلوماسية (٢) ، فلا يعقل أن يتصرف بهذه الطريقة التي قد تحمل على القول بتعصبه الديني وإجباره الآخرين على اعتناق الإسلام ، فضلا عن أن يحدث ذلك مع سفراء دولة أخرى .

ويشير مؤرخ محدث إلى أن مثل هذا السلوك يعد سلوكا ساذجا ، ولا ينم عن تمدن بل إنه يخالف التقاليد التي اتبعتها حكام الأندلس في استقبال السفراء وتكريمهم ، وليس من المحتمل أن يحدث ذلك خلال حكم الخليفة الناصر بصفة خاصة ، حيث كانت التقاليد والاحتفالات الدبلوماسية ، وطريقة استقبال السفراء معروفة تماما ، ولا يعقل أن تصل تلك التقاليد إلى هذا المستوى (٣) . ويؤكد هذا الرأي قول المؤرخ هول : « لقد أصبح « بروتوكول » الاستقبال للسفراء أكثر إتقانا وإحكاما » على عهد الناصر في أسبانيا ، ويمشى هذا مع رأى المؤرخ المحدث زينو ، الذي يذهب إلى أن بلاط أسبانيا أصبحت تحكمه تقاليد و « بروتوكولات » لا يمكن أن تصل هذا إلى المستوى (٤) . ويوافقهم مؤرخ محدث آخر هو جاكسون Jackson على رأيهم ، ويضيف أن عبدالرحمن الناصر قد أضاف إلى عظمة قرطبة الشيء الكثير ، بتطوير وإتمام « البروتوكول »

(1) El - Hajji : op. cit, p. 123

(2) Lane - poole : op, cit. p. 143

(3) El - Hajji : op. cit. p. 123

(4) Hole : op. cit. p. 90

Reinaud : Mus. Col. in France, p. 152

في القصر ، الأمر الذي استرعى انتباه وإعجاب الحكام والسفراء الأجانب الذين مثلوا بين يدي الخليفة (١) . كما أن التفاصيل والوصف الذي حواه النص السابق ، يتناقض مع المعلومات التي قدمها المؤرخون المعاصرون لمثل هذه الاحتفالات لاستقبال البعثات الدبلوماسية وسفراء الدول ، فقد كانت الاستقبالات تتم في دهليز أو صالة السفراء المسماة « المجلس المؤنس » في قصر الخليفة في الزهراء (٢) .

وهكذا يرفض المؤرخون وصف المؤرخ المشار إليه ، ولا يقبلونه ، ويجردونه منافضا لما كان معروفا عن بلاط الناصر من ناحية وما كان يجري في الاحتفالات الدبلوماسية في الأندلس الأموية من ناحية أخرى (٣) ، وإن كانوا لا يشكون في وصول هذه السفارة أو البعثة التي ربما كانت بعثة تخصصية ، لا علاقة لها بالسياسة أو الدبلوماسية ، وحتى في هذه الحالة فالوصف الذي قدم لا يمكن قبوله برمته . إذ كيف يجري ترتيب مثل تلك العمليات المؤثرة الخفيفة كالطريق الطويل من قرطبة إلى الزهراء الذي غطي بالحصير لمسافة تزيد عن ثلاثة أميال ، وكيف يرص الجنود على جانبيه ، والسيوف المتشابكة إلى غير ذلك من الأمور التي لا نستطيع أن نقبلها وإن كان إضفاء المهابة والاحترام على بلاط الخليفة أمر جائز وثابت ، لكن ليس بهذا الشكل الدرامي المؤثر المرعب ، وكذلك جلوس الخليفة على تلك الهيئة التي ألفاه عليها السفراء ، كلها أمور بعيدة الاحتمال ، وغير مقبولة على الإطلاق (٤) .

(1) Jackson : op. cit. pp 42 — 3 .

(٢) هنان : دولة الاسلام في الأندلس ج ٢ ص ٤٠٢ — ٤٠٣ ،

Lure - poole : op. cit. p. 143

(3) El - Hajji : op. cit. p. 123 .

(4) Ibid. p. 123

فلقد كانت العلاقات مع الفرنجة بالذات تتعدى العلاقات الدبلوماسية وتتجاوزها إلى غير ذلك من مجالات الحياة ، لاسيما العلاقات الثقافية والعلمية ، بل إن ذلك لم يكن قاصرا على الفرنجة وحدهم ، بل مع غيرهم من الشعوب من كافة الانحاء (١) ، وذلك بعد أن وصلت الأندلس إلى قمة مجدها وقوتها ، وتقدمها العلمي والفكري ، فقد أصبحت قبلة يتجه إليها طلاب العلم من كل مكان ، ويقصدها الباحثون عن العلم والعرفان (٢) ، وتحدثنا النصوص أن جربرت راهب أوفرن Gerbert the Monk of Auvergne ، وهو الذي أصبح بابا فيا بعد باسم سليفستر الثاني Sylvester II (٩٩٩ — ١٠٠٣ م = ٣٩٠ — ٣٩٤ هـ) ، قد قدم إلى أسبانيا لدراسة العلوم الطبيعية والرياضية ، وأنه كان ناجحاً في تحصيله واستيعابه لها حتى أنه حين عاد إلى قومه مزوداً بقدر عظيم من العلم والمعرفة وخاصة في مجال العلوم ، اعتبره مواطنوه ساحراً مشعوذاً (٣) . وكان العلماء المسلمون في إسبانيا قد أظهروا تفوقاً على علماء اليونان والرومان القدامى وبزومهم في مجالات علمية كثيرة ، وطوروا ما وصل إليهم من العلوم اليونانية والرومانية ، لاسيما في مجال الطب والهندسة والعلوم والحساب والكيمياء وغيرها (٤) . ويذكر أنه كان بقرطبة في القرن العاشر

(١) Riddenson : The western image and western studies of Islam —in "The Legacy of Islam" Ed. by Joseph Schacht with Bosworth, pp. 15 — 17. (Oxford. 1974)

(٢) Bradford : Mediterranean Portrait of a Sea, p. 314
Lane - poole : op. cit. p. 144.

(٣) Reinaud : op. cit. p. 224 .

(٤) Lyon, Rowen Hamerow : op. cit. p. 212
Jackson : op. cit. p. 43

نحو سبعين مكتبة علمية تفص بالكتب النادرة والمسامة فى كل فروع العلم المختلفة (١) .

ولم يكن البابا سليفستر الثانى وحده هو الذى تلقى تعليمه فى أسبانيا الإسلامية على يد علماء من المسلمين ، وإنما يذكر أيضا أن بعض الرهبان الآخرين الذين صاروا بابوات فيما بعد ، قد درسوا فى جامعة مونبلييه Montpelier فى جنوب فرنسا على أيدى أساتذة من العرب (٢) . ولم يكن الأمر قاصرا على جنسيات بعينها ، بل تذهب بعض ملاحم القروسية أن شارلمان نفسه كان قد أرسل فى طفولته إلى أسبانيا ليتعلم ويحصل العلم على يد العلماء المسلمين هناك (٣) . ولقد أبدى مؤرخو القرن التاسع عشر أمثال رينو ودوزى وجولدسيهر وكذلك دارسو أسبانيا الإسلامية المعاصرون إعجابهم وتقديرهم بالمستوى العلمى والسياسى الرفيع الذى بلغته الأندلس الإسلامية فى ذلك العصر والقدرات العلمية والسياسية العالية التى تمتعت بها حكومة ومجتمع قرطبة حينئذ (٤) ، الأمر الذى يضع هذا القطر الإسلامى فى مقدمة أقطار الدنيا علميا وثقافيا وسياسيا أيضا .

نخلص من ذلك كله أن بلدا بهذا القدر من التقدم والازدهار ، حتى قبل عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، لا يمكن أن يتصرف حاكمها بالطريقة التى تقدمها ذلك النص ، عند استقبال سفراء دولة أخرى ، ولا يمكن أن يظهر

(1) Davis : op cit p. 178

(2) Camb. Med Hist. V. III, p. 532 ,

شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٢٦

(3) Reinaud : op. cit. p. 238

(4) Jackson : op. cit, p. 80

خليفةها بتلك الصورة أمام ممثلي ملك أجنبي . وأن بلدا كان في ذلك الوقت .
قبلة الطلاب والعلماء على كافة جنسياتهم وأممهم (١) ، لا يمكن أن يكون خليفته
بهذا القدر من السذاجة والسطحية ، وعلى ذلك القدر من التعصب وضييق
الأفق ، لأن بلاط قرطبة كان حتماً أنموذجاً مصغراً لدولة قوية طبقت شهرتها
الآفاق ، ومراة لما كانت تعيشه البلاد من تقدم مادي وفكري وما كان يروج
فيها من تيارات ثقافية وفكرية (٢) ، ولابد وأن احتفالات استقبال السفراء
والمبعوثين جرت في جو آخر طبقاً لتقاليد أمة راسخة في التقدم والازدهار .
كما جرى لقاء الخليفة بالسفراء بطريقة تعكس التمدن والتحضّر الذي كانت
تحياه البلاد (٣) . ولهذا فالوصف الذي قدمه المؤرخ سالف الذكر مار عن
الحقيقة تماماً وفيه مبالغة ظاهرة ، وجرى كتابته بطريقة ساذجة ، ليحوز
إعجاب السذج ، وليضيق على الناصر صفات التعصب الأعمى ، والتقصّف
والزهد، الذي لا يمكن أن يتمشى مع ما كان معروفًا عن خلافة قرطبة وخلفائها
الأمويين من رفعة ورقى ومجد وسؤدد — خاصة خليفتهما — ذائع الصيت
عبد الرحمن الناصر .

ويكاد يجمع المؤرخون القدامى منهم والمحدثون (٤) ، على أن عبد الرحمن

(١) Rodenson : op. cit. pp. 15 — 17

(٢) Lane - poole : op. cit. p 144 ، Bradford : op. cit p. 314

(٣) Ibid. p. 143

(٤) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٧٨

ابن عذارى : البیان المغرب ج ١ ص ٢٢٣ ، ص ٢٢٢

المقري : نافع الطيب ج ١ ص ٣٣١

ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٤٤ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٣٨

L v. Provenca : Hist. de L'Espagne Mus. II, 1p. 130 — 40

الناصر قد أضاف إلى عظمة قرطبة الشيء الكثير ، بعد أن أقام الخلافة في الأندلس على أسس راسخة في الرقي والمجد ، وتبوأ مكانته السامية بين عظماء الدنيا في ذلك الوقت ، وقام بتطوير وإنماء « بروتوكول » القصر في قرطبة الذي خلب أفئدة الحكام والسفراء الأجانب بعظمة ومهابة . ويشير أحد الكتاب إلى أن السفراء الذين كان يسمح لهم بالمشول بين يدي الخليفة ، كانوا لفرط التعظيم يقبلون الأرض بين يديه ، فإذا تعطف عليهم وبسط يده لهم ، سارعوا بتقبيلها في إكبار وتعظيم (١) .

وإذا كان حكام الإمبراطورية الفرنجية في الشرق ، وفي الغرب قد حرصوا على إقامة علاقات المودة والصداقة مع حكومة قرطبة على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، فإن البابوية أيضا أظهرت اهتماما بذلك على عهد البابا مارثيوس الثاني ٩٤٢ — ٩٤٦ م (٣٣١ — ٣٣٥ هـ) ، والبابا أجابتيوس الثاني ٩٤٦ — ٩٥٥ م (٣٣٥ — ٣٤٤ هـ) (٢) ، فقد اتصلت الرسل والسفارات بين حكومة روما البابوية ، وحكومة قرطبة ، ووصل إلى روما سفارة من قبل الخليفة عبد الرحمن الناصر ، كانت في أغلب الظن في سنة ٩٥٤ م (٣٤٣ هـ) ، تطلب بعض الأعمدة ومخلفات المعابد الرومانية ليزين بها الخليفة مدينة الزهراء ، التي كان معنيا كثيرا ببنائها وتزيينها ، فأجيب عبد الرحمن إلى طلبه ، بعد أن وفدت سفارة من روما بهذا الخصوص على الأرجح (٣) ، ووجدت البابوية في

(١) Jackson : op. cit p. 42

(٢) المقرئ : نفع الطيب ج ٢ ص ١٠٢ ،

Reinaud : Mus. Col. in France. p. 151

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣١١ ،

El - Hajji : And. Dip. Rel. p. 287

ذلك فرصة نادرة للتقرب إلى عاهل المسلمين وكسب وده وصدائقه ، لما حازه الناصر من شهرة في الخافقين ، ولهذا لا يمكن أن نقبل تشويه صورة هذا العاهل الكبير أو التقليل من مهارته السياسية والدبلوماسية مهما كان المصدر لذلك .

وعلى عهد الحكم بن الناصر ، لابد وأن السلام كان مستمرا مع دولة الفرنجة وأن الأمور كانت تسير معها بطريقة عادية ، لا أثر فيها لمعارك أو قتال أو عدا . حقيقة لا نجد في المصادر المعاصرة ما يؤكد وصول سفارات من قبل الفرنجة في فرنسا ذاتها إلى بلاط قرطبة على عهد هذا الأمير ، غير أنه من الثابت أن الحكم استقبل سفارات متعددة من حكام غاليسيا وقشتالة ونافار وبرشلونة وطرقونة ، وأنه كان يميل إلى استخدام الدبلوماسية والمفاوضات السلمية بدلا من استخدام القوة (١) . ويذكر المؤرخ ابن حيان أن ثمة سفارة أو اثنتين قد قدمت إلى قصر الحكم من الإمبراطور أوتو « ملك الإفرنج » في ألمانيا في سنة ٣٦٠ هـ ، ٣٦٣ هـ أي سنة ٩٧١ م ، ٩٧٤ م (٢) ، ومادام الأمر كذلك فعناه أن الصداقه كانت قائمة بين الحكم وعاهل ألمانيا ، وهي التي اهتم بتنميتها وحرص عليها سفراء ألمانيا من قبل ، فلا بد وأن الحكم فضل استمرار السلام مع حكام الممالك الغربية في أوروبا ، ولم يحاول أن يعكر الصفو معهم فيجرت الأمور على خير ما يرام ، وهكذا ساد السلام بين الجانبين . ويؤكد المؤرخون أن الحكم الثاني كان رجلا سياسيا ودبلوماسيا قديرا لا يقل في

(1) Bernhard and whishaw : op: cit. p. 155

(2) El - Hajji : Di: Rel. between And. and the Franks,

ذلك عن والده (١) ، فقد حرص والده على إشراكه في شئون الحكم لإكسابه المهارة في الشؤون السياسية والإدارية والدبلوماسية ، ولما تولى الخلافة أضاف إلى رسوم البلاط والقصر و « البرتوكول » الكثير ، وأظهر اهتماما باستقبال الحكام والسفراء ، وأعطى الكثير في هذا الجانب وفي العلاقات الدولية في ذلك الوقت (٢) .

وقبل أن نعرض للسفارتين اللتين تحدث عنهما ابن حيان إلى بلاط قرطبة ينبغي أن نشير إلى النشاط الدبلوماسي الذي قام به رجل شهير يدعى إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطرطوشي ، ومساهمته في استمرار الصلات الدبلوماسية بين حكومة قرطبة وبين أوروبا الغربية خاصة ألمانيا، ولو أن سفارتي الطرطوشي هذا إلى العاهل الأوربي في ألمانيا جاءتا في رأي مؤرخ محدث سفارات غير رسمية (٣) ، أما الطرطوشي فاسمه إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطرطوشي ، وكان رحالة أندلسيا ينتسب إلى طرطوشة ومن رجال القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) ، وكان يهوديا أو مسلما من أصل يهودي ، ورحل خلال كثير من الأقطار الأوربية ، خاصة بلاد السلاف (الصقلية) ، وإبان رحلته قابل البابا يوحنا الثاني عشر في روما سنة ٩٦١ (٣٥٠ هـ) ، وإمبراطور ألمانيا أوتو الكبير في مدينة ماذن برج ، وشاهد خلال سفارته الأخيرة هذه رسل البلغار إلى الإمبراطور الألماني ، ثم عاد إلى الأندلس سنة ٩٦٧ م (٣٥٦ هـ) ، حيث بدأ في كتابة رحلته في العام التالي ، وربما قدم كتابه المتضمن أخبار هذه الرحلة إلى خليفة قرطبة الحكم الثاني (٤) .

(1) Bernhard and whishaw ; op. cit. p. 155

(2) Jackson: op. cit pp. 42 — 43

(3) El - Hajjii ; And. Dip. Rel. p. 228

(4) Ibid, p. 271

ونستهل الحديث عن نشاط الطرطوشي الدبلوماسي بالقول أن نصوص كل من البكرى والقزويني وغيرهم من المؤرخين الذين أشاروا إلى سفارات الطرطوشي ونشاطه الدبلوماسي ، تشير إلى أن هذا الرجل قام بسفارتين إلى الإمبراطور أوتو الكبير جرت إحداها على الأرجح في سنة ٩٦٥م (٥٣٥٤هـ) ، وجرت الثانية في سنة ٩٧٣م (٥٣٦٢هـ) (١) .

غير أن فريقاً من المؤرخين يميلون إلى القول بأن السفارة الأولى للطرطوشي . قد جرت في سنة ٩٦١م (٥٣٥٠هـ) — اعتماداً على نص للمؤرخ العذري (٢) — قابل الطرطوشي خلالها الإمبراطور أوتو الأول في روما وليس في ألمانيا — أي أن لقاء الطرطوشي بالإمبراطور أوتو لم يجر في ألمانيا إبان سفارة الطرطوشي الأولى وإنما جرى في روما . ويؤيد ذلك أن الإمبراطور أوتو وصل فعلاً إلى روما في ذلك الوقت حيث جرى تتويجه على يد البابا يوحنا الثاني عشر في كنيسة بطرس في ٢ فبراير سنة ٩٦٢م (٥٣٥٠هـ) .

ولكن مؤرخاً محدثاً عالج هذه القضية ودرس مختلف الآراء والاتجاهات واستخلص منها أن سفارة الطرطوشي التي أشار إليها العذري كانت إلى روما للقاء البابا ولم تكن للقاء العادل الألماني وأنها جرت فعلاً في سنة ٩٦١م .

(1) Ibid pp. 241 — 43

(٢) العذري : (نصوص عن الأندلس) ص ٧ — ٨

عبد العزيز الأمواني — مدريد ١٩٦٥

(3) Gregorovius : Hist. of the city of Rome in the Middle Ages
III, pp. 332 — 3

Mann : The Lives of the Popes in the early Mid. Ages. IV,
p. 248

Tout : The Empire and the papacy 918 — 1273. p. 31

(٣٥٠ هـ) حيث قابل الطرطوشى خلالها البابا يوحنا الثانى عشر (٩٥٥ — ٩٦٤ = ٣٤٤ هـ — ٣٥٣ هـ) الذى حمّله رسالة إلى الخليفة الحكم الثانى وبعث بتمنياته الطينة لحكومة قرطبة (١) ، وأيد هذا المؤرخ رأيه بأنه لو كانت الطرطوشى يريد لقاء العاهل الألمانى فى هذه السفارة ، إذن لذهب للقائه فى ألمانيا وليس فى روما ، والأرجح أن هذه السفارة كانت قاصدة روما لمقابلة البابا ، أى أنها سفارة قائمة بذاتها قصدت البابا ولم تكن تقصد الإمبراطور الألمانى ، وإذا كانت العذرى قد أشار إلى أن العاهل الذى التقى به الطرطوشى له سمعة الملوك والحكام فإن البابا كان قد اتخذ فى تلك الآونة سمعة الحكام العلمانيين وأصبح أشبه بالملوك فعلا فى رسومه ونظمه وحياته الخاصة والعامة (٢) . إذ يشير العذرى : « وقد رأيت من قدم خبرها أن ابراهيم بن يعقوب الإسرائيلى الطرطوشى ، أخبر أن ملك الروم برومية سنة خمس وخمسين وثلاث مئة من الهجرة ، قال إنى أريد أن أرسل إلى أمير المؤمنين بالأندلس قومسا حاذقا بهدية ... » (٣) .

وطبقا لهذا رأى فإن إحدى سفارتى الطرطوشى اللتين أشار إليهما المؤرخون المعاصرون — وهى السفارة الأولى — قد جرت فى سنة ٩٦١ م وليس سنة ٩٦٥ م وكانت إلى روما وليس إلى ألمانيا ، أما السفارة الثانية،

(1) El - Hajji : op cit p. 251 — 2

(2) Duchesne : The Beginning of the Temporal Sovereignty of the Popes, p. 216 — 225 (Eng. tr. Mathew)

Gregorovius : op. cit. III, p. 321 — 28

Bryce : The Holy Roman Empire, p. 131

(٣) العذرى : نفسه ص ٧ — ٨ (عبد العزيز الأهوانى)

فقد التقى فيها الطرطوشى بالإمبراطور أوتو الأول فى ألمانيا لأن نص البكرى يتضمن اسم « هوته » أو أوتو ، الأمر الذى يرجح أن اللقاء قد تم فى ماذن برج Madhin Burg (Magde burg) (١) ، التى كانت المقر المفضل لأوتو الأول وأن السفارة كانت فى سنة ٩٦٥ م (٣٥٤ هـ) ، وليس فى سنة ٩٧٣ م كما ذهب المؤرخون . وأيد المؤرخ سالف الذكر رأيه هذا ، بأن هذه السفارة الثانية كانت حتماً سابقة لعودة الطرطوشى إلى قرطبة (٩٦٧ م) وهى السنة التى بدأ فيها كتابة رحلته ، وأنه لو حدثت هذه السفارة فى سنة ٩٧٣ م - السنة التى توفى فيها أوتو الأول - أذن لحرق الطرطوشى على تدوين أخير وفاة الإمبراطور أوتو الأول ، الذى جاز إلى ربه فى نفس العام (٢) .

ونفهم من ذلك أن الطرطوشى قام بسفارتين ، اتجه فى الأولى منهما إلى روما حيث التقى فيها بالبابا يوحنا الثانى عشر سنة ٩٦١ م ، واتجه فى الثانية إلى ألمانيا حيث التقى بالعاقل الألمانى أوتو الأول فى ماذن برج على الأرجح سنة ٩٦٥ م

غير أننا نجد كل من البكرى والقزوينى يشير إلى سفارتين للطرطوشى مع أوتو الأول وليس إلى سفارة واحدة مع هذا العاقل الألمانى ، كانت إحداها فى سنة ٩٦٥ م والثانية فى سنة ٩٧٣ م (٣) ، ولهذا فإننا نعتقد أنه ليس ثمة ما يمنع أن يكون للطرطوشى قد التقى بالإمبراطور الألمانى فى سفارتين وليس سفارة واحدة ، فضلاً عن سفارته الأخرى التى التقى فيها بالبابا يوحنا الثانى

(1) El - Hajji : op. cit. p 257

Dvornik: The Slavs in European Hist p. 28

(2) El - Hajji : op cit p 271

(3) Dvornik : The Making of Central and Eastern Europe p. 83.

عشر في روما . وعلى الرغم من وجاهه رأى المؤرخ سالف الذكر بأن سفارات الطرطوشى كانت حتما سابقة لعودته إلى قرطبة سنة ٩٦٧ م وهي السنة التي بدأ فيها كتابة رحلته ، إلا أننا لا نجد ما يمنع من أن يكون الطرطوشى قد قام بسفارة ثانية إلى ألمانيا حسب رواية المؤرخين المعاصرين في سنة ٩٧٣ م أى قبيل وفاة أوتو الكبير ، لأنه في هذه السفارة الأخيرة رأى رسل البلغار الذين استقبلهم أوتو « فأما ملك البلقاريين (البلغار) فلم أدخل بلده ، ولكنى رأيت رسله بمدينة ماذن برج ، حين وفدوا على هوته (أوتو) الملك ... » .

أما القول بأنه لو حدثت سفارة للطوطوشى في تلك السنة (٩٧٣م) لحرص الطرطوشى على تدوين أخبار وفاة الإمبراطور أوتو الكبير ، الذى جاز إلى ربه في نفس العام ، فليس ذلك بقرينة ضد حدوث السفارة في ذلك العام ، إذ يحتمل أن الطرطوشى لم يسمع بوفاة الإمبراطور إلا بعد عودته ، وكتابة أخبار هذه السفارة الأخيرة . وعلى هذا يمكن القول أن ثمة سفارتين قام بهما الطرطوشى لألمانيا ، التقى فيها بالإمبراطور إحداهما جرت سنة ٩٦٥ م والثانية جرت سنة ٩٧٣ م ، فضلا عن سفارة أخرى التقى فيها بالبابا في روما سنة ٩٦١ م (٣٥٠ هـ) ، مع احتمال وجود الإمبراطور الألماني في روما في ذلك الوقت أيضا (١) .

وأدت هذه السفارات والنشاط الدبلوماسى للطرطوشى إلى استمرار العلاقات الودية والصلات الحضارية بين دولتي الأمويين في أسبانيا على عهد الحكم الثانى والإمبراطورية الألمانية التي انبثقت — قبل ذلك — عن إمبراطورية

(1) Gregorovius : op. cit. III, p. 334

Mann : op. cit: IV, p 248

Tout ; op. cit p. 31

الفرنجة الكبيرة التي أرسى دعائمها عاهل الفرنجة الكبير شارلمان (١)، وغطت شهرتها في القرن العاشر وما تلاه على شهرة الدولة الفرنجية في قسمها الغربي التي قنعت في هذه المرحلة بدور ثانوي في الأحداث ولم تمكنها ظروفها الداخلية وأحوالها العامة حينئذ من أن تلعب دوراً كبيراً في السياسة الدولية والعلاقات الدبلوماسية مع أسبانيا الإسلامية، وواضح أن الصلات السياسية والدبلوماسية بين الدولتين في ألمانيا وفي أسبانيا نشطت في تلك المرحلة وجرى حوار دبلوماسي بينهما وتبودلت السفارات والرسائل بين الجانبين (٢).

أما فيما يخص بالسفارتين اللتين أشار إليهما ابن حيان، واللتين قدمتا إلى بلاط الحكم الثاني المستنصر بالله : فقد جاءتا من قبل الإمبراطور الألماني أوتو — كما رجح البعض — جاءت الأولى في ذي القعدة سنة ٣٦٠ هـ (سبتمبر سنة ٩٧١) : « ودخل بدخوله أيضاً أشراكه بن عمر داود القومس رسول هوتو ملك الإفرنج بكتابه أيضاً يجدد صلته ». ووصلت الثانية إلى قرطبة في ذي القعدة سنة ٣٦٣ هـ (يوليو سنة ٩٧٤) « وتوصل إثره أشراكه رسول هوتو ملك الإفرنج ، فأوصل كتابه أيضاً مجدداً لعده ومؤكداً لعقده ». ولقد أثارت هذه النصوص مشكلة هامة واعتقد فريق من الباحثين (٣) ، أنها يخصان سفارة واحدة هي السفارة الأخيرة التي حدثت سنة ٩٧٤ م (٣٦٣ هـ) ، اعتماداً على أن المبعوث واحد في النصين ، بما يعنيه ذلك من أنها سفارة واحدة ، فضلاً عما جاء في النصين من أنها وصلت في شهر ذي القعدة

(1) Camb. Med. Hist. V. 3, p. 67

(2) Reinaud : Mus. Col. in France., p. 110.

(3) Lévi - Provençal : op. cit. I. pp. 153 — 4

كما يؤكد أنها سفارة واحدة ، وأنه ربما اختلط على الناسخ أمرها فكررنا على ذلك النحو ، وذهبوا إلى القول أيضا بأنها جاءت من قبل الإمبراطور الألماني أوتو الثاني الذي اعتلى العرش خلفا لوالده سنة ٩٧٣ م ، والذي حرص بعد اعتلائه العرش على تجديد صلات الود مع حكومة قرطبة استمرارا لصلات المودة بين أوتو الأول والخليفة عبد الرحمن الناصر (١) .

غير أن مؤرخا آخر عارض هذا الاتجاه بعد مناقشة القضية من جوانبها المختلفة وأكد أن كل إشارة من إشارات ابن حيان تعني سفارة بذاتها وأن ورود اسم واحد للسفيرين في كلا النصين ليس قرينة على أنها سفارة واحدة ، بل يؤكد أنهما سفارتين كل منهما قائمة بذاتها : إذ جرى إرسال نفس سفير المرة الأولى في السفارة الثانية لما اكتسبه من خبرة بهذا الأمر ، ولسابق معرفته بحدود مهمته ولهذا جرى اختياره للقيام بالسفارة الثانية (٢) .

والواقع أنهما سفارتين قائمتين بذاتهما ، وليستا سفارة واحدة ، إذا سلمنا بأنهما جاءتا من قبل الإمبراطور الألماني ، ونضيف أنه إذا كان رأي الفريق الأول من المؤرخين المحدثين بأنها سفارة واحدة جاءت من قبل الإمبراطور الألماني الجديد (أوتو الثاني ٩٧٤ م) لتجديد الصلات واستمرار علاقات الصداقة مع حكومة قرطبة ، التي كانت سارية على عهد أوتو الأول ، فإن ذلك أدعى لحدوث السفارة الأولى سنة ٩٧١ م من قبل الإمبراطور أوتو الأول لتنهئة الخليفة الجديد في قرطبة الحكم الثاني بعد اعتلائه عرش الخلافة

(1) Lévi - Pr vençal : op. cit. II, p. 153 — 4

هنا : المرجع السابق ج ٢ ص ٤٤٨

(2) El - Hajji : And Dip. Rel p. 276

واستمرارا لعهد المودة وحسن العلاقات مع حكومة قرطبة ، التي كانت سارية على عهد والده عبد الرحمن الثالث .

وبعبارة أخرى ، إذا كان الإمبراطور الألماني الجديد أوتو الثاني قد حرص على إرسال سفارة إلى قرطبة ، بعد اعتلائه العرش ليحدد صلات المودة والعلاقات الطيبة فلا بد وأن والده أوتو الأول قد فعل نفس الشيء عند اعتلاء الحكم الثاني عرش الخلافة سنة ٩٧١ م لتجديد هذه المودة ، واستمرار الصداقة مع حكومة قرطبة في عهد خليفته الجديد . أى أنها سفارتين قائمتين بذاتهما ، وليستا سفارة واحدة ، هذا إذا سلمنا أنهما قد قدمتا من قبل العادل الألماني .

لأنه على الرغم من أن المؤرخ سالف الذكر قد ذهب إلى القول بأنهما سفارتين قائمتين بذاتهما ، وليستا سفارة واحدة ، إلا أنه تشكك في كونهما مرسلتين من قبل الإمبراطور الألماني ، وذهب إلى القول بأنها ربما أرسلتا من قبل العادل الفرنجي فيما وراء البرنية ، أى قدمتا من فرنسا ، وخاصة وأن المؤرخين المسلمين المعاصرين ، لم يفرقوا كثيرا بين أوتو أو هوتو أو هيو ، وهذا الأخير أحد حكام فرنسا في هذه الحقبة (١) ، ولهذا رجح هذا المؤرخ أن « ملك الإفرنج » يعنى دون مواربة ملك الجانب الغربى من دولة الفرنجة فيما وراء البرنية (البرتات) ، وليس العادل الألماني أوتو ، وخاصة وأن هناك نصوصا لدى كل من المقرئ وابن حيان تشير إلى أن ملك الإفرنج يعنى في رأيهما عاهل فرنسا فيما وراء البرنية (٢) . ولقد دعم هذا المؤرخ رأيه بأن هناك

(1) Reinaud : op. cit. p. 45, 143

Camb. Med. Hist. V. 3, p. 75 n

El-Hajji : op. cit. p: 277

(٢) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٣١٠

إشارة في نص ابن حيان توحى بأن مرسل السفارتين عاهل واحد ، فإذا اعتقدنا أنهما من قبل عاهل ألمانيا ، فلا بد وأن أحدهما هو أوتو الأول والآخر هو أوتو الثاني ، وهذا يتنافى مع كونهما أرسلتا من قبل عاهل واحد ، وأضاف بأننا لو سائرنا هذا الافتراض — من أن إحدى السفارتين قدمت من قبل أوتو الأول سنة ٩٧١ م — فإنه في هذا التاريخ لم يكن أوتو الأول في ألمانيا ، وإنما كان متغيباً عنها مشغولاً بنشاطه العسكري خارج ألمانيا^(١) . فلم يكن في هذه الظروف بحاجة إلى إرسال سفرة إلى قرطبة ، ولم يكن لديه الوقت للتفكير في هذه السفارة للحصول على صداقة حكومة قرطبة . أما أوتو الثاني الذي قيل أنه أرسل السفارة الثانية سنة ٩٧٤ م ، فقد كان في تلك الظروف مشغولاً بإخضاع بعض الثورات التي اندلعت ضده في أنحاء مختلفة من بلاده^(٢) ، فلم يكن هو الآخر معنياً بالبحث في تلك الظروف عن صداقة قرطبة واستمرار علاقات المودة مع خليقتها .

وعلى هذا يمكن القول بأن نص ابن حيان ، كان يعني سفارتين قدمتا إلى بلاط قرطبة ليستا من قبل الألمان ، وإنما من قبل الفرنجة فيها وراء البرنية أى من فرنسا ، فإذا سلمنا بذلك فلا بد وأن مرسل هاتين السفارتين هو «هيو كاييه» الذي خلف والده هيو العظيم في الحكم سنة ٩٥٦ (٣٤٥ هـ)^(٣) ، وكان ذلك بمثابة فصل الختام في عمر المملكة الكارولنجية، إذ بعد وفاة لويس الخامس سنة ٩٨٧ م (٣٧٧ هـ) ، انفرد هيو كاييه بالعرش مقيماً حقبة جديدة في تاريخ فرنسا ، ومنها العهد الكارولنجي في تلك البلاد .

(1) Enc. Brit " Htto 1 " XVI, 965

(2) Enc. Brit: " Otto 11 " XVI, 966

(3) Camb. Med. Hist. V. 3, p. 80

El - Hajji : op. cit. p 279

ويؤيد الرأى القائل بأن السفاريتين قدمتا من الفرنجة أنهما جاءتا من قبل غاهل واحد طبقا لنص ابن حيان ، فلا بد وأنهما قد حدثتا فى عهد هذا العاهل الفرنجى ، ولا بد وأن هيو كاييه كان معنيا بتجديد صلات المودة مع الخليفة الحاكم الثانى التى كانت قائمة قبل ذلك على عهد كل من الخليفة عبد الرحمن الناصر^(١) وهيو العظيم والد هيو كاييه^(٢) . ويؤكد ذلك أيضا أن اسم السفير الفرنجى « أشراكه بن عمر داود القومس » يشير إلى أنه إما أحد العرب أو أحد المستعربين من الإقليم الفرنجى وراء البرنيه ، حيث سكن هذه أنواح كثيرة من المسلمين المستعربين ، وأثروا كثيرا فى سكان هذا الإقليم . وهذا الاحتمال ، يعد أكثر قبولا من أن يكون هذا السفير قد جاء من ألمانيا ، فقد سكن كثير من المسلمين جنوب فرنسا وأثروا فى سكانها فبدأ سكان هذه الجهات يتكلمون العربية ويقبلون على الثقافة العربية^(٣) .

ولا بد وأن هيو كاييه كان يبحث عن صداقة قرطبة فى تلك الظروف التى صاحبت قيام دولته الجديدة فى تاريخ فرنسا ، خلفا للأسرة الكارولنجية ، وربما كان هيو كاييه فى حاجة ماسة إلى هدوء على الحدود مع أسبانيا المسلمة من ناحية ، ومنعاً لقيام أية ثورات قرب الحدود بتأييد من حكومة قرطبة من ناحية أخرى ، ربما تسبب تعكير صفو الحكم الجديد، ومنعاً لقيام أية أحلاف بين قرطبة وأعداء المملكة الجديدة مع ما كانت تمثله قرطبة من وزن سياسى وعسكرى فى ذلك الوقت^(٤) .

(١) المافرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٣١ ، ص ٢٤٣

(٢) ابن حلدون : البرج ٤ ص ٣١٠

(3) Reinaud : Mus Col. in France, p. 217 p 228

(4) El - Hajji : op. cit. pp, 280 — 1

وعلى هذا فرسل هاتين السفرتين هو هيو كاييه ملك فرنسا الجديد ،
الذى كان فعلا بحاجة إلى قيام سلام مع حكومة قرطبة في ظروف كان أحوج
فيها إلى الهدوء لإرساء دعائم حكمه الجديد ، وأسس أسرته الجديدة التي ورتت
الأسرة الكارولنجية في حكم فرنسا . ومعنى ذلك أن الصلات الدبلوماسية كانت
لا تزال قائمة بين دولة الفرنجة وعاهل قرطبة الحكم الثاني ، وتبودلت السفارات
تأكيدا لروابط الصداقة وحسن الجوار ، وجرت السفارات بين الدولتين حتى
أواخر القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) .

المصادر والمراجع

أولا - باللغة العربية :

ابن الأبار (ابن الأبار القضاعي) :

— الحلة السراء (القسم المطبوع بعناية دوزى)

(وكذلك تحقيق مؤنس - القاهرة ١٩٦٣)

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن الجزرى) :

— الكامل فى التاريخ (طبع بيروت — ١٩٦٥ م — ١٣٨٥ هـ)

ابن حزم الأندلسى :

— جمهرة أنساب العرب (تحقيق عبد السلام هارون — القاهرة

(١٩٦٢)

ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان) :

— المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس

(الجزء الثانى تحقيق د. محمود مكى —

بيروت ١٩٣٧)

(الجزء الثالث المنشور بعناية منشور

أنتونيا — باريس ١٩٣٧)

(جزء مختص بحمس سنوات من خلافة

الحكم المستنصر — تحقيق الحجي —

بيروت ١٩٦٥)

أبن حوقل :

— المسالك والممالك (المكتبة الجغرافية)

أبن الخطيب (لسان الدين محمد بن سعيد ت ٧٧٦ هـ)

— الإحاطة في أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٠٤ ، ١٩٥٦)

أبن الخطيب :

— أعمال الأعلام (نشر ليفي بروفنسال — بيروت ١٩٥٦)

أبن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) :

— المقدمة (تحقيق د. علي عبد الواحد وافي —

القاهرة ١٩٦٥)

— العبر وديوان المبتدأ والخبر (بولاق — ١٢٨٤ هـ)

أبن الزبير (القاضي الرشيد بن الزبير) :

— الذخائر والتحف (تحقيق د. محمد حميد الله — الكويت ١٩٥٩)

أبن سعيد المغربي :

— المغرب في حلى المغرب (تحقيق د. شوقي ضيف — القاهرة ١٩٥٣)

أبن عبد البر (أبو عمر يوسف) :

— الاستيعاب في معرفة الأصحاب (تحقيق علي محمد البجاولي —

القاهرة ١٩٦١)

أبن عبد ربه الأندلسي :

— العقد الفريد (طبع القاهرة ١٩٢٨ — وطبعة لجنة

التأليف والترجمة)

ابن عذارى (أبو عبد الله محمد المراكشي) :

— البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب

(كولان — رليفي بروفنسال)

ابن القرضى (عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي) :

— تاريخ علماء الأندلس (القاهرة — ١٩٦٦)

ابن القوطية (أبو بكر محمد بن القوطية) :

— تاريخ افتتاح الأندلس (مدريد — ١٨٦٨)

أخبار مجموعة لمؤلف مجهول (نشر أميلو لافونتي أى الكنترا —

مدريد — ١٨٦٧)

الإدريسى (الشريف الإدريسي) :

— مختصر نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (طبع روما ١٥٩٢)

— وصف الأندلس للإدريسى (طبع بعناية المستشرق سافدرا)

الاصطخرى (أبو القاسم إبراهيم بن محمد النارسي الاصطخرى) :

— المسالك والممالك (تحقيق د. محمد جابر الحيني — القاهرة

(١٩٦١)

البكرى (عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو أبو عبيد البكرى) :

— جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك

(تحقيق الحجي — بيروت ١٩٦٨)

— المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب من كتاب المسالك والممالك

(المنشور بعناية المستشرق دي سلان)

الحميدى (أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدى) :

— جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس (القاهرة — ١٩٦٦)

الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم) :

— صفة جزيرة الأندلس — منتخبة من كتاب الروض المعطار
(المنشور بعناية ليفي بروفنسال —
القاهرة — ١٩٣٧) .

السلوى :

— الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (القاهرة — ١٣٠٦ هـ)
الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي) :
— بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس (القاهرة — ١٩٦٧)
العذرى (أحمد بن عمر بن أنس العذري) :

— نصوص من الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار —
منشور بعناية الدكتور / عبد العزيز
الأهوانى — مدريد — ١٩٦٥

القزوينى (زكريا القزوينى ت ٦٨٢ هـ)

— آثار البلاد وأخبار العباد (بيروت — ١٩٥٦)

الكندى :

— تاريخ الولاة والقضاة

مجهول المؤلف :

— الاستبصار في عجائب الأمصار (تحقيق د. سعد زغلول

عبد الحميد — الاسكندرية — ١٩٥٨)

المراكشى (عبد الواحد بن علي) :

— المعجب في تلخيص أخبار المغرب (القاهرة — ١٣٣٢ هـ)

المسعودى (أبو الحسن علي بن الحسين المسعودى) :

— مروج الذهب ومعادن الجوهر (الجزء الأول بولاق)

(الجزء الثالث دي مينارد — ١٨٦١)

المقرئ (التلمساني) :

— نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب (تحقيق محمد محي الدين

عبد الحميد بيروت — ١٩٤٩)

المقرئ (أحمد بن علي) :

— اتعاظ الخنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء (القاهرة — ١٩٤٨)

ياقوت الحموي

— معجم البلدان (القاهرة — ١٩٠٦)

(بيروت — ١٩٦٧)

أرشيبالد لويس :

— القوي البحرية والتجارية (ترجمة أحمد عيسى ومراجعة غربال

— القاهرة — ١٩٦٠)

أسد رستم :

— الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب

(بيروت ١٩٥٥ — ١٩٥٦ م)

بروكلمان :

— تاريخ الشعوب الإسلامية (ترجمه إلى العربية نبيه فارس والبلبيكي

— بيروت ١٩٤٨ — ١٩٤٩)

بلنشييه :

— تاريخ الفكر الأندلسي (ترجمة د. حسين مؤنس — القاهرة ١٩٥٧)

دوزى :

— تاريخ مسلمى أسبانيا (ترجمة د. حسن حبشى — الجزء الأول
— القاهرة ١٩٦٣)

ديفز :

— شارلمان (ترجمة د. الباز العرينى — للقاهرة ١٩٥٩)

حاطوم :

— تاريخ العصر الوسيط فى أوربا (لبنان ١٩٦٧ م — ١٣٨٦ هـ)
الحجى (د. عبد الرحمن علي) :

— الحضارة الإسلامية فى الأندلس (بيروت ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م)
سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) .

— أوربا العصور الوسطى (جزءان — الطبعة السادسة — القاهرة ١٩٧٥)

— المدنية الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوربية (القاهرة ١٩٦٣)

— فضل العرب فى الحضارة الأوربية (القاهرة ١٩٥٧)

— الحركة الصليبية (جزءان — القاهرة ١٩٦٣)

السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :

— تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس (بيروت ١٩٦٢)

— تاريخ مدينة المرية الإسلامية (بيروت ١٩٦٩)

— قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس (بيروت ١٩٧١ جزءان)

السيد عبد العزيز سالم و د. أحمد مختار العبادى :

— تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس (بيروت ١٩٦٩)

شكيب أرسلان :

— تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط

(بيروت ١٩٦٦)

- التحلل المسندسية في الأخبار والآثار الأندلسية (بيروت)
العبادي (دكتور أحمد مختار) :
— في تاريخ المغرب والأندلس (الاسكندرية مؤسسة الثقافة الجامعية)
— دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (الاسكندرية ١٩٦٨)
العدوي (دكتور / ابراهيم أحمد) :
— المسلمون والجرمان (القاهرة ١٩٦٠)
— المجتمع الأوربي في العصور الوسطى (القاهرة ١٩٦١)
فازيلييف :
— العرب والروم (ترجمة شعيرة — القاهرة)
ليفى بروفنسال :
— حضارة العرب في الأندلس (ترجمة دوقان قرقوط)
— الإسلام في المغرب والأندلس (ترجمة سالم — القاهرة ١٩٥٦)
لوبون (جوستاف) :
— حضارة العرب (ترجمة عادل زعيتر — القاهرة ١٩٦٤)
لين بول :
— العرب في أسبانيا (ترجمه من الانجليزية على الجارم —
القاهرة ١٩٦٠) .
محمد الشيخ (دكتور محمد محمد الشيخ) :
— الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتي سقوط الرها
(الاسكندرية ١٩٧٠)
— الممالك الجرمانية في أوربا في العصور الوسطى
(الاسكندرية ١٩٧٥)

- سياسة الإمبراطور البيزنطى ثيوفيل تجاه الخلفاء العباسية
(بحث فى مجلة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود
الإسلامية — الرياض ١٩٧٩ م — ١٣٩٩ هـ)
- شارلمان باعث النهضة الأوروبية (مقالة — الاسكندرية ١٩٧٥)
محمد عبد الله عنان :
- دولة الإسلام فى الأندلس (جزآن — القاهرة ١٩٦٩)
— تراجم إسلامية (شرقية وغربية — القاهرة ١٩٧٠)
موس :
- ميلاد العصور الوسطى (ترجمة جاويد — مراجعة العرينى)
القاهرة ١٩٦٧
- مؤنس (دكتور حسين) :
- المسلمون فى حوض البحر الأبيض المتوسط إلى بدء الحروب الصليبية
(مجلة الجمعية التاريخية — القاهرة ١٩٥١)
- فجر الأندلس ٧١١ — ٧٥٦ (القاهرة ١٩٥٩)

ثانياً - باللغات الأجنبية :

Alcuin, Epist. in : A Hist. of Medieval Europe. by Davis

The Annals of Fulda — M. G. H. Scriptorum in — A Hist. of
Medieval Europe, by Davis

Annales Regni Francorum (Ed. Kurze)

The Battle of the Dyle 891, trans. from the Chronicle of Reg-
ino of Prüm, Ed. Kurze 1890 — in : A Hist. of Med.
Europe, by Davis

La Chanson de Roland; The French Texte Texte., together
with a fine translation by René Hague, is printed in
“ The Song of Roland ” (London 1937)

Dümmler, Epistolae Karolini Aevi (M. G. H.)

Einhard : “ Life of Charlemagne ” in the Medieval word, by
Cantor (New York 1968)

Epistolae Gerberti Ed. J. Havet 1889, Chronicon Novaliciense
(trans. Davis in - C. M. H.)

Gesta Abbatum Fontenellensium (Ed. Loewenfeld 1886)

Gregory of Tours : Hist. of the Franks (trans. by Dalton 2
Vols. Oxford 1927)

Lives of the Roman Pontiffs in - Lodovico Antonio Muratori,
Rerum Italicorum Scriptores Mediolani 1723 - in Docum-
ent of the German History, by Snyder (New York 1975)

M. G. H. Epist. Cap. Reg. Franc.

Monumenta Germaniae Historica, Scriptores, Ed. by Georg H.
Pertz and others - Hanover and Berlin 1826 - 1925 - in :

Documents of German Hist. by Snyder. (N. Y. 1975)

See :

A : « The Annales Bertiniani »

B : « The Annales of Lauresheim »

G : « The Treaty of Mersen 870 »

Nouvelle édition Revue et Augmentée avec Trenta - Deux Planches Hore Texte. (Paris - Leiden)

A Passage trans, from Boretius Capitularia Regum Francorum
(M. G. H. 1883)

Widukind's Rerum Gestorum Saxonicarum, Libri Tres (Ed.
Waitz 1882)

Viking (trans. by Keery) in - Haskins, The Normans in Euro -
pean Hist. (N. Y. 1959)

Aimond, ch :

Le Moyen Ages (Paris 1947)

Altamiro, R :

A History of Spain from the beginning to the present
Date, (trans. by Muna lee - London 1952)

Anwar G. Chjne :

Muslim Spain, tis Hist. and culture (Minneapolis 1973)

Barrie Dobson :

German Hist. 911 — 1618 — in Germany, A companion to
German studies; Ed. by Malcolm Pasley (London 1972)

The Book of History : Hist of all nations from the Earliest
times to the Present. Vol. V, VII; VIII; many specialists:

- Heyck, Eduard : « The rise of the Germanic races and the coming of the Barbarians »
- Helmolt, Hans, F : « Italy throughout the middle Ages »
- Mährenholz, R. : « The Empire of Charlemagne »
« France throughout the middle Ages »
- Schjotb, Hans : « Great days of the Northmen »

Bernhard and whishaw :

Arabic Spain (London 1912)

Bradford ;

Mediterranean Portrait of a Sea (London 1971)

Brook :

A Hist. of Europe 911 — 1198 (London 1928)

Bryce :

The Holy Roman Empire (1904)

Bury. J. B. :

— A Hist. of Eastern Roman Empire (London 1912).

— A Hist. of the Later Roman Empire 2 vols.
(London 1923)

Cambridge Medieval History 8 Vols. (Cambridge 1924)

Cantor, N. F. :

— Medieval History (New York 1964 sec. pr.)

— The Medieval world 300 — 1300 (Ed. by Cantor New York 1968)

Daniel :

The Arabs and Medieval Europe (London 1975)

Davis, R. H. C. :

A Hist. of Medieval Europe (London 1970)

Deanesly :

A Hist. of Early Medieval Europe (London 1956)

Dozy :

— Histoire des Musulmans d'Espagne

(Leiden 1932 — London 1913)

وقد جرى ترجمة هذا الكتاب إلى الإنجليزية بعنوان :

Spanish Islam, by Stokes - London 1913

— Recherches sur l'histoire et la Littérature de L'Espagne
pendants le Moyen Age (Leiden 1860)

Duchesne :

The Beginning of the Temporal Sovereignty of the Popes
(Eng. trans. Mathew - London 1908)

Dvornik :

The Making of central and Eastern Europe (London 1949)

El - Hajji, Abd. El - Rahman :

— Andalusian Diplomatic Relations with western Europe
during the Umayyad Period. (Beirut 1970)

— « Diplomatic relations between Andalusia and the Fra-
nks during the Umayyad period » in The Islamic
Quarterly, V. XIII, No. 2 — April - June 1969

Encyclopaedia Britannica (Ed 1952)

Encyclopaedia of Islam. (Eng. Vols)

Fliche :

L'Europe Occidentale de 888 à 1125 (Paris 1930)

Freeman, E. A. :

Hist. of Norman Conquest (London 1847)

Ganshof :

— Feudalism

— « Notes sur les Ports de Provence du VIIIe au Xe
siècles » Revue Hist -V, 183 (1938)

Gayangos :

The Hist. of the Mohammedan Dynasties in Spain
(London 1816)

Gregorovius :

Hist. of the city of Rome in the middle Ages (Eng. trans.
Hamilton — London 1895)

Grosset :

Histoire des croisades (Paris 1936)

Haskins, Ch. H. :

The Normans in European Hist, (New york 1959)

Hole :

Andalus, Spain under the Muslims (London 1958)

Hollister :

Medieval Europe (New york 1974)

Hoyt and Chodorow :

Europe in the Middle Ages (U. S. A. 1976)

Inamuddin :

A Political history of Muslim Spain (Dacca 1961)

Jackson :

The Making of Medieval Spain (California 1976)

- Keen, S :
A History of Medieval Europe (London 1967)
- La Monte :
The World of the middle Ages (1949)
- Lane - poole :
The Moors in Spain (London 1897, Beirut 1967)
- Lewis, B. :
— Naval Power and trade in The Mediterranean
(Princetion 1954)
— The Arabs in history (London 1966)
- Lévi - Provençal :
— Histoire de L'Espagne Musulmane III, Tome (Paris:
1950)
— L'Espagne Musulmane au Xe siècle institution et vie
Sociale (Paris 1932)
- Livěrmore, Harold :
History of Spain (London 1966)
- Lodge, Sir; R. :
The Close of the middl Ages 1273 — 1494 (London 1961)
- Lot, F :
The End of the Ancient world and the Beginning of the
middle Ages (London 1966)
- Luchaire ;
Le quatre premiers Captiens in Lavisse : Hist. de France
(Paris 1901)
- Lyon and Rowen and Hamerow :
A History of the western world. (Chicago 1969)

Mann :

The lives of the popes in the Early middle Ages.
(London 1906 — 10)

Murphy, J. C. :

History of the [Mohometan Empire in Spain
(London 1816)

Oman, Sir Charles :

The Dark Ages 476 — 918 (London 1962)

Ostrogorski :

History of the Byzantine State. (Oxford 1956)

Painter :

A Hist. of the middle Ages (New York 1954)

Pascual de Gayangos :

The History of the Mohammedan Dynasties in Spain.
(London 1843)

Pirenne H. :

— Mohamed and Charlemagne (London 1968)

Previté :

The Shorter Cambridge Medieval History,
(Cambridge 1953)

Prou, M. :

La Gaule Merovingienne (Paris 1964)

Ramnaud :

Histoire de L'Empire Grec, au dixième siècle.
(Paris 1870)

Read, Jan. :

The Moors in Spain and Portugal (London 1974)

Reinsaud :

Muslim Colonies in France, Northern Italy and Switzerland. Eng. tr. Sherwani - Lahore 1964)

Rodenson :

The Western image and western studies of Islam in —
« The Legacy of Islam » Ed. by Joseph Schacht with
Bosworth. (Oxford 1974)

Tout :

The Empire and the Papacy 918 — 1273 (London 1924,
1903)

Vasiliev :

The Byzantine Empire, (Madison 1952

کشاف

(ا)	أجایتوس الثاني (بابا) :
إبراهيم بن يعقوب الأسرائيلي	۲۷۹ ، ۱۸۳
الطرطوشي :	آجد :
۲۸۱ — ۲۸۵	۱۳۶
إبلو :	آخن (إكس لاشابل) :
۱۷۳	۱۷ ، ۲۲ ، ۳۳ ، ۴۳ ، ۶۱ ، ۶۷ ، ۷۰
ابن حفصون :	۲۳۶ ، ۲۳۹ ، ۲۴۰
۱۰۴ ، ۱۰۵ ، ۱۱۲ — ۱۱۷	الإخشيديين :
ابن الطريشة :	۱۱۹
۱۰۷	الأدارسة :
أبو ثور :	۱۱۸ ، ۱۲۷ ، ۱۲۸
۱۳۷	إدریس بن إدریس :
أبو حفص عمر بن عيسى البلوطي :	۱۷۴ ، ۲۳۸
۸۸	إدلبرت :
أبو الفتح ناصر :	۲۰۷
۹۳	إداورد الأول :
أبو يزيد مخلد بن كيداد :	۵۹
۱۱۸	آراجون :
إثيلد :	۱۷۱
۶۰	أربونة :
إنلستان :	۱۳۶ ، ۱۶۱ ، ۱۶۲
۶۰	

أستولف :	أرسيموندس (رسيموندس) :
٢٠٠	٢٦٧٤٢٦٥
الإسكندرية :	إرجل (مدينة) :
٨٨	١٦١
آسيا الصغرى :	آرل :
٩٧	١٨٩٤١٨٨٤١٨٠٤١٧٦٤٧١
أشبونة :	١٩٢ — ١٩٠
٩٣٤٩٢٤٨٦	أرنولف :
إشيلية :	٣٨ — ٤٧٤٥٠٤٥١٤٣
٩٢٤٧٨ — ٩٤٤١٠٧٤١٣	أزنار :
أشتوريش :	١٧٣
٨٣	أسبانيا :
أشونة :	١٣٤٢١٤٧٧٤٨٣٤٨١
٢٤٠	٨٨٤٩٢٤١١١٤١١٥٤١٢١
الأغالبة :	١٢٥٤١٣١٤١٣٥ — ١٤٦٤١٢٩
٩٧٤٩٨٤١٠٤٤١١٦	١٥٨ — ١٧٥٤١٧٩٤١٨١٤١٩٩
الآفار :	٢١١٤٢١٥ — ٢١٧٤٢٢٠٤٢٣
٢١٤٢٥٤١٣٧٤١٤١٤١٦٢٠٤٢٢	٢٢٧ — ٢٣٠ — ٢٣٣٤٢٣٩
إفرانشين :	٢٤١٤٢٤٧٤٢٥٠ — ٢٥٢٤٢٥٩
٥٤	٢٦٠٤٢٦٩٤٢٧٠
الإفرنج : انظر الفرنجة	استجة :
إفريقيا :	١٠٤

٤٧٢ — ٦٦٠٦٣٠٦١٠٥٨٠٥٦

٢٦١٠٢٤٩٠٢٠٥٠١٣٨٠١٣٧

٢٩٠٠٢٨٩٠٢٨٦ — ٢٨٠٠٢٧٠

أمالق :

٣٤

الأمويون (بني أمية) :

٤١٠١٠٩٩٠٩٥٠٨٥٠٧٩٠٧٨

٤١١٨٠١١٦ — ١١١٠١٠٦٠١٠٣

٤١٦٨٠١٣٥٠١٣٣٠١٢٧٠١٢٦

٤٢١٦٠٢١٥٠٢٠٦٠١٨٥٠١٧٧

٢٨٥٠٢٧٨٠٢٧٥٠٢٣٣٠٢٢٠

الأندلس :

٤١٠٣٠١٠١٠٩٩ — ٩١٠٨٢٠٧٨

٤١٣٠ — ١٢٣٠١٢٠ — ١١٢

١٨٠٠١٧٧ — ١٧٣٠١٤٢ — ١٣٦

٤٢٠٤٠١٩٦٠١٩٥٠١٨٦ —

٤٢٢٠٠٢١٨٠٢١٧٠٢١٠٠٢٠٦

٤٢٣٢٠٢٢٨٠٢٢٦٠٢٢٤٠٢٢٣

٤٢٦٤٠٢٦١٠٢٦٠٢٤٠٠٢٣٩

٢٨٣٠٢٨١٠٢٧٩٠٢٧٦ — ٢٧٤

ألسلم :

١٥٧

أنسنتلس :

٧٩٠٧٧

أكثونية :

٩٠

أكويين (أقطانيا) :

٤٢٩٠٢٨٠٢٦٠٢١٠٢٠٠١٨

٤٦٠٠٥٨٠٥١٠٥٠٠٣٦٠٣١

٤١٦٢٠١٦١٠١٥٩٠١٤٣٠١٤١

٢٤٢٠٢٤٠٠١٧٩٠١٦٩

أكي :

٢٠٠

ألبيرة :

١٠٦

ألية :

١٠٠

ألراس :

٢٠٤٠٧٠٠٢٥

ألسيز :

٣٣

ألفونسو (الثاني) :

١٦٩٠١٨٦٠٩٠

ألمانيا :

٤٢٧ — ٢٥٠٢٠٠١٨٠١٥٠١٣

٤٠١٠٤٦٠٤٥٠٤٢٠٣٨٠٣٤

البرتغال :	٢١١
١٨٤	بافاريا :
برجام (مدينة) :	٤٤ ٤١ ٣٨ ٣٥ ٣٤ ٢٦
٤٥	٤٦ —
برجنديا :	البافاريين :
٣١ ٢٦ ٢٥ ٢٠ ١٨ ١٧	١٣٧
— ٥٠ ٤٦ ٤١ ٤٠ ٣٧ ٣٦	بانونيا :
٢٤٩ ٢٠٨ ٦٣ ٦٢ ٥٢	٣٨ ٣٤
برشلونة :	ببشتر :
١٣٩ ١٣٧ ١٠٨ ١٠٠ ٨٢	١٠٥ ١٠٤
١٧٥ — ١٧٠ ١٦٩ ١٥٠ ١٤٦	بربر :
٢٣٧ ٢٣٢ ٢٣١ ٢٢٣ ١٧٨	٨٦ ٨٥ ٨٣ ٨٠ ٧٨ ٧٧
٢٨٠ ٢٦٤ ٢٤٢	١٠٧ ١٠٥ — ١٠٣ ٩٤ ٩٠
برنارد (ابن شارل السمين) :	١٢٦ ١٢٢ ١١٨ ١١٢ ١٠٨
٤٣	١٧٥ ١٤٢
برنهارت (ولد جيوم) :	بربشتر :
١٧٤	١٨٣ ١٨٢
بروفانس :	برت أشيرة :
٤٠ ٣٧ ٣١ ٢٦ ١٨	١٥٠
١٩٠ ١٨٩ ١٨٨ ١٨٧ ١٧٩	برت جافة :
٢٠٢ ٢٠١ ١٩٨ ١٩٣ ١٩١	١٥٠
٢١٠ ٢٠٩ ٢٠٧ ٢٠٥ ٢٠٣	برت بيونة :
٢١١	١٥٠

٢٣١٠٠١٥٤٠١٥٠٠١٤٩

البندقية :

٣٤٠٣٢

بنفتو :

٢٠٠٠٣٤٠٣٢٠٢٨

بنزرت :

١٢٠

بنو أبي عبدة :

١٠٧

بنو حجاج :

١٠٧

بنو خلدون :

١٠٧

بنو ذي النون :

١٠٨٠١٠٧

بنو صالح :

١١٨

بنو قسي :

١٨٩٠١٧٤

بنو موسى :

١٨٩٠١٨٨٠١٧٤

بواتر :

برونو (أسقف كولونيا) :

٦٧

بريتاني :

١٥٧٠١٤٣٠٣١٠٢٩٠٢٨

البريتون :

٢٩

البشكنس (النافاريين) :

— ١٤٨٠١٤٥٠٩١٠٨٣٠٨١

٠١٦٨٠١٦٠٠١٥٧—١٥٢٠١٥٠

٢٣٩٠٢٢٥٠١٧٤٠١٧٣٠١٦٩

بطليوس :

١١٣٠١٠٨٠١٠٧٠١٠١٠٩٠

بغداد :

١٦٥٠١٤٠٠٨٩٠٨٥

بلای :

١٠٥

بلغار :

٢٨٥٠٢٨١٠٤٣٠٢٩

بلنسية :

١٧٦٠٨٦

بنبلونة :

٠١٤٥٠١٢١٠١٠٨٠١٠٠٠٩١

(ث)

ثعلبة بن عبید الجذامی :

۱۵۸، ۱۴۲، ۱۳۹، ۱۳۸

الثغر الأوسط :

۱۷۲

الثغر الأعلى :

، ۱۷۲، ۱۷۱، ۱۶۴، ۱۶۳، ۱۰۸

، ۱۸۸، ۱۸۳، ۱۸۲، ۱۷۸، ۱۷۴

۲۴۵، ۲۳۹، ۲۳۸، ۲۳۳

ثورنجیا :

۳۵

ثيوفانو (زوجة أوتو الثاني)

۷۳، ۷۰

ثيودورا :

۹۸

ثيوفيل (إمبراطور بيزنطی) :

۹۸، ۹۷

ثيونقيل :

۳۳

(ج)

جان دی تولوز :

۱۷۸

۱۴۳، ۱۴۲، ۹۰

تريير :

۳۳

تسكانيا :

۴۵

تشلدريك (الثالث) :

۱۹

تطيله :

۱۷۴

توتبرج :

۳۲

تور — بواتيه :

۱۷۵، ۱۳۵

تورتور :

۲۰۹

تورينو :

۲۰۲، ۲۰۰

تولوز :

۲۴۱، ۲۹۰

تونس :

۱۱۸

٢٧٦	جان دى جورز :
جربرج (زوجة لويس الرابع) :	٢٦٩ — ٢٦٥ ٢٦٤ ٢٦١
٦٤	جان دى لا بور (آكام) :
الجرمان : انظر النورمان	١٤٤
جريحورى التورى :	جبال الألب :
١٩	٢٠٦ ٢٠١ ١٩٧ ١٩٤ — ١٩١
جريحورى (الثالث) :	٢١١ ٢٠٨
١٨	جبال البرنيه (البرتات — البرانس) :
جرينوبل :	١٤ ١٥ ١٣٥ ١٣٦ ١٤١٤ —
٢٠٧ ١٩٩	١٤٣ ١٥٠ ١٥١ ١٥٦ ١٦١ —
الجزائر :	١٦٥ ١٦٩ ١٧١ ١٧٢ ١٧٤
١١٨	١٨٨ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٨٨
جزر البليار :	٢٨٩ ٢٩٠
١٨٨ ١٨١ ١٨٠ ١٧٧ ١٧٥	جبال كانتابريا :
الجزيرة الأيبيرية :	٨١
١٤	جبل طارق :
الجزيرة البريطانية (إنجلترا) :	٧٧ ١١٧ ١٢٧ ١٢٨ ٢٣٢
١٥ ١٠٣ ٩٤ ٦٠ ٥٩ ٥٠	٢٥٠ ٢٥٨ ٢٥٩
الجزيرة الخضراء :	جديث :
١١٧	٢٥٠
جليقية : أنظر غالمسيا	جربادة :
جند الأردن :	٢٥٤
	جربرت راهب أوفرن :

١٢٥ — ١٣٠ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ٢٥٢

٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٨٠

٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ — ٢٨٨ ، ٢٩٠

الحسن بن جنون (كنون) :

١٢٧ ، ١٢٨

الحسين بن يحيى الأنصارى :

١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٩

١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٠

(خ)

الخرز :

١٢٠

الخلافة الأموية في الشرق :

٧٧

الخلافة العباسية : انظر (العباسيون)

الخلافة الفاطمية (الفاطميون) :

١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨

١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٩٦

الخندق :

١٢٢ ، ١٢٣

(د)

داجوبرت :

١٦

٧٨

جند فلسطين :

٧٧

جنوة :

١١٩ ، ١٩٦ ، ٢٠٠

جنيف :

٢٠٠ ، ٢٠١

جورا :

٣٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣

جيان :

١٠٤ ، ١٠٦

جيرونة (جيرندة) :

١٣٧ ، ١٤٦ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣

١٦٩ ، ١٧١ ، ٢٤٢ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩

جيوم كونت تولوز :

١٦٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠

(ح)

الحكم الأول (الربضى) :

٨٤ — ٨٩ ، ١٣٦ ، ١٦٠ ، ١٦٢

١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧٤

٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨

الحكم الثانى (المستنصر) :

رافنا :	الادانوب (نهر) :
۲۲	۱۴۱۶۳۰
الربضيي :	دتر (مدينة) :
۹۸۶۹۷	۱۴۸
رتدة :	دوفينة — (دوفيني) :
۱۰۱۶۸۳	۶۲۰۵ ، ۱۹۸ ، ۱۹۳ ، ۱۹۲ ، ۱۹۰
روبرت :	۲۰۹ ، ۲۰۸ ، ۲۰۷
۷۵	الدولة الزيرية :
رودشتاد :	۱۲۶
۲۵	دير بالمودي (الترتيل) :
روسيلون :	۱۹۳
۲۵۹ ، ۲۵۸	دير كلوني :
روما :	۲۰۸
۶ ۲۸ ، ۲۸ ، ۲۶ ، ۲۴ ، ۲۲ ، ۱۹	دير كور :
۶ ۴۵ ، ۴۳ ، ۴۲ ، ۳۶ ، ۳۴ ، ۳۲	۲۰۱
۶ ۱۸۳ ، ۱۸۲ ، ۶۹ ، ۶۷ ، ۶۶ ، ۴۶	دير فواليس :
۶ ۲۷۹ ، ۲۰۸ ، ۲۰۱ ، ۱۹۹ ، ۱۸۷	۱۹۲
۲۸۵ ، ۲۸۴ ، ۲۸۲ ، ۲۸۱	(ر)
رولان :	الراين (نهر) :
۱۵۷ ، ۱۵۳ ، ۱۵۲	۶ ۱۴۸ ، ۱۴۱ ، ۵۸ ، ۵۶ ، ۳۰ ، ۲۶
رومانوس الثاني (امبراطور	۲۰۱ ، ۱۴۹
بيزنطي) :	الرازي :
	۱۴

۱۲۷، ۱۱۸	۸۹
الزهراء (مدینة) :	رومانوس لیکائینوس :
۶۲۷۰، ۲۵۲، ۱۸۳، ۱۲۵، ۱۲۴	۱۹۶
۲۷۹، ۲۷۵، ۲۷۱	رونسفال (ممر) :
(س)	۶۱۶، ۱۵۵ — ۱۵۰، ۱۴۴، ۸۱
سافوی	۲۳۹، ۲۲۳، ۲۱۸
۲۰۴، ۲۰۳، ۲۰۱، ۱۹۲	راؤول :
ساکس :	۱۹۵، ۱۸۲، ۲۰ — ۵۷
۱۳۸	روللو :
سارنو :	۱۸۰، ۱۷۹، ۵۶ — ۵۳
۱۹۹، ۳۲	الریف :
سان برنارد :	۱۱۸
۲۰۶، ۱۹۸	ریو :
سان ترویه :	۲۰۰
۱۹۷، ۱۹۱، ۱۹۰	ریة :
سان جال :	۱۰۲، ۱۰۱
۲۰۴	(ز)
سان کلیر :	زبطرة :
۱۸۰، ۵۵، ۵۳	۹۷
سبتانیا :	زکریا (بابا) :
۶ ۱۷۴، ۱۶۵، ۱۶۱، ۱۳۵، ۱۸	۱۹
۲۴۵، ۲۳۲، ۱۸۸	زناته :
سپته :	

١٤٩ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤

٢٤٦

سكسونيا :

٣٥ ، ٢٦

سل :

١٦٥

السلاف :

٤٢ ، ٢٥ ، ٢١

سليمان بن عبد الرحمن :

٨٢ ، ٨٦ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ٢٣٥

سليمان بن يقطان الكلابي :

١٣٧ ، ٣٨ — ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٨

١٦٠

سوايا :

٢٦ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٣

سواسون :

١٧ ، ١٩ ، ٥٧

سوسة :

١٢٠

سولسونة :

١٦٩

سويسرا :

١٨٥ ، ١٩٨ ، ١٩٩ — ٢٠٦ ، ٢١٠

١١٧ ، ١٢٧

سبوليتو :

٣٢ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ — ٤٦

ستيفن الثاني (بابا) :

١٩

ستيفن الرابع (بابا) :

٢٣

سرت :

٢٥٨ ، ٢٥٩

سردينيا :

١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٦ ، ١٨٧

سرقسطة :

٨٢ ، ٨٣ ، ٨٦ ، ٩٨ ، ١٢١ ، ١٢٤

١٣٧ — ١٣٩ ، ١٤٢ — ١٤٧ ، ١٤٧

١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٩ ، ١٦٠

١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٧٨ ، ١٨٢ ، ١٨٣

١٨٨ ، ٢١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٤٢

سعدون الرعيني :

١٧٠

سعيد بن الحسين الانصارى :

٨٢

السكسون :

١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٨

١٧٨٠٦١ — ٤٩٠٤٢٠٤٨٠٣٥

٢٥٠ — ٢٤٧٠١٨٩٠١٨٢٠١٨٠

شارل السمين :

٤٩٠٤٠٠٣٨ — ٣٤

شارل اللورين :

٧٢٠٦٩٠٦٨

الشام :

٢٤١٠٧٨

شامبانيا :

٦٣٠٦٢٠٥٨

شدونة :

١٩٥٠١١٣٠١٠٦٠١٠٤٠٩٢

شقبة :

٨٧

شلد :

٢٦

(صن)

الصقالبة :

٢٨١٠٢٧٠٠١٢٤٠١٢٢

صقلية :

٨٢١٠٠١٢٠٠١١٩٠١١٦٠٩٧

الصليبيين :

١٥

٢٦١٠٢١٤

سيس (وادی) :

١٩٣

السين :

٦٨٠٦٣٠٥٥٠٥٤٠٥١٠٤٩

(ش)

شارتر :

٥٣

شارل الكبير (شارلمان) :

٤٤٧٠٤٤٠٣٨٠٢٦٠٢٤ — ١٩

٠١٧٦ — ١٣٦٠٩١٠٨١٠٧٢

٠٢٢٠٠٢١٨٠٢١٧٠٢١٥٠١٨٦

٠٢٧٧٠٢٤١٠٢٣٨٠٢٣٦ — ٢٢٢

شارل مارتل :

١٩٣٠١٣٥٠١٨٠١٧٠١٦

شارل (ابن لويس التقي) :

٠١٨٨٠٠١٧٩ — ١٧٧٠٣٥ — ٢٥

٢٤٦ — ٢٤١٠٢٢١٠١٩٩٠١٨٩

شارل (ابن شارل الأصلع) :

٣٣٠٢٩

شارل (ابن لوثر بن لويس المتقي) :

٣١٠٣٠

شارل البسيط :

٧٧ — ٧٩ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ١٠٤	صنباجه :
١١٤ ١٤٠ ١٤٨ ١٥٥ ١٦٧	١٢٦ ١١٨
٢١٧ ٢٢٨ ٢٣٢ ٢٤٩	(نظ)
عبد الرحمن بن حبيب القهري :	طريقة :
١٣٧ ١٤٢ — ٢٤١	١٢٠
عبد الرحمن بن الحكم (الثاني أو الأوسط) :	طروشة :
٨٩ — ٩١ ٩٣ ٩٤ ٩٦ ٩٩	٨٢ ٨٣ ١٧٢ ١٧٦ ١٧٨ ١٧٩
١٧٢ ١٧٨ ١٨٠ ١٨٨ ٢٢١	٢٣٣ ٢٤٢ ٢٦٤ ٢٨١
٢٣٣ ٢٣٨ ٢٤٠ — ٢٤٣	الطرطوشون :
عبد الرحمن بن معاوية (الباغل)	(أنظر ابراهيم بن يعقوب)
٧٧ ٨٢ — ١٣٥ ١٤٣	طركولة :
١٥٠ ١٥١ ١٥٩ — ١٦٢ ١٦٨	١٦٩ ١٨٨ ٣٨٩
٢١٥ — ٢١٨ ٢٢٠ — ٢٢٦	طليعة :
٢٢٨ — ٢٣٣	٢٧٨ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٩٠ ٢٩١
عبد الرحمن الفافقي :	١٠١ ١٠٧ ١٠٨ ١٧٥
١٣٥	طنجة :
عبد الرحمن الناصر :	١١٧ ١٢٧ ١٢٨
١٠٦ ١٠٨ ١١١ ١١٣ — ١٢٦	طولون :
١٢٨ ١٢٩ ١٢٢ — ١٨٤ ١٩٥	١٩٥
١٩٨ ٢٠٥ ٢٤٦ ٢٤٧ — ٢٥٠	طريف :
٢٥٣ ٢٦٠ — ٢٧٠ ٢٧٣ —	١١٧
٢٧٥ ٢٧٧ — ٢٨٠ ٢٨٧ ٢٩٠	(ع)
	العباسيون (الخلافة العباسية) :

(ف)

فالتون :

۲۰۴

فاليه :

۲۰۴ ۲۰۰

فراکستم :

۲۰۹ ۱۹۷ ۱۹۶ ۱۹۱ ۱۹۰

۲۶۹ ۲۶۷ ۲۶۱ ۲۱۰

فرانکفورت :

۲۶۷ ۲۶۶ ۶۸ ۳۸ ۳۴ ۲۵

فرانکونيا :

۳۵

فردان :

۱۷۷ ۲۷ ۲۶

فرماندوا :

۶۴

فرنيجه :

۱۳ — ۹۹ ۸۶ ۷۹ ۵۶ ۲۰

۱۳۳ ۱۳۵ ۱۳۶ ۱۳۸ — ۱۴۶

۱۵۲ ۱۵۵ — ۱۸۰ ۱۸۵ ۱۸۶

۲۱۵ — ۲۲۱ ۲۲۴ ۲۲۶ ۲۲۹

۲۳۰ ۲۳۵ — ۲۶۰ ۲۶۴

۲۷۰ ۲۷۱ ۲۷۶ ۲۸۰ ۲۸۶

۲۸۸

فرنسا :

۱۳ ۱۵ ۲۱ ۲۷ ۳۱ ۳۲

۳۴ ۳۶ ۳۷ ۳۹ ۴۰ ۴۲ ۴۵

۴۹ ۵۰ ۵۵ ۵۸ ۶۰ ۶۲ ۶۳

۷۲ — ۹۴ ۱۰۳ ۱۲۱ ۱۲۳

۱۴۱ ۱۴۳ ۱۴۵ ۱۵۳ ۱۶۵

۱۶۸ ۱۶۹ ۱۷۱ ۱۷۵ ۱۷۶

۱۷۸ ۱۷۹ — ۱۸۱ ۱۸۳ ۱۸۵

۱۸۶ — ۱۸۹ ۱۹۱ — ۱۹۵

۱۹۹ ۲۰۲ ۲۱۰ ۲۳۳ ۲۳۵

۲۳۸ ۲۳۹ ۲۵۵ ۲۶۱ ۲۶۶

۲۷۰ ۲۸۰ ۲۸۸ — ۲۹۱

فريجوس :

۱۹۱ ۱۹۵

فريزيا :

۲۴ — ۲۶ ۳۳

الفريزيين :

۹۱

القسطاط :

۲۵۴

فلاندرز :

۲۴ ۵۰ ۶۲

(٥٠)	١٦٢	القوج :
قرمونة :	٥٦	
١١٣	فورمن :	
القسطنطينية :	٣٩ ٢٥	
١١٩ ٩٨ ٩٧	فيشي :	
اشتالة :	١٦٢	
٢٨٠ ١٢٨ ١٢١ ٨٣	القيكنج :	
القصي :	٣١ ٢٤	
٢٤٣	فين :	
قطالونيا :	٢٦٤	
٢٤٠ ٢٣٥ ١٧٤ ١٧١ ١٣	(ق)	
٢٧١ ٢٧٠ ٢٥٩ ٢٥٨ ٢٤٦	قادس :	
٢٧٣	٩٢	
القلاع :	قرطبة :	
١٠٠	٨٧ ٨٦ ٨٤ ٨٣ ٧٩ ٧٨	
قسطنطين السابع :	١١٦ ١٠٦ - ٩٦ ٩٤ ٩١ ٩٠	
١١٩	١٣٩ ١٢٤ ١٢٣ ١١٩ ١١٨	
قورسيفا :	١٧٨ - ١٧٠ ١٦٧ - ١٦٠ ١٥١	
٢٣٨ ١٨٧ ١٨٦ ١٧٦ ١٧٥	١٩٠ ١٨٩ ١٨٨ ١٨٥ - ١٨٠	
القوط الغربيون :	٢٢٤ ٢١٧ ٢٠٥ ١٩٨ ١٩٦	
١٤٥ ٧٧	٢٦٩ ٢٦٧ - ٢٦٤ ٢٢٨ ٢٢٧	
(ك)	٢٩١ - ٢٧٦ ٢٧٥ ٢٧٣ ٢٧٠	
كابوا :	قرقشونة :	
٢٠٠ ١٩٩ ٣٢		

كاردونا (مدينة) :	١٦٢
كارلومان :	٢٠٤١٩
كارلومان (ابن لويس الجرمانى) :	٣٨٤٣٥٤٣٤
كارلومان بن لويس المتعلم :	٣٦٤٣٥
كارثيا :	٣٨٤٣٤
الكارولنجيون (الكارولنجي) :	١٣ — ١٥١٩٤٢٠٤٢٢٤٢٣٤
	٢٥٤٢٧٤٣٠٤٣١٤٣٥ — ٥٢
	٥٩ — ٦٣٤٦٥٤٦٩٤٧١ — ٧٣
	١٤٠٤١٧٦٤١٧٨٤١٧٩٤١٨٢
	١٨٩٤٢٢٤٢٢٧٤٢٣١٤٢٥٠
	٢٥٣٤٢٥٨٤٢٨٩
كاستر :	١٦٢
كريت :	١١٩٤٩٧٤٨٨
كلوفس :	١٥
كولون :	١٤٨٤٣٣
كولونيا :	٦٧٤١٧
كوننتين :	٥٤
كونراد الأول :	٥٦
كونراد (ملك) :	٢٠٤٤٢٠٣
كونستاس (بحيرة) :	٢٥٤٤٢٠٠
كنيسة بطرس :	٢٨٢٤١٩٩٤٦٦٤٤٦٤٤٤
كنيسة بولس	١٩٩
(ل)	
لاردة :	١٨٣٤١٦٩٤١٦٤
لامبرت :	٤٦٤٤٥
لشونة :	١٨٤٤١٣٠

672 73 672 60A — 07 62.

170

لوزان :

۲۰

لويس بن بوزو :

192

لويس التقي (الأول) :

—1716109630627—23

6Y3361AA 6 1YA—179, 173

٢٤١ — ٢٣٨

اویس (الثانی) :

32 6 31 6 30 6 29

لویس (الثالث) :

346 347 350

لویس الرابع (ابن شارل البسیط):

61A26 Y36 Y26 70—7. 609

YYW 6 Y09 — Y37 6 190

لويس الخ-امس (ابن لويس

الرابع) :

YLA C YT C YI C YA

لويس الشاب :

۳۷-۳۸

لشفيلىد (معركة) :

77

لمبارديا :

४.४८ ४.५८ ४.५

اللّٰمِبَارْدِيْن :

1236 1376 2162.6 1A

اللو ار :

170639

لوثر الأول :

17610

لوئر (الثانی) :

127630633617

لوثر (ابن لويس التقى) :

' 170 ' 30 ' 32 ' 3. ' 27 ' 20

144, 146

لوثر (حنفید اویس التقی) :

7164.

لوثر (الرابع بن لويس الرابع):

182: V3—V. 679—74: 70

لوثرنجیا :

ΣΟ 6 Σ + 6 ΨΥ 6 ΥΥ

اللورين :

لويس الطفل (ابن أرنولف) : ماين :

ΣΥ 6 Σ.

41

لويس ابن لويس التقى :

مايول :

630 — 296 286 276 266 250

Y. A.

۱۷۷

： 〃

لويس المتلعم :

۲۷۷۶ ۲۷۸۶ ۱۷۰۶ ۳۳۶ ۱۷

FO.

المحور :

لیچوریا :

2.5

Y. 36 Y. 46 Y. 56 1A5

المحررين :

ليون (لايون) :

Y. 36 77 6 70 6 72 6 0A 6 07

61+061++69969167A61Y

محمود بن عبد الجبار :

1A. 6 139 6 128 6 122 6 121

9. +

(۲)

محمد بن عبد الرحمن (أمير) :

ماجلوت :

6 1.3 6 1.1 6 1.0 6 9A 6 9Y

155.

٢٤٥٦١٧٩

ماذن برج :

محمد بن هانيء الأندلسي :

YAO C YAE C YAI

115

ماردة :

عمر سید علیا :

1Y061.A61.169.6A7

1946 1AA 6 1Y1 6 170

مارينوس الثانى (بابا) :

مسروان بن محمد (خليفة) :

TY96 1A4

YY

مالقة :

المربية :

4-261-12

1276120

(ن)	٣٣
نايلي :	موسى بن موسى :
٢٠٠٤١٩٩٤٣٤	٢٤٥٤١٨٩٤١٨٨
ناربون :	المولودين :
١٧١	٨٥ — ٩٩٤٨٩ — ١٠٣٤١٠١
نافار :	٢٣٤٤٢٢٠٤١١٢٤١٠٧
٤١٢٢٤١٢١٤١٠٨٤١٠٠٤٩٩	مونيليه :
٢٨٠٤١٤٥٤١٢٨	٢٧٧
نجدة الصقلي :	مونتفات :
١٢٢	٢٠٢٤٢٠٠
نستريا :	ميرزن :
٤٠٥١٤٠٤٣٦٤١٩٤١٧٤١٦	٣٣
١٤٣٤٦٠٤٥٧٤٥٦	الميروفنجيون :
نقفور فوقاس :	٢٥٨٤٣١٤١٩٤١٥٤١٤٤١٣
٢١١٤٨٨	الميز (نهر) :
نكور :	٣٣
١١٨	ميلانو :
نهر الايت :	٤٥
٥٣	مينز :
نهر الابر :	٣٣
١٤٧٤١٤٤٤٨١	ميورقة :
نهر أنليو :	١٨١٤١٨٠
١٦٢	

١٣٦	نهر التبير :
(ه)	١٩٩
هارولد الرشيد :	نهر الجارون :
١٦٧ ، ١٦٦ ، ١٦٥	١٤٣
هاشم الضراب :	نهر الرون :
٩٠	٢٦٤ ، ١٩٩ ، ١٨٩ ، ١٨٨ ، ١٨٠
هربرت (أمير فرماندوا) :	نهر اللوار :
٦٢ ، ٦٠ ، ٥٩ ، ٥٨	١٨٧
هروتروود (ابنة شارلمان) :	نهر الوادي الكبير :
٢٢١	١٦٢ ، ١٣٩ ، ٩٢ ، ٨٧
هشام بن عبد الرحمن الأول	النورمان :
(الرضا) :	— ٥٠ ، ٤٩ ، ٤٣ ، ٣٩ ، ٣٧ ، ٢٩ .
— ١٦٠ ، ١٣٦ ، ٨٤ ، ٨٣ ، ٨٢	٥٦ ، ٦٠ ، ٩١ — ٩٤ ، ١٠٢ ،
٢٣٢ ، ١٦٨ ، ١٦٥ ، ١٦٣	١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٤٣ ، ١٧٩ ،
هشام بن الحكم (المؤيد) :	١٨٠ — ١٨٤ ، ١٨٨ ، ٢٦٢ ، ٢٤٥ ،
١٣١	نورمانديا :
هنري الأول (ملك ألمانيا) :	٥٣ — ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤ ،
٥٦	١٢٣ ، ١٧٥ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،
هنري الأسود (دوق برجنديا) :	نيس :
٦٢	١٨٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٩ ،
هنري بن هيو الكبير :	نيقولا الأول (بابا) :
٦٦	٣٣٠
	نيم :

وليم طويل السيف :	هيج (هوج) البروفانسي :
٦٢٠٥٦	١٩٨ — ١٩٥٠١١٩
وشقة :	هيو بن لوثر الثاني :
١٦١٠٠١٤٥٠١٣٧٠٨٦٠٨٢	٣٥
١٦٤٠١٦٣	هيو درق تور :
(٥)	١٧٥
يحيى بن عبد الملك :	هيو بن روبرت :
١٨٣	٥٧
يحيى الغزال :	هيو الكبير :
٩٧	٢٥٢ — ٢٤٩٠١٨٢٠٦٨ — ٦١٠٦
يحيى بن يحيى الليثي :	٢٩٠٠٢٨٩٠٢٧٣٠٢٥٧٠٢٥٥
٨٤	هيو كاييه :
اليمنية :	٢٨٩٠١٧٢٠٧٣ — ٦٨٠٦٦
١٣٧٠٨٢٠٨١٠٧٨	٢٩١٠٢٩٠
يوحنا الثاني عشر (بابا) :	هير :
٢٨٤ — ٢٨١٠٦٦	١٩١
يوحنا زمسكيس :	(و)
٢١١	والدراد :
يوسف بن عبد الرحمن القهرى :	٣٥ — ٣٢
٧٨	ونكند (زعيم سكسوني) :
اليهود :	١٤٨
٢٣٢	وليم كونت تولوز :
	١٦٢

الفهرس

رقم الصفحة

المقدمة	١
الباب الأول : دولة الفرنجة	١١
الفصل الأول : دولة الفرنجة حتى نهاية القرن العاشر الميلادى	١٣
— الفصل الثانى : فرنسا بعد وفاة شارل السمين سنة ٨٨٨ م	٤٩
الباب الثانى : الدولة الأموية فى أسبانيا	٧٥
— الفصل الثالث : عصر الإمارة ٧٥٥—٩١٢م (١٣٨—٥٣٠٠)	٧٧
— الفصل الرابع : عصر الخلافة ٩١٢—٩٧٦م (٣٠٠—٥٣٦٦)	١١١
الباب الثالث : الاشتباكات العسكرية بين الفرنجة والأمويين	١٣٣
— الفصل الخامس : الاشتباكات بين الجانبين على المستوى الرسمى	١٣٥
— الفصل السادس : الاشتباكات بين الجانبين على المستوى الشعبى	١٨٥
الباب الرابع : العلاقات الدبلوماسية والصلات الحضارية بين الجانبين	٢١٣
— الفصل السابع : العلاقات الدبلوماسية والصلات الحضارية	
بين الجانبين	٢١٥

فهرس الخرائط

- مواقع غزوة شارلمان لسرقسطة ومعركة باب الشزرى . . ٢١٩
- أسبابنا الإسلامية خلال العصر الأموى . . . ٢٥٦
- نشاط الطرطوشى الدبلوماسى . . . ٢٧٢

مطبعة شريف وشركاه ٥٩ شارع الجامعة — محرم بك.



Bibliotheca Alexandrina



0338005

To: www.al-mostafa.com